الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 406
أيار: 2019

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد
رقم الحساب: 11153
سويفت كود: MBIVIQBA

بالدولار:
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment– Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- معالم المشروع الفلسفي للبروفسور نمير العاني (2-2) ..... فوزي حامد الهيتي
17- البرنامج الحكومي بين التقويم والتعويم ..... عبد الجبار احمد عبد الله
24- البرنامج الحكومي: تَكْريسُ أزمة الاقتصاد ونتائجها تَوأم الفَشَلْ والفَسَادْ .... صبري زاير السعدي
33- محاسبة تكاليف (المعضلية): محاسبة عوامل الإنتاج/ الموارد البشرية، كمثال على ذلك ..... صباح قدوري
42- هل تشكل ثورة تقنية المعلومات بديلاً للثورات الاجتماعية؟.....طالب عبد الأمير

نصوص قديمة

54- حول المفهوم المادي للتاريخ (2-2) ..... محمود صبري

نصوص مترجمة

68- سياسات الهوية .. واليسار بقلم :اريك هوبزباوم ..... ترجمة : سوران قحطان

حوارات

82- حوار مع كاتب الدراما العراقية عادل كاظم ..... اجرى الحوار: علاء الماجد

أدب وفـــــن

كلمة «أدب وفن»

88- الشبيبي والحيدري،شهيدان في ذاكرة الشعر والأدب ايضاً ..... ريسان الخزعلي

في الحدث الأدبي والفني

91- بغداد تحتفل باليوم العالمي للشعر

دراسات نقدية

94- تاريخانية التوالي السردي في (ثلاثية القرون) ..... نادية هناوي

104- حماقة الحروب وتفاهتها ،قراءة في رواية (كولستان والليل) ..... عبد السادة البصري

شعر

107- همسات اخيرة ..... عصام كاظم جري

108- العالم قبر زجاجي ..... أوس حسن

قصص

112- يأتي ولا يأتي ..... سلام حربة

فنون

118- VICE قذارة السياسة الامريكية ..... نزار عبد الغفار السامرائي

لوحتا غلافي العدد للفنان رياض نعمة

كلمة العدد

الاول من أيّار..
المجد للطبقة العاملة في عيدها المجيد..

مع نزول هذا العدد الى المكتبات، والى ايادي القراء، ستكون قد انقضت ايام قليلة على احتفال الطبقة العاملة في العراق والعالم بالأول من ايار (عيد العمال العالمي). وعلى خلفية تدهور اوضاع الطبقة العاملة، بتعريفها الواسع الذي يشمل أيضا شغيلة قطاع الخدمات، في بلدان المركز الرأسمالية، كما في بلدان رأسمالية الأطراف، وفي ما يسمى بالاقتصادات الناشئة، يكتسب هذا العيد اهمية بدلالاته الرمزية العالمية كعيد للتضامن والنضال العمالي من اجل حق العمل، والاجور المجزية، ومستلزمات العيش الكريم، والضمانات الاجتماعية والصحية، والحريات النقابية والسياسية، وتأمين مساواة قانونية وفعلية للمرأة مع الرجل في الاجور، وضمان حق الامومة والطفولة، راهنية متزايدة الأهمية.

ومن مؤشرات هذا التدهور الانخفاض المتواصل في حصة الرواتب والأجور في الدخل الوطني، منذ أواخر سبعينات القرن الماضي واشتداد وتيرة العمل وانحسار العمالة في قطاع الصناعة التحويلية واتساعها في القطاعات الخدمية والقطاع غير المنظم الذي يفتقد ابسط الحقوق والضمانات، وما يصاحب ذلك من ارتفاع في معدلات البطالة وتراجع في مستويات المعيشة.

لا شك في أن عمليات إعادة الهيكلة التي شهدتها الرأسمالية خلال نصف القرن، المنصرم لمواجهة أزمتها، قد احدثت تغييرات عميقة في بنية الطبقة العاملة، وفي تنظيم عملية الانتاج. وذلك من خلال العولمة والاستخدام المتنامي والمتسارع لتقنيات المعلوماتية والاتصالات واللجوء إلى العمالة الرخيصة للمهاجرين الأجانب. وارتباطا بهذه التطورات انتشرت طروحات بشرت بأبدية العلاقات الرأسمالية، واختفاء الطبقة العاملة وانتفاء الصراع الطبقي، إلا أن التطورات والأحداث باتت تقدم الدليل تلو الآخر، على بطلان هذه الادعاءات.

نستقبل هذا اليوم والطبقة العاملة العراقية والجماهير الكادحة تعاني ظروفا قاسية، وتعيش واقعا مزريا، على اجور لا تكفي لسد رمق عيش العاملين وعوائلهم؛ حيث يعمل جلّهم في 'اقتصاد غير منظم' وفي ظروف من الفقر والعوز، وفي ظل سيادة اشكال من العمالة الناقصة والعمالة الهشة. فلقد تعمقت في السنوات الماضية المشاكل البنيوية للاقتصاد العراقي، وسمته الاحادية الريعية، وذلك بسبب السياسات والخيارات المعتمدة من طرف القوى المتنفذة في الدولة، واعتمادها سياسة الانتقال الى اقتصاد السوق، وفي ظل فقدان الرؤية الاقتصادية السليمة، وغياب لأي شكل من اشكال التخطيط الهادف الى تحقيق تنمية مستدامة، وجراء سوء الادارة واستشراء الفساد، ومن خلال اعتماد متزايد على عوائد النفط المصدر الى الخارج، لتشكل الاخيرة القسم

الاعظم من ايرادات الموازنة العامة، بينما تنحسر، وبشدة وباستمرار، واردات نشاطات القطاعات الاقتصادية غير النفطية، من زراعة وصناعة تحويلية وغيرهما.

ان تراجع القطاعات الانتاجية هذه، والتحديات والمعوقات الاقتصادية والاجتماعية التي رافقته، وسياسات فرض نهج اللبرالية الجديدة، والتوجه المتزايد نحو الخصخصة، وابتعاد الدولة عن وظائفها الاقتصادية والاجتماعية والخدمية، كان له اثر سلبي كبير على الطبقة العاملة العراقي، حيث استفحلت البطالة ببين صفوفها، وانكمش وزنها النوعي بين القطاعات والنشاطات الاقتصادية المختلفة. وفوقها ومعها بطالة مستفحلة.

نعم، لقد عانت الطبقة العاملة العراقية، وعلى مدار سنوات طويلة من وطأة الحكام المتسلطين وويلات الحروب، وقاست مآسي الحصار الاقتصادي، والاقتتال الطائفي، لكن اليوم وبعد 16 سنة على انهيار النظام الدكتاتوري، عادت الطبقة العاملة وحركتها النقابية، تتصدى، مدافعة عن مصالح العمال وقضاياهم العادلة، ومقاومة بقوة وبسالة كل محاولات الالتفاف على حقوقها المشروعة، وتطلعات البعض في السيطرة عليها وتوظيفها لخدمة مشاريعه وتوجهاته السياسية الضيقة.

إن السنوات الماضية شهدت تصاعدا في ميادين العمل النقابي، ونشاطا واسعا على الصعيد المطلبي؛ حيث قام العمال بالعديد من الاعتصامات في مواقع العمل، وشاركوا في الكثير من الوقفات والاحتجاجات في الساحات العامة. فلقد تحرك العمال في العديد من مواقع العمل، مدافعين عن مصانعهم وشركاتهم ضد عمليات البيع او الاستثمار المنفلت، مقاومين كل محاولات الخصخصة غير المبررة، وتحرك العمال من اصحاب العقود في اكثر من مفصل من مفاصل الدولة، مطالبين بالتثبيت، بينما تحرك اخرون، مطالبين بتطبيق فعلي لقانون العمل رقم (37) لسنة 2015، كما وان احتجاجات العاطلين المطالبين بتوفير فرصة عمل، مازالت مستمرة.

ان تظاهرات واحتجاجات العمال والكادحين والعاطلين عن العمل، وعمال العقود بوجه سياسات الإفقار والتجويع والبطالة لم تتوقف يوما على صعيد البلاد، لأن الدوافع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للاحتجاجات الجماهيرية ما زالت كما هي، لا بل اشتدت.

لكن، لا يمكن اختزال الحركة العمالية ابدا، الى مجرد حركة نقابية مطلبية، على الاهمية الكبيرة للأخيرة؛ فالحركة النقابية تسعى الى تنظيم العمال وقيادتهم من اجل تحسين اوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية. اما الحركة العمالية فهي فاعل سياسي رئيسي، يرتبط عضويا وجدليا بأحزابه السياسية التي تمثله، والمؤهلة لقيادة الطبقة العاملة وحلفائها، من اجل تحقيق برامجها المرحلية والاستراتيجية. وهذا ما اثبتته الطبقة العاملة العراقية بنضالها السياسي الطويل؛ حيث عززت عبر عقود طوال، من الكفاح الوطني والطبقي ضد الاستعمار والحكام المستبدين وضد الاستغلال والظلم الاجتماعي، من دورها الريادي في مسيرة شعبنا النضالية، حتى غدت قوة وطنية سياسية رئيسية، تحت راية حزبها الشيوعي العر اقي. وهي تدرك بخبرتها السياسية الغنية، ووعيها الطبقي العالي ان الخطوة الاولى في سبيل تحقيق اهدافها المطلبية والنقابية في هذه المرحلة، هي الخلاص من منهج المحاصصة الطائفية والاثنية. وان الحل الامثل للخلاص من هذا النهج، ومن الازمة العميقة التي انتجها، انما يكمن في تغيير موازين القوى السياسية لصالح قوى الاصلاح والتغيير، وفي القلب منها القوى المدنية والديمقراطية.

ان الطبقة العاملة العراقية وهي تكد على درب كفاحها الطويل، تكتب بنضالاتها لا تاريخها فحسب، بل تاريخ بلدها، تحفر على جبين الزمن شعارها المرحلي: خبز، حرية، عدالة اجتماعية... وعينها شاخصة الى الغد القادم... غد الاممية.

مقـــــالات

معالم المشروع الفلسفي للبروفسور نمير العاني

(2-2)

الدكتور فوزي حامد الهيتي
قسم الفلسفة – الجامعة المستنصرية

العلاقة بين مبدأ التطور ومبادئ الوجود الاخرى

يناقش العاني تحت هذا العنوان العلاقة الجدلية بين مبدأ التطور ومبادئ الوجود الاخرى، مثل مبدأ وحدة العالم ومبدأ الشرطية ومبدأ التعاكس (مبدأ الفعل ورد الفعل). يحاول العاني من خلال ذلك ان يثبت أن مبدأ التطور هو من مبادئ الوجود الاساسية التي لا يمكن استنتاجها من مبادئ أخرى أعم. وهذا التصور لمبدأ التطور ينطلق من فهم مادي جدلي للوجود؛ فالمادة التي تشكل جوهر الوجود الوحيد وفق المدرسة المادية هي بحسب المادية الديالكتيكية هي في سيرورة دائمة. وفي ضوء هذا الفهم والتفسير للوجود يربط العاني بين مبدأ وحدة العالم ومبدأ التطور. اذ بما أن المادة تمثل وحدة العالم وإن هذه المادة في سيرورة دائمة، فهذا يعني عند العاني ان وحدة العالم المتمثلة في ماديته تنطوي بالضرورة على تطوره المستمر، وبهذا يمكن القول إن علاقة وحدة العالم بتطوره هي ليست (علاقة تبعية أو تناسقا خارجيا بل هي علاقة جدلية)[1] فوحدة العالم يتجلى فيها تطوره، كما أن تطور العالم يكشف عن وحدته، وبهذا يخلص العاني الى أن هذين المبدأين للوجود هما مبدآن مترابطان مع بعضهما برابطة جدلية لا يمكن فصلهما، كونهما جوهرين متلازمين لمادية العالم[2].

والمبدأ الثاني الجوهري لمادية العالم الذي يرتبط بمبدأ التطور هو مبدأ السببية أو العلية، والتي يصطلح العاني لها مفهوم التشارط او الشرطية؛ فالعالم او بمعنى ادق ظواهره وفق هذا المبدأ هو سلسلة من العلل والمعلولات، فكل ظاهرة هي علة ومعلول في الان نفسه، في سلسلة السببية اللامتناهية في الوجود. حاول العاني دراسة مفهوم السببية، وخلص كما يقول الى ثلاث نتائج مهمة هي: أ – ان العلة كواقع ملموس قائم، وإذاً كامكانية مجردة تسبق المعلول زماناً. ولكن كإمكانية واقعية أي متحققة بالفعل، لا يمكن إلا أن تتزامن في وجودها مع المعلول. أي ان السبب والنتيجة في الواقع هم متزامنان. أما على مستوى التصور المنطقي المجرد فأن السبب يسبق النتيجة بالزمان. ب – أن العلاقة السببية هي علاقة داخلية وليست خارجية. ج – إن الخارجي في العلاقة السببية يكتسب دلالته الشرطية ليس بحد ذاته وإنما بقدر تحوله الى داخلي. وهذه الاستنتاجات تقودنا كما يقول

العاني الى أن الشيء يتحول الى سبب فعلي فقط في نتيجته التي يضعها بنفسه. وهذا يعني ان السبب يكون سببا ونتيجة في الوقت ذاته. وعلى اساس هذا التفسير يصل العاني الى نتيجة مفادها ان العلاقة السببية هي علاقة جدلية تفاعلية بين السبب والنتيجة. فالسبب لا يؤثر في النتيجة فحسب بل ويتأثر بها. بمعنى ان النتيجة (المعلول) ليس طرفاً سلبياً في علاقته بالسبب، بل هو ايضا طرف نشيط وفاعل ومؤثر. فلا سبب بلا نتيجة ولا نتيجة بلا سبب اي ان كلا من هذين الضدين يخلق بعضهما البعض. ان السبب يختفي في النتيجة مثلما تختفي النتيجة في السبب. بهذا المعنى تتحقق عند العاني الوحدة الجدلية بين السبب والنتيجة. وهذا يعني ان الرابطة السببية ما هي الا شكل تتجلى فيه سيرورة العالم من خلال تطوره (من الوجود الى اللاوجود وبالعكس). اما مبدأ التطور - الذي يشكل سيرورة العالم كما اشرنا سابقا - فتتحقق من خلاله الرابطة السببية بفعل عوامل داخلية تعود الى هذه السيرورة ذاتها. وبهذا المعنى تكون الرابطة السببية العامة والتطور مبدأين متلازمين للوجود[3].

أما المبدأ الثالث الجوهري المادي العام، فهو مبدأ الفعل ورد الفعل والذي يصطلح عليه العاني باصطلاح مبدأ التعاكس. يقول العاني ان مبدأ رد الفعل هو سمة مميزة لكافة الاشياء ولجميع ظواهر الوجود بلا استثناء[4]. وبهذا يكون هذا المبدأ من الصفات الجوهرية للمادة، تجسد فاعليتها المتحققة عبر سيرورتها التطورية. وبهذا المعنى يشكل مبدأ التطور اساساً لمبدأ التعاكس (مبدأ الفعل ورد الفعل). وعلى اساس هذا الفهم والتصور حاول العاني أن يكشف لنا الطابع الجدلي التفاعلي بين العاكس (الفعل) والمعكوس (رد الفعل). ومن خلال ذلك صاغ قانونين عامين لمبدأ التعاكس هما: الاول، قانون تحول الخارجي الى داخلي. ويعني به التمثيل الذاتي لتأثير المعكوس (تمثُّل العاكس للمادة والطاقة والمعلومات الواردة من المعكوس، تمثلا داخليا، يتيح له أمر تحويل ما هو مهم منها الى عناصر في بنيته الداخلية، تسهم بهذا القدر او ذاك في تحديد مسار تطوره اللاحق)[5]. والقانون الثاني، قانون تحول الداخلي الى خارجي. ويقصد به التأثير المضاد الفعال على المعكوس. اي ان للعاكس فاعلية تاثير نشط على المعكوس.

وخلاصة القول يذهب العاني الى القول ان العلاقة التعاكسية بين العاكس والمعكوس هي علاقة باتجاهين، وليس باتجاه واحد، مثلما يحاول بعض الماركسيين المعاصرين تأكيده على حد زعم العاني؛ فالمعكوس له اثر ايضا على العاكس. وعلى هذا يقول العاني ان العلاقة التعاكسية يتحقق فيها تفاعل جدلي متبادل بين طرفي العلاقة، كضدين جدليين، شأنهما في ذلك شأن اي ضدين ديالكتيكيين آخرين. وبهذا يكون التعاكس تجسيداً لجوهر التطور كفاعل جدلي بين العاكس والمعكوس ويجد التعاكس صيغته الارقى في العكس المتقدم، كما يقول العاني، الذي يميز بين ثلاثة أشكال لهذا العكس. وهي اولا: ردة الفعل المحتملة للجسم اللاعضوي. والثاني: الغائية اللاواعية للكائن الحي. وثالثاً والاهم: النشاط الهادف الواعي المتعمد للإنسان والذي يمثل ارقى مراحل التطور على سطح كوكبنا. والعكس المتقدم عند العاني هو: الاستجابة المحتملة والممكنة مبدئيا للشيء

على تغيير الوسط الممكنة التحقق والوقوع مستقبلا [6].

ويتوقف العاني هنا طويلا في تفسير نمط التطور في العكس المتقدم وفق التعريف اعلاه، ويناقش من خلال ذلك جملة من الاشكالات المتعلقة منها بعلم السيبرنيتك (Cybernetic) [7] وقوانين الثرموديناميك والبعد الانتروبي (Entropy) للعكس المتقدم كما يمكن لهذا الفهم او التعريف ان يوفر امكانية الكشف عن المثيل الموضوعي اي النظير الموضوعي في الطبيعة الحية والعالم اللاعضوي بمقابل النشاط الانساني الواعي الهادف (الغائي)، بعده ظاهرة اجتماعية خالصة، وبذلك ينزع ويزيل كل مضمون غائي عن السيرورة التطورية بعامة، وتطور اشكال التعاكس بصورة خاصة [8]. ويشدد العاني على ان النشاط الانساني الهادف هو خاصية اجتماعية وصفة انسانية خالصة مرتبطة بالظاهرة الاجتماعية تحديداً، ولا يجوز تعميمها خارج دائرة هذه الظاهرة، مثلما حاول المفكرون المعاصرون فعل ذلك، بحيث يشملون فيه كافة الانظمة السيبرنيتيكية بلا استثناء. فالإنسان وحده يطور واقعه او محيطه الجغرافي وبما يتوافق مع الطبيعة البشرية، ومن خلال معرفته بالقوانين الطبيعية يمكنه ذلك فقط. وهذا يعني عند العاني ان الفعل الحر والإبداع الخلاق والحقيقي للإنسان لا يمكن ان يتحقق إلا بالانسجام والتوافق التام مع المنطق الداخلي لتطور الطبيعة الذاتي ووفق نمذجة واعية ومسبقة لهذه العملية. وبهذا التصور للإبداع البشري يصبح مبدآ التعاكس والتطور متطابقين في هذا المضمون. وبكلمة اخرى يعد الإبداع البشري وحدة ديالكتيكية لهذين المبدأين (التعاكس والتطور) [9]. ولكي لا يذهب فهمنا لمفهوم الابداع الانساني الواعي بعيداً، يضع العاني قضيتين يعدهما حقيقتين لا يجوز القفز عليهما في فهمنا لما يقول وهما [10] :

اولاً: إن الواقع الموضوعي اغنى وأكثر ثراءً ونضارة، وبما لا يقاس من اغنى وأكمل نظرية علمية أو فلسفية بعدها انعكاس له. والإنسان لا يمكنه أن يدرك ويعي بصورة مسبقة إلا المنطق العام أو القانونيات الاساسية لسيرورة الوجود التطورية. وعليه فإن الطابع العام للتطور المتحقق كإبداع حر وخلق انساني (وأيا كان النموذج) يجب ألا يفهم بصورة مطلقة بل بشكل محدود. اذ ليس باستطاعة الانسان في يوم من الايام الكشف المتقدم والمسبق بدقة لكافة تفاصيل وملامح السيرورة التطورية الاجتماعية الواعية، مثلا، مهما بلغ العنصر المدرك فيها. وهذا يعني أن هناك جانبا من العفوية والتلقائية في تمثل هذه السيرورة، لا يمكن إلغاؤه تماما، لكن يمكن تقليله مع سيرورة تطور المجتمع.

ثانيا: إن فعل الانسان الحر والواعي والهادف يعد جزءاً من سيرورة تطور الوجود نفسه. وحسب الادبيات الماركسية يوجد شكلان للسيرورة الموضوعية، هما سيرورة موضوعية على مستوى الطبيعة، وأخرى على مستوى النشاط الانساني الغائي والهادف والواعي، ولا يوجد تقاطع او نفي بين هذين الفهمين للتطور؛ فالإنسان يمثل لحظة نوعية في مسار التطور اللامتناهي وان حرية الابداع البشري لا يمكن ان تشكل

خروجا مطلقا عن الضرورة، بل هي حرية نسبية ومشروطة في نهاية المطاف، وهي تعد الشكل الارقى، تتجلى فيها (اي في هذه الحرية الهادفة المبدعة) وتتحقق السيرورة التطورية للمادة كجوهر مبدع وخلاق.

وعلى ضوء هذا الفهم والتصور لمفهوم الابداع الانساني، يرى العاني أن هذا الابداع الهادف لا يمكن ان يحقق غايته بدون دليل نظري مرشد يستمد من سيرورة التطور ذاته وهو انموذج التطور الديالكتيكي، فهذا الانموذج هو وحده المعبر عن، والمجسد لماهية سيرورة التطور اللامتناهية، وبالتالي يمكن ان يكون الوسيلة الفاعلة لتحويل وتغيير الواقع بما يحقق غايات الانسان وأهدافه. ويرى العاني ان النكبات التي تعرض لها الانسان المعاصر ونظمه السياسية الهادفة الى تحقيق التحرر الشامل للإنسان، سببه الفعلي هو التخلي أو التجاهل غير المقصود او الجهل بالقانونيات الديالكتيكية للتطور الاجتماعي.

التطور بعدهِ سيرورة ديالكتيكية:

ينتهي العاني في عرض مشروعه الفلسفي، الى الكشف عن مضمون الديالكتيك، مُصدراً سبباً داخلياً وجوهراً للتطور. وبهذه الدلالة لا يشكل التضاد الجدلي شيئاً جاهزاً معطى (أي وجوداً مطلقاً)، بل هو سيرورة مستمرة. فهو كحالة حدّية للإختلاف يظهر من التطابق، وينضج تدريجياً حتى يُحل في تطابق جديد، يؤدي بدوره إلى تضاد جديد، وهكذا دواليك. وعليه، فلا بدّ للتضاد الجدلي في صيرورته ان ينزع (اي ان يحوي بشكل محور) في بنيته الداخلية حلّه لنفسه في تضاد جديد. وبفضل ذلك فقط يصبح هذا التضاد مصدراً حقيقياً ومستمراً للتطور، ويؤلف بناءً على ذلك جوهراً له. وفي ضوء ذلك يجري تحليل الطبيعة المتناقضة للتطور بالكشف عنها قبل كل شيء كوحدة جدلية للتطابق والاختلاف. فالتطور يعني تجاوز حالتي التطابق المطلق والاختلاف المطلق، ولهذا نجد أن كل شيء متطور يتطابق مع ذاته، وفي الوقت نفسه يختلف عنها، اي إنه يؤكد ذاته بقدر رفضه لها. إنه ثابت (متطابق مع ذاته) ومتغير (مختلف معها) في آن واحد. فلولا ثبوته لما كان ما هو عليه كواقع قائم، ولولا تغييره لما كان بمقدوره التحول إلى الآخر. وكوحدة للثبات والتغير يصبح كل شيء كينونة مستمرة ومتحولة على الدوام. وبالفعل، إنه يشكل في واقع الأمر وحدة لما كان عليه في الماضي، ومما هو عليه الآن، ومما سيكونه في المستقبل. بهذه الصورة تتحقق كينونته المستمرة كصيرورة متواصلة له. فكينونته القائمة تفصح عن نفسها، إذاً، كوحدة لكينونته القديمة الزائلة، ولكينونته الجديدة القادمة. وبالارتباط مع ذلك يتم تحليل الطبيعة المتضادة للتطور كتفاعل جدلي بين القديم والحديث (الجديد)، اي كسيرورة يقوم القديم في مجراها بخلق الجديد من ذاته. وفي سياق هذا التحليل يخلص العاني إلى تمييز اربع مراحل في صيرورة الحديث (اي صيرورة القديم جديداً) هي [11]:

1 - المرحلة الكامنة. 2 - والمرحلة الجنينية. 3 - مرحلة النضج او الهيمنة. 4 - واخيراً مرحلة التطور الخاص او التطور الحر.

ففي المرحلة الاولى لوجوده يظهر الجديد كإمكانية فقط. إلا إن هذه الإمكانية ليست مجردة، بل ملموسة، اي واقعية. هذا يعني إن

الجديد في مرحلته الكامنة يشكل وجهة داخلية او إمكانية واقعية لتطور القديم. وفي بداية تحقق هذه الإمكانية وإنقلابها إلى واقع يتبلور الجديد جنيناً واضح المعالم في رحم القديم. وبهذا تبدأ المرحلة الجنينية في صيرورة الحديث. ومما ينبغي توكيده هنا هو إن الجديد في المرحلتين الأولى والثانية لصيرورته يبقى، عند العاني، عنصراً في بنية القديم، او بتعبير ادق: إنه يشكل عنصراً خاضعاً في البنية الداخلية للقديم يساهم في إعادة إنتاجه. اما في المرحلة الثالثة لوجوده فإن الجديد يبلغ في نموه تلك الدرجة من النضج بحيث يصبح تدريجياً العنصر السائد والمهيمن في بنية الشيء المعني، متمثلاً في ذاته من خلال صراعه مع القديم، كل ما هو إيجابي وحيوي في هذا القديم، وملغياً بقاياه المعيقة لتطور الشيء. واخيراً في المرحلة الرابعة لصيرورته يتحرر الحديث من كافة قيوده، ويصبح تطوره حراً. وفي هذه المرحلة الأخيرة له يأخذ الحديث بالتقادم، اي بالتحول التدريجي إلى قديم يفرز من داخله ما هو احدث منه، لتبدأ حلقة جديدة من الصراع بين الحديث والقديم تنقل الشيء المعني إلى مستوى جديد في تطوره [12].

وتبرز الطبيعة المتناقضة داخلياً للتطور ايضاً في مدلوله كحصيلة للتفاعل الجدلي بين الجوهر والعرض (المظهر)، بين المضمون والشكل، بين الإمكانية والواقع، بين العام والخاص، بين المتناهي واللامتناهي، وإلخ من الأضداد الجدلية. وعندما يتطرق العاني إلى كل ذلك، يقف بصورة خاصة على هذه الطبيعة كتحول جدلي للكم إلى كيف وبالعكس، وكنقض للنقيض. ومن زاوية نظر العلاقة الديالكتيكية بين الكم والكيف يظهر التطور ويتحقق كتغير معياري للأشياء، وذلك لأن المعيار تحديداً هو الذي يشكل الوحدة الجدلية للضدين المذكورين، الأمر الذي يعني عنه (العاني) إن اي شيء لا يمتلك من ناحية كمه ومن ناحية ثانية كيفه، بل يمتلك معياره كوحدة لا يمكن فصم عراها لهذين الضدين. اما النقض المزدوج فيتم الكشف عنه كقانون يحدد الوجهة العامة للتطور. وبالإرتباط مع ذلك يقوم العاني بتحليل الطبيعة المتناقضة للتطور كوحدة ديالكتيكية للتقدم والتراجع (التأخر).

باختصار شديد هذه هي الخطوط العامة لمشروع العاني الفلسفي الذي انجزه كما قلنا سابقا في أطروحته للدكتوراه الثانية، وأجيز من قبل جامعة سان بطرس بيرج (جامعة لينينغراد سابقا) والذي يتلخص في النظر الى الديالكتيك المادي ليس بعده منهجا للتفكير وليس مجرد طريقة في بلورة النظرية الفلسفية بل هو عند العاني كما لاحظنا تحول الى نظرية فلسفية وبمعنى ادق الى نظرية فلسفية للتطور، وهذا بالتحديد هو عنوان مشروعه الفلسفي. العاني لا ينكر وجود تناسق وتناسب بين النظرية الفلسفية ومنهجها المعتمد، تصل حد التماهي عند اغلب الفلاسفة، بل أن بعضهم لا يفصل بين نظريته الفلسفية ومنهجها مثل الفلسفة الهيكلية واغلب الماركسيين. ولكن الفلسفة بعامة هي نظرية ومنهج أو كما يقول العاني انها وحدة لهذا وذاك. لقد كان الديالكتيك عند كل الفلاسفة السابقين منهجا وطريقة لبناء النظرية الفلسفية أما عند العاني فقد استخدم الديالكتيك المادي بعده منهجا لبناء الديالكتيك نظرية فلسفية، لهذا يمكن القول إن النظرية الاعم للتطور عند العاني هي النظرية الديالكتيكية. وقد استعان بالديالكتيك نفسه في بناء منظومته الفلسفية هذه، التي حاولنا

توضيح خطوطها وملامحها العامة في هذه الدراسة التعريفية.

لقد حاول العاني تطوير مشروعه الفلسفي بانشاء اتجاه جديد في المادية الديالكتيكية من خلال عدد من الدراسات التي انجزها بعد استقراره في روسيا الاتحادية وعمله في جامعة (ايتمو) في سان بطرس بيرج، كما اشرنا عند عرض اصداراته[13]. وجسدت هذه الدراسات، وبخاصة دراستيه المستفيضتين؛ الاولى، في مجال المثيولوجيا وفلسفة العلم، والثانية، في فلسفة التكنولوجيا والصور العلمطبيعية للعالم، نتائج مشروعه الفلسفي. حاول العاني في هذه الدراسات بمجملها معالجة العديد من المشكلات الفلسفية سواء في مجال فلسفة التاريخ والعلوم الاجتماعية أم في مجال فلسفة العلم ونظرية المعرفة. سنتوقف عند مفهومه للعلم والنظرية العلمية بعده المجال الابرز في نتاجه المنشور.

مفهوم العلم والنظرية العلمية عند العاني:

يحدد العاني اربع خصائص أو معالم للمعرفة العلمية تتصف فيها المعرفة العلمية، تعد سمة وعلامة تميزها عن باقي المعارف الانسانية؛ أولى هذه العلامات للمعرفة العلمية هي العقلانية بمعنى انها معرفة مستمدة من العقل، وليس من الايمان، وبهذه السمة تختلف المعرفة العلمية عن المعرفة الاسطورية والمعرفة الدينية التي تنبع من الايمان. والطابع العقلاني للمعرفة العلمية يجعلها تقترب من المعرفة الفلسفية - فالفلسفة هي ايضاً معرفة عقلانية - ولكنهما شكلان متباينان مختلفان للمعرفة العقلانية. إن عقلانية المعرفة العلمية هي عقلانية تجريبية في حين أن عقلانية المعرفة الفلسفية عند العاني هي عقلانية تأملية خالصة لا تعتمد الدليل التجريبي كما هو الحال في العلم. وهذا يعني عند العاني أن الفلسفة هي معرفة لا علمية أو بحسب تعبير العاني انها (احد اشكال معرفة خارج علمية، أي واحدة من المعارف الموجودة خارج دائرة المعرفة العلمية) [14]. وهذا الفارق النوعي بين الفلسفة والعلم لا يسمح للفلسفة بالارتقاء الى مصاف العلم ولا يمكن اضفاء طابع علمي عليها. وبهذا التحديد والتمييز بين الفلسفة والعلم يختلف العاني مع الفلاسفة الذين يعدون الفلسفة ويصفونها بالعلمية ومنهم طبعا الفلاسفة الماركسيون المعاصرون الذين يصفون الماركسية دائما بالعلمية. أما السمة الثانية للعلم التي يتميز بها عن غيره من المعارف فهي الاتساق والانتظام. فالمعرفة العلمية هي نسق من المفاهيم والتصورات المنتظمة والمتوافقة بشكل صارم لا يمكن أن تسمح بوجود تعارض أو تناقض بين العناصر التي يتألف منها. ومن هذا المنطلق يبدو العلم احادي النزعة، احادي الخيار، بحيث لا يتيح للأفكار المتضاربة والنظريات التي تستثني بعضها ان توجد وتعيش بسلام تحت خيمته. إن المعرفة الخارجعلمية هي وحدها التي تجيز لنفسها اعتماد افكار متضاربة، والقول بتصورات تناقض بعضها بعضاً. اما المعرفة العلمية، فلا تجيز ذلك، لا من بعيد و لا من قريب. ففي علم الحياة، مثلاً، لا يمكن لفكرة التطور ولفكرة ثبات الأنواع ان توجدا جنب بعض، وتعتمدا معاً كتصورات علمية مسلّم بها. إن إقامة الدليل العلمي على صحة فكرة التطور حولها إلى مسلمة علمية تم في ضوئها دحض فكرة ثبات الأنواع، والتي بسبب ذلك رميت خارج دائرة العلم. إن الإختلاف في

العلم مجاز، والنقاش مباح، بل ومحبذ على صعيد الفرضيات فقط. لكن ما ان يتم إثبات فرضية من بين الفرضيات المتناحرة باقامة الدليل العلمي الصارم على صحتها، وتحولها من جراء ذلك إلى مسلمة علمية ملزمة، حتى يتم نبذ كافة التصورات المخالفة لها، كتصورات لا علمية. وهذا يعني أن المعرفة العلمية عند العاني هي معرفة تراكمية؛ فالفرض العلمي ما ان يتم اثباته واقامة الدليل العلمي عليه، يصبح مسلمة ملزمة، كما يقول بمعنى لا يمكن مراجعتها في ضوء التطورات والاكتشافات العلمية التي قد تقتضي تعديله وربما رفضه وبخاصة عندما يتوافر فرض علمي بديل اكثر غنى ومحتوى معرفيا وأكثر قدرة تفسيرية، وهذا التصور هو ايضا مخالف لما هو سائد بين اغلب فلاسفة العلم، وبخاصة عند المدرسة العقلانية النقدية [15].

إن الخاصية الجوهرية الثالثة المميزة للمعرفة العلمية عند العاني هي برهانية هذه المعرفة. إن المعرفة العلمية ليست معرفة إعتباطية، بل هي، على العكس من ذلك، معرفة مبرهنة، اي معرفة تم إثباتها بالبرهان والحجة. فعلى العلم ان يثبت صحة مفاهيمه وقوانينه ونظرياته بالدليل العقلي (البرهان المنطقي) و/او بالدليل التجريبي (البرهان بالتجربة العلمية). فهناك، إذن، شاهدان او سلطانان وحيدان في العلم، هما العقل والتجربة، ولذا فكل ما يتعارض ويتنافى معهما من تصورات يلفظ خارج دائرة المعرفة العلمية. وعليه، يمكن القول بان المعرفة العلمية ليست معرفة قابلة للبرهنة وحسب، بل هي معرفة تمت البرهنة على صحتها بإثباتها بالدليل العقلي و/او بالدليل التجريبي. فهي، إذن، معرفة ليست إفتراضية، كما تقول العقلانية النقدية وزعيمها كارل بوبر، بل هي عند العاني يقينية بكل ما في هذه الكلمة من معنى. فلو كان قانون الجذب العام، مثلاً، معرفة إفتراضية وليس يقينية، لما استطعنا باستخدام فعله ان نسير طائراتنا ونطلق مركباتنا الفضائية، ان نصل إلى القمر او المريخ، او ان نحدد بدقة عالية موقع الأجرام السماوية. فالمعرفة العلمية، إذن، هي، عند العاني، معرفة مبرهنة، معرفة يقينية، لا يمكن لبوبر [16] او لغيره دحضها مهما حاولوا ذلك. إنها معرفة لا تقوى السيرورة العلمية اللاحقة على تفنيدها وإلغائها بالكامل. إن جل ما تستطيعه هذه السيرورة هو تدقيق هذه المعرفة اكثر فاكثر.

وأخيراً، المعلم الجوهري الرابع المميز للمعرفة العلمية يتلخص في موضوعية مضمونها. إن مضمون هذه المعرفة لا يخضع، إذن، لا لوعي ولا لإرادة صنّاعها وحامليها. ويقصد بذلك العالم والمجتمع العلمي كما يقول العاني. وهذا يعني أن موضوعات المعرفة العلمية هي مستقلة عن الذات العارفة، ولا دور للعالم في نمط هذه العلاقات وتدوينها. او بكلمات اخرى، إن هذا المضمون لا يخضع لوعي وإرادة الإنسان او الإنسانية بشكل عام، انما لها وجود حقيقي ومستقل. ومن هنا يخلص العاني إلى القول بان مضمون المعرفة العلمية ما هو في الواقع سوى تجسيد للحقيقة الموضوعية بعينها، اي ان دوره هو تسجيلها وتدوينها باعتماده على لغة دقيقة تعبر عن ما هو موجود بالفعل. إن هذا المضمون والحقيقة الموضوعية المتجسدة فيه ومن خلاله هما تحديداً اللذان يشكلان، عند العاني، الأساس الموضوعي لعلمية ويقينية ما يدعوه بالمعرفة العلمية.

ولذا، فبدونه لا يمكن أن تقوم للعلم قائمة.
وبناءً على ما تقدم يخلص العاني إلى تعريف العلم بعده نشاطاً إنسانياً هادفاً إلى إنتاج وإستخدام وخزن ونقل - بواسطة مناهجه ووسائله الخاصة - المعرفة العقلانية المنظمة المبرهنة والموضوعية في مضمونها عن الواقع الموضوعي والذاتي.
وبفضل هذه الخصائص والسمات للمعرفة العلمية، صار لها الحضور والثقل الاكبر في حياتنا المعاصرة، بل استطاعت هذه المعرفة أن تزحزح الفلسفة من عرشها وتسيدها للمعرفة العقلية لقرون طويلة، وانحصرت اخيراً في مجالات ضيقة جداً مثل فلسفة اللغة والتحليل المنطقي لبنية المعرفة العلمية.
ويعتقد العاني أن هذا التطور في المعرفة العلمية سيستمر وستنتقل حقول اخرى من الفلسفة الى العلم مثل المشكلات المتعلقة بالطبيعة والمجتمع، بحيث لن يتبقى للفلسفة في المطاف الأخير سوى منطق المعرفة ومنهجيتها العامة.
من هذا الفهم لموضوعات المعرفة العلمية ينطلق العاني في نقده لأشهر مدارس فلسفة العلم المعاصر مثل الوضعية المنطقية والعقلانية النقدية ويصفها بالذاتوية (subjectivism) بعدها مدارس تعطي للذات العارفة دورا (قد يزيد أو يقل) في تشكيل معارفنا. أن بوبر مثلا يقول أن المعرفة العلمية وكل نتاجات العقل البشري لها وجود حقيقي وموضوعي مستقل عن الذات العارفة، وهذا الوجود ليس بالضرورة عنده يكون ماديا محسوسا بل قد يكون لا مادي مثل الاساطير والأفكار الدينية، فضلا عن النظريات العلمية، ولكن لهذا الوجود تأثير واضح. فالكتاب وبمجرد أن يخرج من يد كاتبه، ويُنشر، يصبح له وجود حقيقي موضوعي ومستقل عن الكاتب الذي أنتجه.
وفي مجال المعرفة العلمية يعطي بوبر دورا فاعلا للذات العارفة، والتي يصطلح عليها بالمراقب او الملاحِظ (observer) وكذلك لمكان المراقبة . بل ان الفرضيات العلمية ومن ثم النظريات العلمية هي خلق وابداع للعقل البشري وهي اشبه بشباك نصطاد بها الوقائع، وصياغات تفسر لنا هذه الوقائع والحوادث. وقيمة أية نظرية علمية تكمن في محتواها المعرفي وقدرتها التفسيرية. بل ان هاتين الصفتين عنده تعدان ضمن اهم معايير المفاضلة بين الفروض العلمية. ولهذا كله يفسر بوبر نمو وتطور المعرفة العلمية ليس كمسار خطي أو تراكمي بل تطور انبثاقي [17] (emergence evolution).
وهذا الفهم عند العاني لا يعني سوى تقويض العلم والمعرفة العلمية لانه ينكر وجودها الحقيقي الموضوعي المستقل عن الذات العارفة، ومهما حاولنا من اعتماد انساق منطقية ولغة رياضية في صياغة نظرياتنا وقوانيننا العلمية لن ترتقي هذه النظريات عن الصياغات الشعرية، اذا ما سلمنا بصدق اطروحات هذه المدارس وتصوراتها عن العلم والنظريات العلمية.

الخاتمة:

درس نمير مهدي العاني الماركسية في منابعها وداخل مؤسساتها الاكاديمية الرصينة في جامعة لينينغراد، زمن صعود الاتحاد السوفياتي، وابان اوج قوته العسكرية والاقتصادية والعلمية وتبناها رؤية ومنهجا، وأضفى عليها من خلال دراساته المتعددة،

وبخاصة في مجال فلسفة العلوم الطبيعية بصمته الخاصة، تجلت واضحة في مشروعه الفلسفي المتمثل بالنظر الى الديالكتيك المادي بعده رؤية فلسفية عامة للتطور، وليس مجرد منهج فلسفي يكشف عن سيرورة التطور. لقد استطاع العاني أن يقدم قراءته للماركسية متجاوزا فيها العديد من القراءات التقليدية لها كما استطاع ان يسجل نقوده لأبرز المدارس الفلسفية المعاصرة، وبخاصة الوضعية المنطقية والعقلانية النقدية، محققا بذلك حضوراً واضحاً، لكن للأسف الشديد كان هذا الحضور محصوراً داخل الثقافة الروسية، كون نتاجه الأهم مكتوب بها.

نرجو من هذه الورقة انها قدمت تعريفاً بمنجزه الفلسفي، عسى أن يكون بداية لدراسات اوسع عنه، كما نتمنى ان نرى نتاجه مكتوبا بلغة الضاد، ليسهل تداوله ويحقق فعله التنويري المطلوب.

الهوامش

1 - نمير العاني، مشروعي الفلسفي ص 2.

2 - للمزيد راجع د. نمير العاني، مبدأ وحدة العالم وجدلية العلاقة بينه وبين مبدأ التطور مجلة النهج، مصدر سابق ص 256 – 280.

3 - للمزيد في الاطلاع على آراء العاني في هذا الموضوع يمكن مراجعة: د. نمير العاني، مبدأ التشارط المتبادل وجدلية العلاقة بينه وبين مبدأ التطور، مجلة "النهج"، مصدر سابق، ص 187 – 211.

4- د. نمير العاني، جدلية العلاقة بين مبدأ التطور ومبادئ وحدة العالم والتشارط المتبادل والتعاكس العام، مركز الابحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، سوريا، دمشق الطبعة الاولى 1988 ص 45 وما بعدها. كذلك د. نمير العاني ، مشروعي الفلسفي، مصدر سابق، ص3.

5- المصدر نفسه، ص 46.

6- المصدر نفسه، ص 51 – 52 .

7- السيبرنيتك تعني ببساطة علم القيادة أو التحكم (control) في الاحياء ودراسة آليات التواصل في كل منها. وهو علم يتعامل مع الظواهر بعدّها منظومات بعد تجريدها من الاشكال؛ فالكون هو نظام عند السيبراني والانسان ايضا نظام. ويعتمد السيبراني الرياضيات لغة لوصف النماذج المدروسة. للمزيد راجع: جميل صليبا، المعجم الفلسفي مادة السيبرنطيقا.

8- المصدر نفسه، ص 52.

9- المصدر نفسه، ص 57 .

10- المصدر نفسه، ص 58 – 61 .

11- د . نمير العاني، مشروعي الفلسفي، مصدر سابق، ص 4 .

12- المصدر نفسه، ص 5 .

13- وهذا يعني أن العاني أجل الشروع في انجاز خطه الفلسفي الجديد بحدود عشر سنوات تقريباً، المدة التي قضاها في اليمن وهي مرحلة قضاها مضطراً (أو ربما لكونه عراقيا من سلالة كلكامش الباحث عن المتاعب) في صراعات جانبية، ومشاغل ادارية، وفي اجواء لا تعين الباحث العلمي على مواصلة مشروعه.

14- نمير العاني، رسالة ايضاحات، ص 3 .

15- للمزيد يمكن مراجعة فلسفة العلم في القرن العشرين، ترجمة د. حسين علي، ومراجعة امام عبد الفتاح امام، منشورات دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، 2009 ص 159 وما بعدها.

16- قارن هذا الرأي مع ما يذهب اليه كارل بوبر ودوهيم وكوين في تفسيره لقوانين نيوتن. المصدر السابق، ص 500 – 514 .

17- للمزيد في معرفة آراء كارل بوبر في هذه الموضوعات، يمكن مراجعة كتابه باللغة الانكليزية (المعرفة الموضوعية، منشورات، الطبعة الاولى 1977. كذلك محمد محمد قاسم، المنهج في ضوء المعرفة العلمية عند كارل بوبر، دار الكتب الجامعية الطبعة الاولى.

البرنامج الحكومي بين التقويم والتعويم

أ.د.عبد الجبار احمد عبد الله
كلية العلوم السياسية/ جامعة بغداد

إن وجود منهاج وزاري كإطار عام ومن ثم تفصيل هذا المنهاج في برنامج حكومي يُعد ناحية ايجابية في مسيرة العملية السياسية العراقية من حيث عرض المناهج، استناداً الى الدستور العراقي لسنة 2005، على مجلس النواب وحيازة الثقة عليه وإطلاع وسائل الاعلام والتواصل الاجتماعي ومؤسسات المجتمع المدني وعموم المواطنين على المنهاج والبرنامج. كما ان آلية عرض المنهاج تُعد من صميم مبادئ الشرعية والشفافية وعرض الحقائق.

ويمكن القول ايضاً ان وجود المنهاج والبرنامج يعكس اهتمام صانع القرار والمسؤول عن رسم السياسة العامة للبلد والجدية في وضع خارطة طريق لتنفيذها خلال السنوات الاربع القادمة.

ولما اصبح لم يعد من المقبول او المستساغ ان تعمل الحكومة في تسيير شؤونها على هواها من دون محاسبة او رقيب فان البرنامج الحكومي بهذه الشاكلة يعد نمطا من انماط العمل المؤسساتي والتخطيط الاستراتيجي؛ فالعمل المؤسساتي اصبح اليوم من سمات الدول والنظم السياسية المتحضرة وجزءا اساسيا ومهما في شرعية ومشروعية اي نظام سياسي او حكومة.

وفي اطار تقييم او تقويم البرنامج الحكومي لحكومة السيد عادل عبد المهدي فانه يمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1. شيء جيد ومتحضّر ان يعتمد المُكَّلف برئاسة الحكومة تقديم منهاج وزاري وبرنامج حكومي كخارطة طريق وبوصلة لتحقيق الاهداف العامة للحكومة، وحسناً فعلت الحكومة ورئيسها حين ربطت المنهاج ببرنامج حكومي مُحدد بتوقيتات زمنية مختلفة. اذ حدد المنهاج الوزاري مصطلحا سريع التنفيذ من 3 - 6 اشهر ومتوسط التنفيذ من 7 - 18 شهرا، وطويل التنفيذ من -19 48 شهرا أو أكثر. وايجابية هذا التحديد تكمن في انه ليس من المقبول ان تنتظر السلطة التشريعية والمواطن نتائج تنفيذ البرنامج في نهاية السنوات الاربع، كي تُقيَّم، ولذلك فان هذا التمديد سيُتيح الفرصة للمراقبة الموضوعية كحلقات ومدّيات تنفيذ البرنامج.

2. ان التحديد الزمني لـ 100 يوم يعكس وجود أولويات زمنية في عمل الحكومة وهي ايجابية ايضاً ولكن مع تأشير ملاحظة تخصّ

الـ 100 يوم وما هي الاسباب الموضوعية لاختيارها دون سواها ليس من قبل الحكومة فحسب بل ومن اطراف خارج الحكومة.

3. عملت الحكومة على فرز المشاريع المقّدمة من الوزارات والجهات وتصنيفها من وزارة التخطيط بحسب توفر التغطية المالية لها، وبستة الوان الاخضر والأزرق والأحمر والأصفر والوردي (والحمد لله ليس من بينها اللون الاسود).

4. أسهمت في اعداد المنهاج الوزاري منطلقات رسمية وثائقية ومنطلقات غير وثائقية. اما المنطلقات الوثائقية فهي احدى عشرة فقرة ووثيقة بدأت من الدستور مروراً بورقة مقدمّة من يونامي وانتهاء بمسودة البرنامج الحكومي المعّدة من قبل الامانة العامة لمجلس الوزراء.

اما المنطلقات، من غير الوثائق، فهي رغبات وتوجهّات ومواقف الكتل البرلمانية والقوى السياسية والحزبية.

وعند تقويم المنطلقات نجد فيها شقين؛ شق ايجابي وشق سلبي. فتمثيل الشق الايجابي بأنه شيء مفيد وجيد ان يتضّمن المنهاج مصادر متعّددة فيها من التنوع السياسي ما يخدم ويرصّن المضمون.

بينما يتمثل الشق السلبي في انه كيف يمكن ان تتحدث عن منهاج وزاري حكومي فيه هذا الخليط من الرؤى ووجهات النظر التي تتشابه في بعضها او تتفق لكنها هي ايضاً موضع تنازع وتصارع من حيث تحديد الاولويات، والتي ربما تضعف من صفة الحكومي للبرنامج، لان الجمع والتركيب مابين خليط من الاراء والمصادر والمواقف لربما تفقد المضمون الحقيقي للمنهاج؛ إذ ليس من الضروري ان يعكس المنهاج والبرنامج كل شيء من آراء وأفكار وتوجهات للقوى السياسية والحزبية ولكن من المهم والضروري ان يعكس أهم شيء في ذهن المواطنين وما بعد بالنسبة لهم اولوية قصوى تتطلب التنفيذ بأقرب الآجال.

5. احتوى المنهاج الوزاري على 121 صفحة (حسب الموقع الالكتروني) اما البرنامج الحكومي فقد احتوى على 142 صفحة، اي 263 صفحة فيها العشرات من الفقرات وما يربو على 165 فقرة تنفيذية في البرنامج الحكومي.

ونتساءل هنا هل تستطيع الحكومة (التي لم تستكمل كابينتها رغم انعقاد الجلسة الثانية في الفصل التشريعي الثاني لمجلس النواب العراقي)، ان تنفذ هذه الصفحات والفقرات في اربع سنوات؟

والمشكلة ان تنفيذ بعض هذه الفقرات يتجاوز الاربع سنوات، ومثال ذلك توزيع الاراضي السكنية والذي ينتهي في 2023 وبعضها الاخر ينتهي في 25 /10 /2022 مثل موضوع الحكومة الالكترونية، وبعضها المهم والحيوي حُدد لها سنتان مثال ذلك موضوع النازحين!

ومن حيث الالوان نجد ان بعض الفقرات حدد لها اللون الوردي وهي التي تمول من القروض، ولا نعلم ايا من القروض هي، هل الداخلية ام الخارجية؟

والاكثر جدارة بالملاحظة هنا، مصطلح حسب الوفرة المالية فهل هو مصطلح تفسيري موضوعي ام تبريري؟ فماذا لو لم تتوافر الوفرة المالية في مشاريع ذات الوان اخرى في الازرق والأحمر.

6. اذاً، اساس نجاح البرنامج الحكومي هو مجموعة عناصر منها ما يخص مدى

توافق الاهداف مع الوسائل اولاً وطبيعة الوزارة والوزير ثانياً وحجم وطبيعة التمويل والتخصيص ثالثاً.

والملاحظ ان الوفرة المالية التي حظّي بها العراق في الموازنات التي سبقت 2014 لم تستثمر بشكل حقيقي وبما يخدم التنمية المستدامة والأمن الانساني وتقديم الحلول الناجعة للمشاكل التي عانى منها وما يزال يعاني منها المواطن العراقي والسبب الرئيس وراء عدم الاستثمار للأموال انما هو الفساد المستشري في جسد الدولة والذي اصبح يُدار من قبل منظومة متكاملة، والذي حدّد ملفاته رئيس الوزراء في جلسة مجلس النواب في الفصل التشريعي الثاني بـ 40 ملفا.

ان انخفاض الموارد المالية ادى الى تسابق القوى السياسية والحزبية للبحث عن موارد مالية جديدة بشكل مباشر او غير مباشر وكذلك انتهاج وسائل لم تكن بالخادمة للمواطن العراقي.

ومن المؤكد ان تحقيق البرنامج يرتبط بالقدر المتوفّر من المال ولذلك نتساءل ماذا لو انخفضت اسعار النفط من جديد؟ مع ادراكنا بان اسعار النفط لن تتجاوز الـ 70 دولارا بكل الاحوال لأسباب عديدة منها الضغوط الامريكية في تحديد اسعار النفط وعدد الحفارات النفطية الصخرية الى جانب اختلاف الرؤى داخل نادي الدول المصدّرة للنفط (أوبك).

ولذلك يمكن القول بان ارتهان المنهاج والبرنامج الحكومي بالوفرة المالية الريعية يعتبر مصدر خطورة كبيرة لم يفلح واضعو البرنامج الحكومي في تجاوزه.

7. اشار المنهاج والبرنامج الى انه لا ضريبة من غير خدمات، وهو شعار صحيح يطبق في الدول المتقدمة لكنه غائب او ضعيف في العراق. وإذا كان البرنامج يسعى لاستخدام الحوكمة الالكترونية في معالجة الفساد عبر تحديث آلية الجباية، فانه يمكن اعتباره شيئا جيدا ومتطورا، لكن لا يمكن السعي للبحث عن آلية للجباية من دون التفكير الجدي والسعي لآلية جديدة لتقديم الخدمات مع التأكيد على ان علاقة الضريبة بالخدمات ترتبط بصميم عمل النظام السياسي الديمقراطي وطبيعة التمثيل السياسي المرتبط بالضريبة ومدّيات توظيف الضرائب لمعالجة الفوارق الطبقية التي استفحلت، وتحقيق العدالة الاجتماعية.

والتساؤل الجوهري الذي يطرح هل الموازنة المالية لسنة 2019 قد تم تصميمها وبما يخدم البرنامج الحكومي لأربع سنوات، وإن كانت الموازنة هي لسنة واحدة، لكن كم هي تؤسس لتنفيذ برامج ومشاريع في السنة التي تليها، مع عدم اغفال حقيقة ان موازنة العراق انما هي موازنة بنود وليست خاضعة للتحليل الاقتصادي، ثم ان علاقة الضريبة بالخدمات لا تخص المركز الاتحادي فحسب بل وبالمحافظات ايضاً من حيث طبيعة التنفيذ والتحصيل والصلاحيات الممنوحة لها حسب القانون وآليات انفاقها مع التنويه بان اغلب مجالس المحافظات العراقية قد اشتكت من عدم انصافها في الموازنة المالية، وقد شاطر هذه الشكاوى توضيح بعض الوزراء في المركز الاتحادي من قلة الاموال المخصّصة لوزارته وهي وزارة خدمية، وقطعاً ان هذه الشكاوى لا تكشف عدم كفاية الموارد المالية فحسب بل ان هناك مشكلة اما في اعداد بيانات الموازنة والإحصائيات المطلوبة او في آلية تخصيصها او في وجود فجوة ما بين من يعد الموازنة وبين من يريد ان ينتفع

من المواطنين، سواء كان تعيينات جديدة ام فرص عمل مناسبة ام خدمات حقيقية.

8. ان نجاعة اي برنامج حكومي ترتبط بتحديد طبيعة المشكلة والأهداف والآليات والوسائل وتقويم كل منها على حدة في اوقات مناسبة من قبل جهات وهيئات مختلفة. والبرنامج الحكومي انما هو حلول متصوّرة لمشاكل حقيقية موجودة واحتياجات ومطالب معّجلة ومؤجلة عند القواعد الاجتماعية في عموم العراق.

ولذلك يمكن القول ان الصفحات العديدة رغم وجاهة الفقرات الموضوعة للتنفيذ فإنها لم تُحسن اختيار الاولويات وربما كان من الممكن اعطاء اولويات للتعليم والصحة والإسكان كأولويات قصوى باعتبار انها تدخل في صميم المضمون الاجتماعي. وهنا نشير الى نص في المنهاج الوزاري وهو ''ان الشعب هو الجيش الحقيقي''، وهو قول صائب وموضوعي، ولكن نحتاج لوسائل جدّية لتنفيذ هذا القول، وأفضل الوسائل انما هي التي تهتم بالمضمون الاجتماعي للشعب. وهنا ننوه الى ان استراتيجية الحماية الاجتماعية وموضوع النقد مقابل العمل والدعم الاجتماعي قد وضع في خانة اللون الوردي، وهي الخانة التي تعتمد على القروض المستقبلية. وقد وجه نقد للبرنامج عن سكوته عن التشريعات طالما ان البرنامج قد اشار الى وجود الفوضى التشريعية.

9. اغفل البرنامج موضوع المصالحة الوطنية واستخدم بدلاً منها مصطلح الاتفاق السياسي وتقوية اللحمة الوطنية وسبيل هذه هو تقديم مشروع الاحزاب والانتخابات.

ونلاحظ ان هذا السبيل اولاً لم يوضع له مؤشر زمني، وثانياً ان البحث عن تعديل قانوني الاحزاب والانتخابات لوحده فقط ليس هو الحل المناسب لتقوية اللحمة الوطنية، لاسيما ان التجربة اثبتت ان ولادة اي مشروع او تعديل انما هي من نفس الرمم، رمم الكتل السياسية والزعامات والمغانم والتوافقات الحزبية الضيقة، وليست حتى المكوناتية ''رغم تحفظنا على مصطلح المكوناتية''.

10. في اطار المقارنة ما بين المنهاج الحكومي الحالي بمنهاج الحكومة السابقة نجد ان منهاج حكومة العبادي اشتمل على ستة محاور وهي عراق آمن ومستقر والارتقاء بالمحتوى الخدمي والمعيشي وتشجيع التحول نحو القطاع الخاص والإصلاح الاداري والمالي وزيادة انتاج النفط والغاز وتنظيم العلاقات الاتحادية والمحلية ومن ضمن المنهاج تقليل نسبة الشح في ماء الشرب وحماية الهواء والماء والإستراتيجية الوطنية لمكافحة الفساد 264 - 267 والبطاقة الصحية الوطنية.

اما برنامج حكومة عادل عبد المهدي فقد اشتمل على خمسٍ، وهي استكمال أسس بناء الدولة الاتحاديةً وسيادة النظام والقانون والأمن الداخلي والخارجي والاستثمار الامثل للطاقة وتقوية الاقتصاد وخدمات التنمية البشرية.

وعند المقارنة نجد التداخل ما بين المحاور وان اختلفت العناوين مع الاستفسار عن مدى نجاح السابقة في تنفيذ البرنامج (والدليل ماء الشرب وحماية الهواء)، مع ادراكنا وجود الصّيغ التبريرية لمواجهة عصابات داعش الارهابية واستحواذ الانفاق العسكري والامنيٍ على الموازنات منذ العام 2014 فصعوداً، وانخفاض اسعار النفط.

مع اعتقادنا ان هذا التبرير لا يكفي في

تقديم تحليل موضوعي للمنهاج الوزاري والبرنامج الحكومي للحكومة السابقة.
اما عن برنامج الحكومة المالية فأننا نعتقد بأنها ستواجه نفس المشاكل الأمنية والاقتصادية، وإن كانت ليست بنفس الحجم، إن لم تحسن ادارة الملفات السياسية والاقتصادية على المستوى المحلي والاقليمي والدولي. ولا ننسى ان الحكومة ألزمت نفسها بـ 263 صفحة و 195 فقرة لا بد من تنفيذها في اربع سنوات. وان السبيل الناجح لتحقيق هذه الاهداف انما يرتبط بمجموعة مقومات منها:
أ- تجاوز المحاصصة بكل اشكالها سواء بمصطلحات التوازن او المكوناتية وحصّصها من المناصب العليا وغير العليا. وهنا نجد ان معظم القوى السياسية والحزبية تنتقد المحاصصة اعلامياً لكنها تتمسك بها بشكل فعلي عند المباحثات والمفاوضات حول المناصب ومغانمها ولذلك لا نعتقد ان البرنامج الحكومي يستطيع ان يعالج المحاصصة ويأخذ من جرفها لصالح جرف المواطنة.
ب- محاربة منظومة الفساد في مفصلي المنافذ الحدودية والنفط والغاز كأولوية، فقوى النجاح في هذه المفاصل ستعني عدم هدر المال العام والريع النفطي وامكانية حفظه في مجلس الاعمار، وثانياً تعظيم الموارد المالية الداخلة في الموازنة العامة.
ج- اعادة النظر في مفاصل البرنامج الحكومي وإعطاء الاولوية للتعليم والصحة والاسكان والكهرباء لأنها الاساس في تحقيق الخدمة الحقيقية للمواطنين والتي ستدعم من شرعية ومشروعية حكومة عادل عبد المهدي.
د- اعادة النظر في العلاقة ما بين المركز الاتحادي ومجالس المحافظات والتريث قليلاً في موضوع نقل الصلاحيات او استكمالها او ايجاد آلية جديدة وبما يضمن الانفاق المالي في المواضع التي تخدم المواطن في المحافظات.
هـ - السعي الجاد من قبل رئيس الحكومة شخصياً لتفعيل مواضيع الاعمار والاستثمار من الدول الاقليمية والمجتمع الدولي وتجاوز محطة الانتظار والوعود المؤجلة والشروع بإستراتيجية المنهج الوظيفي القائم على خلق المصلحة المتبادلة.
11. من الضروري والمهم ان نشخص الخلل الواضح في المادة 76 من الدستور العراقي وتفسيرات المحكمة الاتحادية لها.
ويتوضح هذا الخلل من ان رئيس الجمهورية يكلف مرشح الكتلة النيابية الاكثر عدداً بتشكيل مجلس الوزراء خلال 15 يوماً من تاريخ انتخاب رئيس الجمهورية.
وفي الفقرة رابعاً من نفس المادة: يعرض رئيس مجلس الوزراء المكلف اسماء اعضاء وزارته والمنهاج الوزاري على مجلس النواب وبعدها تعرض نفسها عند الموافقة على الوزراء منفردين والمنهاج الوزاري بالأغلبية المطلقة.
وهنا يتعين الأمر تحليل الموضوع. فالمادة هنا تفّرق ما بين الموافقة على رئيس مجلس الوزراء والوزراء وهذا خطأ جسيم، ما كان على المشرعين الوقوع فيه لان الاصل بالموافقة هو رئيس الوزراء والمنهاج وبالتابعية الوزراء.
كما ان المادة تبحث عن تسمية الاسم كرئيس الوزراء وليس المنهاج الوزاري وهذا خطأ ثاني والدليل هو الفقرة خامساً من نفس المادة التي تنص على ان يتولى رئيس الجمهورية

تكليف مرشح آخر بتشكيل الوزارة خلال خمسة عشر يوماً في حالة عدم نيل الوزارة الثقة.
وهنا نجد التركيز على رئيس الوزراء والوزراء قبل المنهاج الوزاري مع التنويه هو كيفية كتابة منهاج وزاري ما بين رئيس وزراء وآخر خلال المدة الدستورية المحددة في المادة 76.
ولذلك نعتقد ان هناك انحرافا في تطبيق معالم النظام البرلماني في العراق.

الخاتمة

1. ان هناك مشكلة جوهرية في تنفيذ البرنامج الحكومي الحالي، كحال البرامج الحكومية السابقة وتتمثل هذه المشكلة في ان البرامج الحكومية لا تتوافر فيها السمات الموضوعية والواقعية اللازمة لأي برنامج حكومي.
2. ان البرامج الحكومية العراقية المتعاقبة ما هي الا خليط من آراء وتوجهات القوى السياسية والحزبية والكتلوية ولا تعكس برنامجا حزبيا واضحا يتطابق مع برنامج سياسي حزبي انتخابي.
3. ان البرنامج الحالي يتشابه في مفرداته وعناوينه مع البرامج الحكومية السابقة وهذا يعكس عدم توافر برنامج حكومي يأتي من خلال رصد الحاجات والمطالب الاجتماعية – الاقتصادية للمواطنين وتبويبها حسب الاولويات الضرورية التي تخدم المواطن.
4. لما كانت الحكومة نتاج المحاصصة (الظاهرة والباطنة) فان البرنامج الحكومي بالضرورة سيفقد المعنى والمضمون الحقيقي لرؤية الحكومة.
5. ان البرنامج الحكومي الموضوعي ليس هو اطار للآراء والأفكار الايديولوجية والعقائدية بقدر ما هو مرآة لمطالب واحتياجات واقعية. ولذلك فإن البرنامج الحكومي الذي يعتمد الانشاء والشعارات، هو برنامج واهن في اصله معدوم في تحقيق اهدافه.
6. ان هذا البرنامج يأتي في اعقاب خطط تنمية سابقة 2010 - 2014، 2013 - 2017 وفي اطار خطة تنمية 2018 - 2022، فأين المتحقق من الخطط السابقة، ليكون اساس الخطة الحالية.
7. ان البرنامج الحكومي، ومن خلاله الحكومة، ليس فيه امرأة ولا شاب ولا مستقل بشكل فعلي، فكيف اذن الحديث عن انصاف المظلومين في البرنامج.
8. ان المنهاج والبرنامج الناجع لا بد ان يكون مرتبطاً بهدف مركزي واحد، تعمل الحكومة على تحقيقه، وليس ان تصنع امورا وفقرات اجرائية عديدة في صفحات عديدة تضيع هذا الهدف المركزي.
9. ان المنهاج والبرنامج الناجع لا بد ان تكون اهدافه موضوعية، مرتبطة بالقدرات والقابليات وليس خاضعاً لعبارات انشائية مكررة.
10. ان المنهاج الوزاري (من حيث المدة الزمنية) الذي يُكتب في شهر واحد بعد التكليف (حسب المادة 76) لا نعتقد بأنه صحيح، اذ لا بد من ان يكون اصل التكليف على المنهاج قبل المرشح او مع المرشح وليس تفضيل المرشح على المنهاج، ونعتقد المشكلة اكثر عند تكليف (مرشح تسوية).
11. ان المسيطر في البرنامج (هكذا نفترض) الترضيات الحزبية والكتلوية وليس الاحتياجات والأهداف التي تدخل في صميم بناء وإدارة الدولة.

12. سيبقى البرنامج الحكومي وتنفيذه رهينة الموارد المالية الريعية وطبيعة التوافقات المحلية والتوازنات الاقليمية والدولية.

13. ان البرنامج الحكومي الناجع هو ذلك البرنامج الذي تتلازم فيه الاهداف والوسائل وتتوافر القابليات والامكانيات، والتفاهم والتعاون ما بين السلطات القائمة والاهم توافر ارادة سياسية تؤمن فعلاً بان البرنامج هو لخدمة المواطن وليس الاحزاب والكتل لان في الحكم الديمقراطي الصحيح فان الاحزاب تضع البرامج والمشاريع لخدمة المواطنين، وليس للسعي لزيادة نفوذها ومغانمها.

14. ان محاربة الفساد تحتاج لمنظومة متكاملة الوسائل، منها ما هو محلي وإقليمي ودولي.

التعريفة الجمركية

وهي ضرائب تفرض على السلع التي تستوردها دولة من أخرى، وتستخدم عدة دول التعريفة الجمركية لحماية صناعتها من المنافسة الأجنبية، وتُوفر التعريفة الحماية عن طريق رفع أسعار السلع المستوردة، وهكذا فإن التعريفة الجمركية تُشجع المنشآت المحلية على زيادة إنتاجها، ويضطر المستهلكون لدفع أسعار أعلى إذا رغبوا في السلع المستوردة.

والتعريفة الجمركية على الصادرات تُستخدم أحيانًا في بعض الدول لزيادة إيرادات الحكومة كما قد تستخدم دولة ما التعريفة الجمركية للتأثير أو للاحتجاج على سياسات اقتصادية أو سياسية لبعض الدول الأخرى.

وتضع الدول مقدار التعريفة الجمركية بطرق مختلفة، فقد تكون لبعضها اتفاقيات تجارية تتضمن بنداً ينص على تفضيل في المعاملة لبعض الدول، وبموجب هذا البند تفرض أقل نسب التعريفة العادية في بلدها على كل البلدان الموقّعة على الاتفاقية، ويمكن فرض تعريفات تفضيلية خاصة وتكون عادة أقل من التعريفة التفضيلية العامة، وذلك لتشجيع الواردات من البلدان الأقل نموّاً.

إن الدول التي تشكل اتحاداً جمركياً تزيل التعريفة الجمركية من التجارة بينها، وكذلك قد تكون لديها تعريفة جمركية مشتركة تغطي التجارة مع الدول غير الأعضاء في الاتحاد الجمركي، كما ان السوق المشتركة لديها سياسة التعريفة الجمركية نفسها التي عند الاتحاد الجمركي، ولكنها توفر قدراً أكبر من التعاون بين الأعضاء.

أما دول منطقة التجارة الحرة فتفرض تعريفة جمركية على التجارة بينها، ولكن تستطيع كل دولة أن تفرض التعريفة الجمركية التي تريدها على غير الأعضاء.

تُصنف التعريفة الجمركية وفقاً للطريقة التي تُفرض بها، فالتعريفة النوعية تحسب طبقاً لوزن أو حجم المنتج، فعلى سبيل المثال ربما تفرض حكومة ما تعريفة نوعية على منتج بمعدل عشرة دنانير على الكيلو غرام أو 25 ديناراً على اللتر الواحد، وتفرض التعريفة النوعية على منتجات المواد الخام مثل خام الحديد أو المطاط أو على المواد الغذائية مثل السكر والقمح.

أما التعريفة القيميَّة فتفرض كنسبة مئوية من قيمة المنتج، ولذا سميت قيمية، كأن تنطبق بنسبة 5% مثلاً على المنتجات الصناعية المستوردة مثل السيارات.

البرنامج الحكومي: تَكْرِيسُ أزمة الاقتصاد ونتائجها تَوأم الفَشَل والفَسَادْ

د. صبري زاير السعدي

أولاً: إدارة الاقتصاد في "البرنامج الحكومي"

يُفيد التَذْكير بأنه ليس هناك جديد، ولا غموض، في حالة الفوضى بإدارة الاقتصاد الوطني وسوء إنفاق الإيرادات النفطية في "البرنامج الحكومي (2018 - 2022)"[1] (البرنامج). فمعظم مفردات وتفاصيل "البرنامج"، وباستثناء الشعارات السياسية، مُستَمَد من تفاصيل خطة التنمية الوطنية (2018 - 2022)[2]، وهي وثيقة حكومية تتصف أهدافها وسياساتها الاقتصادية ومشاريعها بغياب التكامل والتنسيق، كما أن تقديراتها عن النمو في المؤشرات الاقتصادية الرئيسية غير موثقة إحصائياً[3]. ولهذا، فإن تطبيق السياسات والإجراءات الاقتصادية والمالية في "البرنامج" التي تَتَسمُ بالغُموض والإرتباك وتتذاكى في التضليل بالاستقلالية عن السياسات "الليبرالية الجديدة"، سيُعَمِقُ الأزمة الاقتصادية الهيكلية المزمنة، ويكرس إدارة الفشل وانتشار الفساد، ويُسهِمُ في استمرار التردي بمستويات المعيشة لغالبية المواطنين. ويُفيد التَذْكير أيضاً، بأن أهداف السياسات "الليبرالية الجديدة" بالتحول القَسري والسريع لاقتصاد السوق، لا تَستقيم مع خصائص الاقتصاد الوطني في المرحلة الراهنة، وأهمها الاعتماد الكبير على الإنفاق العام والاستيرادات المُمَوَلَة من الإيرادات (الريع) النفطية، والدور المحدود لاستثمارات القطاع الخاص الوطني في توسيع الطاقات الإنتاجية القادرة على المنافسة في الأسواق المحلية والأجنبية[4].

وفيما يتعلق بالفساد، لا يُفيد "البرنامج" الصراخ العالي بانتشاره ومساوئه، أو العويل بتردي الأخلاق في أسبابه، أو الانشغال بمراجعة وتشكيل اللجان لاستئصاله. فالأولوية، والأكثر أهمية، في مكافحة الفساد الحكومي تتم، وبإرادة سياسية حازمة، من خلال ترشيد وتنظيم الإنفاق الحكومي المُمَوَلْ من الإيرادات النفطية، والذي يُهَيمِنُ على الطلب المحلي المُحَفِز الأساسي للنمو الاقتصادي، لصالح الاستثمار في المشاريع الصناعية والاستراتيجية الحديثة، وفي توسيع وتحديث الخدمات العامة، واقتران هذه السياسة بتنظيم ورقابة تنفيذ المشاريع وعقود التجهيزات الحكومية وتحسين الإدارة الضريبية المدعمة بالإجراءات القانونية الرادعة وضمان نفاذها.

وخلافاً لتبرير بعض الاقتصاديين من أن هذه السياسات الحكومية تتناسب مع التوسع الحاصل في أنظمة السوق والإندماج بالاقتصاد العالمي، وأنها تواكب معطيات الثورة العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية والسرعة المذهلة في الاتصالات والنقل، وتتلاءم مع التَغَيُر في أذواق المستهلكين، فإن هذه المتغيرات لا تُقَلِل أو تُقَيّد من أهمية مسؤوليات الدولة المباشرة في استثمار الثروة النفطية في مشاريع التنويع الاقتصادي الهيكلي الضرورية لإيجاد مصادر جديدة للإنتاج وللصادرات، ولتوفير فرص العمل وزيادة الدخول، وتحسين الخدمات التعليمية والصحية والضمانات الاجتماعية، ولتنمية الموارد الطبيعية والثروة الوطنية، وذلك بتفعيل التخطيط الاقتصادي والإنمائي المركزي[5].

ثانياً: الاقتصاد السياسي المغيب في "البرنامج"

ي تقييم نتائج تنفيذ "البرنامج" المتوقعة، يَدْرك الجميع، وخاصة السياسيين والاقتصاديين المهنيين، أهمية الاتساق المطلوب في العلاقات السائدة بين قوة السياسة في إدارة الدولة وبين قوة المصالح الاقتصادية والاجتماعية المتعددة في المجتمع. ولأن التردي في الواقع السياسي ليس بحاجة للتأكيد، كما تدل معطيات التجربة منذ سنوات عديدة، ولا سيما نتائج الانتخابات العامة (12 أيار/ مايس 2018) المُخَيّبَة لآمال المواطنين وعُقْم مُساومات الكتل والأحزاب السياسية في تشكيل الحكومة (24 تشرين الأول/ نوفمبر 2018 - لم تستكمل الوزارات السيادية فيها حتى الآن) وغير الملتزمة بأية برامج وسياسات اقتصادية حينها، فإن من المناسب هنا تَجاوز البَحث في الشأن السياسي الشائك حيث التأثير الهام للمصالح السياسية الإقليمية والدولية، وإن يكن بيان دور السياسة ضرورياً دائماً لمعرفة مقدار تأثيراته في الاقتصاد والمجتمع، وذلك بهدف تركيز الاهتمام على إيضاح أسباب الفشل الاقتصادي وانتشار الفساد، التي تَتَكرسُ في "البرنامج" الذي يمثل صيغة مهنية متدنية ومضللة لأهداف وأدوات السياسات "الليبرالية الجديدة" المَعيبة. السبب الأول والأهم، حديث الناس والنخب السياسية في أولوية مقاومة الفساد كمقياس لنجاح تطبيق "البرنامج"، ولكن بدون التعرض لدور الفشل الاقتصادي في هذا الفساد نتيجة العبث في تبديد الثروة النفطية بغياب معايير توزيع الريع النفطي بين الاستثمار والاستهلاك الحكومي وفي تمويل الاستيرادات المتزايدة. والسبب الثاني، غياب الاستراتيجية والسياسات الاقتصادية الحكومية الواضحة، وبالتالي، إرتباك الإدارات التنفيذية واضطراب معايير صلاحياتها في متابعة تنفيذ الموازنة المالية السنوية والمشاريع الحكومية بمستوياتها المتعددة، وأيضاً، قصور المَعْرِفَة بالسياسات والإجراءات الاقتصادية والمالية في أوساط السلطات التشريعية والقضائية. والسبب الثالث،

مواصلة الفشل في التحول "القسري" نحو اقتصاد السوق بديلاً للتخطيط الاقتصادي المركزي ودور الدولة في استثمار الموارد العامة، بالاستمرار في تطبيق السياسات الاقتصادية "الليبرالية الجديدة" بتوجيه ودعم صندوق النقد الدولي (الصندوق)، وبدون إدراك خصائص وديناميات نمو الاقتصاد الوطني ومستويات تطوره، ومعرفة بيئته الاجتماعية، وتقدير الإمكانيات المالية والريادية والتنظيمية المحدودة للقطاع الخاص. ومن الأسباب أيضاً، تجاهل "البرنامج" لحقيقة أن تجريد السياسة النفطية (الاستثمار والإنتاج والتصنيع والتصدير) من إطار الاستراتيجية والسياسات الاقتصادية، وهذا من بديهيات علم الاقتصاد، يُسْهِمُ في بَعثرة الثروة النفطية وانتشار الفساد أيضاً، كما يظهر في أحدث مثال: القرارات المفاجئة الخاصة بالإتفاق النفطي والتمييز المالي في التعامل مع حكومة كردستان الفيدرالية، وإتفاقية التعاون الاقتصادي مع الأردن[6].

ويَفْتَقِدُ "البرنامج" تعريف الرأي العام والمؤسسات الحكومية والقطاع الخاص ليس فقط بأهداف الاستراتيجية والسياسات الاقتصادية "الغائبة كليةً" وبأهداف البرامج والمشاريع الاستثمارية الحكومية، بل يَفْتَقِدُ أيضاً، الاعتراف بواقع الأزمة الاقتصادية الهيكلية المزمنة وعوامل تَقْييد زيادة الإنتاج والإنتاجية، وارتفاع البطالة، وانتشار الفقر، وتزايد الاعتماد على قطاع صادرات النفط الخام، وزيادة الدين العام والقروض الأجنبية، وزيادة الاستيرادات من المنتجات والسلع الاستهلاكية المُمَوّلَة حصراً من الإيرادات النفطية. كذلك، يَفْتَقِدُ "البرنامج" التعريف بهوية النظام الاقتصادي بصيغ واضحة من الأهداف والسياسات والمعايير والصلاحيات في عمليات اتخاذ القرارات الاقتصادية والمالية الحكومية وتنفيذها، ويتجاهل أيضاً، مؤشرات قياس الإنجاز الحكومي القابلة للمتابعة وللتقييم وللمحاسبة ولوسائل نشرها. ولعل الأكثر أهمية في تصويب السياسات الاقتصادية السائدة، خطأ اعتماد "البرنامج"، بمعرفة أو بدون معرفة، لمفهوم الإصلاح والتنويع الاقتصادي "للصندوق"، بديلاً عن اعتماد المؤشرات الإحصائية في تحليل ديناميات النمو بين القطاعات الإنتاجية والاقتصادية وإدراك أنماط التأثيرات المتبادلة في علاقاتها الإنتاجية البينية التي تكشف عن طبيعة وأهمية الإسراع بعمليات التنويع الاقتصادي الهيكلي بإقامة مشاريع الصناعات التحويلية المستخدمة للتكنولوجيا المتقدمة بهدف زيادة الإنتاج والإنتاجية والصادرات ونشر التكنولوجيا بين القطاعات لتحسين القدرة التنافسية للاقتصاد الوطني.

ثالثاً: أين تقييم الواقع ومؤشرات المستقبل الاقتصادي؟

من الغريب ومما يثير الشك والتأويل في كفاءة الحكومة، وكما في أية دولة، أن يخلو "البرنامج"، ومدته خمس سنوات،

من المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية الرئيسية للتطور المُحَقَقْ في الماضي والمُستَهدَفْ في المستقبل: معدلات النمو السنوية في الناتج المحلي الإجمالي وفي القطاعات الإنتاجية، معدلات البطالة في الأيدي العاملة، المتوسط السنوي في نمو الدخل الفردي، معدلات الفقر وانتشاره، مستويات الاستهلاك الخاص والحكومي، مستويات الاستثمار الحكومي والخاص، مقدار الدين العام والقروض الأجنبية، تطور الصادرات النفطية وغير النفطية والاستيرادات وحصيلتها السنوية في فائض أو عجز الميزان الحسابي الجاري. أليس ضرورياً إطلاع الرأي العام: المواطنين، والإدارات الاقتصادية الحكومية، ومؤسسات وشركات القطاع الخاص، الوطني والأجنبي، وأصحاب الأعمال المعنيين، ومن خلال مذكرة تفسيرية، بظروف السوق وبمعرفة تعليمات الدولة وأسس تعبئة الإيرادات المالية العامة، لاسيما الضريبية، ومعايير توزيعها بين الإنفاق والاستثمار الحكومي في الموازنات المالية السنوية لأهميتها الكبيرة ليس فقط في تحسين إدارة الدولة في ترشيد الإنفاق الحكومي، بل وأيضاً، في تسهيل وتحسين قرارات المستثمرين للتأكد من الاستقرار والنمو الاقتصادي، ولتقليص النزعات الاحتكارية والمضاربة، وترشيد قرارات المستهلكين بعد التأكد من توقعات زيادة الدخول وتحسين مستويات المعيشة في المستقبل؟

رابعاً: لماذا يتجاهل "البرنامج" ظاهرياً استراتيجية وسياسات "الصندوق"؟ (المقصود صندوق النقد الدولي – المحرر)

والتساؤل هنا أيضاً، لماذا يتجنب "البرنامج" إعلان مؤشرات (توقعات) "الصندوق" الاقتصادية الرئيسية والقطاعية التي تعتمدها الحكومة؟ [7] هل يَكْمُن السبب في النتائج المخيبة لسياسات "الصندوق" أم في أدوات تطبيقها من قبل الحكومات منذ العام 2003، أم أنها كانت مختلفة عن بيانات وإحصاءات غير منشورة؟ وبالتحديد، أليس غريباً ويدعو للشك والتأويل في استقلالية ومؤهلات الحكومة، تجنب "البرنامج" بيان الموقف من "صلاحية" أو "مساوئ" السياسات الاقتصادية والمالية والنقدية والتجارية والاستثمارية التي تمارسها الحكومة بالإتفاق مع "الصندوق" وفقاً لإتفاقية الاستعداد الإئتماني (2017 - 2019) (الإتفاق)، وهل هذا التجاهل يخفي تَمديد "الإتفاق" مع "الصندوق" للسنوات (2020 - 2022)؟ وإذا كان من مصلحة العراق الاستمرار بهذا "الإتفاق"، لماذا تتجنب الحكومة تأكيد العمل باستراتيجية وسياسات "الصندوق" والكف من التضليل في الإدعاء بوجود "الخطة" أو العمل بـ "البرنامج" تحت شعار "تقوية الاقتصاد" وبوجود سياسات اقتصادية متكاملة ومستقلة معدة وتدار من قبل الحكومة. لماذا لا يبادر السادة الوزراء أو قادة الأحزاب المشاركة في الحكومة، والاقتصاديون منهم بخاصة، في الإدلاء بآرائهم العلنية والموثقة في هذه السياسات؟

خامساً: دوافع الاستمرار في قانون شركة النفط الوطنية، إخفاء الخصخصة!

من الأمثلة التي تؤكد أن التفاؤل في التغيير الاقتصادي المطلوب بعيد المنال، تجاهل ''البرنامج'' وعلى نحو غير مفهوم، قرار المحكمة الإتحادية العليا الخاص بقانون شركة النفط الوطنية العراقية [8] القاضي بعدم دستورية المواد 3، والمادة 14 (ثالثاً وخامساً) والمادة 7 (أولاً/1) والمادة 8 والمادة 11، والمادة 12 بكامل فقراتها – وهي الأخطر في القانون - والمادة 13 (ثانياً) والمادة 16 والمادة 18 (سادساً)، وليعيد ''البرنامج'' النص القديم الذي يشير إلى تنفيذ القانون في عالام 2019، بعد إجراء تعديلات ''مبهمة'' فيه.

وبرأينا، يستهدف ''البرنامج'' من الاستمرار في إدراج موضوع قانون شركة النفط العراقية، هو التمهيد لتحقيق أحد أهداف ''الخطة'' ''المختبئة'' التي يعتمدها ''البرنامج''، وهو خصخصة 5% من الأصول الإنتاجية لقطاع استخراج النفط الخام مع نهاية عام 2022 [9].

سادساً: التَضليل أم فَقْرُ المَعرفة الاقتصادية؟

ما يرد في المحور الرابع بعنوان ''تقوية الاقتصاد'' بشعار مبدأ ''صنع في العراق'' ومشاريع بـ ''أيدٍ عراقية''، وهو شعار يعوزه المضمون وطريقة التحقيق، الصفحات 55 - 74، للتعريف بأبرز جهود الوزارات ''القادمة'' التي شملها ''البرنامج'' لتحقيق هذا الهدف، يفاجئنا بأن المشاريع الاستثمارية الواردة محدودة التأثير في النشاط الاقتصادي. ففي مهام وزارة المالية، يتصدر مشروع التصميم والتنفيذ الفني لنظام IFMIS، هذا اللغز الصعب[10]، ومشروع تطوير القدرات الإدارية لتحويل نظام الموازنة الحالية إلى موازنة مشاريع في العام 2020، والإنتقال إلى الحكومة الألكترونية. وبالتأكيد ليس هذا بالإنجاز المنتظر! الصفحة 55. وفي الفقرة 3، يتجلى غياب المفهوم الاقتصادي بحده الأدنى، فتحت شعار ''الانتقال من فلسفة أن الاقتصاد هو مجرد تعظيم موارد الخزينة والحصول على القطع (العملات) الأجنبي إلى أن الاقتصاد هو أولاً تعظيم الموارد الوطنية والناتج الوطني الإجمالي وتعزيز دور العملة الوطنية ومحاربة البطالة والغلاء وانتشال الشعب من الفقر والجهل والمرض والخوف''، فإن مشروع تحقيق هذه ''الفلسفة العبقرية''! هو تحديث وأتمتة الكمارك وتوفير أجهزة ومعدات الكشف، واعتماد الجباية الضريبية الألكتروني. الصفحة 52. أما مضمون الفقرة 5 المعنية بتطوير النظام المصرفي فيتركز في تشجيع تقديم القروض للمواطنين والقطاع الخاص، ولكن بدون معرفة أهميتها الاجتماعية والاقتصادية ومقدارها [11]. الصفحة 53. وفي الفقرة 9 الخاصة بمهام وزارة المالية، يزداد العَجَبُ من أن تضليل هدفها ''مراقبة الدين العام الداخلي والخارجي دون تجاوزه مستويات معينة'' يتلخص بالاستمرار في تمويل مشاريع عديدة بالقروض الأجنبية حصراً، منها: مشروع

ممرات النقل، ومشروع تجهيز المياه والصرف الصحي، وقروض صندوق التنمية الاجتماعي، ومشاريع الكهرباء، ومشاريع إعادة إعمار الطرق والجسور والمجاري في نينوى. الصفحة 55.

ونلحظ أيضاً، فَقْرُ المعرفة الاقتصادية في تكرار دعوة "البرنامج" الغريبة لاستبدال العملة الورقية بالعملة الرمزية والإلكترونية، الصفحة 54، بينما يشير المشروع الذي يقترحه "البرنامج" لتنفيذ هذا الهدف، إلى نظام البطاقة الالكترونية المصرفية المستخدمة في سحب النقود من الحسابات الشخصية في البنوك. ويبدو أن عراب "البرنامج" قد اختلط عليه مضمون العملة الرمزية والألكترونية مع بطاقة سحب النقود الالكترونية. وهنا أيضاً، نلحظ تحذير البنك المركزي العراقي الغامض للمستثمرين من التعامل مع شركات الوساطة التي تُعنى بالتداول الألكتروني[12]. وتثير هذه الآراء، ولو الهامشية، مغزى وشبهات الإجراءات الهامة، كما في مزادات توفير العملة الأجنبية للبنوك، في السياسة النقدية[13].

أما ما يتعلق بوزارة الزراعة، فإن أهم مهامها على ما يبدو تقييد النشاط الزراعي، فبموجب "البرنامج" تتركز في "التخلص من مفهوم الأراضي الأميرية، الموروث من النظم العثمانية السابقة، وملكية الدولة بشخص وزارة المالية وبقية الوزارات لمعظم أراضي البلاد. وتشريع قانون يحفظ الملكيات الزراعية والحيازة والإجارة والاستثمار"، و"توزيع الأراضي بأسعار رمزية أو حتى مجانية" عبر مفهوم "الأرض لمن أحياها". الصفحة 57. هنا مسألة في غاية الأهمية تريد الحكومة تحقيقها، وليس من الواضح فيها غير تمليك أراضي الدولة الزراعية للملاك القدماء والجدد، وليس واضحاً أيضاً، نوايا الحكومة بمصير قوانين الإصلاح الزراعي؟ لقد كان على "البرنامج" التفسير الصريح لهذه الدعوة التي لها أبعاد اقتصادية وسياسية واجتماعية وبيئية هامة وبعيدة المدى.

وفي "البرنامج"، غياب العلاقة بين مهام وزارة التجارة ودورها بضرورة العمل على تنمية الصادرات غير النفطية، وتنظيم الضوابط لتَقييد الاستيرادات، حماية للمنتجات المحلية. إنها مشغولة، وكما ورد في "البرنامج" "بدراسة وضع البطاقة التموينية ومفرداتها" وتسهيل منح إجازات تأسيس الشركات بأشكالها المختلفة. الصفحة 60.

كذلك، تختزل مهام وزارة الصناعة والمعادن الرئيسية حيث تتلخص في خصخصة مشاريع القطاع العام الصناعية بالتدريج أو بأسلوب المشاركة وتحت شعار "تحويل الأصول الجامدة إلى أصول متحركة من خلال عرض المنشآت المتوقفة أو الخاسرة وطرحها للمشاركة والاستثمار أو البيع للمواطنين". وليس في "البرنامج" ما يشير إلى معايير وإجراءات إعادة تقييم وتأهيل هذه المشاريع والتحقق في حماية العاملين فيها ومنع إعادة بيعها، وبيع الأصول الثابتة (الأرض) فيها بعد تمليكها

للقطاع الخاص، الصفحات 61 - 63. أما ضرورات تأسيس الصناعات التحويلية المتقدمة تكنولوجياً لإيجاد مصادر جديدة للإنتاج وللصادرات ولنشر التكنولوجيا بين فروع الاقتصاد الوطني بما يؤدي إلى تقليل الاعتماد على قطاع صادرات النفط الخام، فهو غائب تماماً عن مشاريع الاستثمار الحكومي في "البرنامج". هذه السياسة تتطابق تماماً مع سياسة "الصندوق" لتهديم الصناعة الوطنية[14] بحجة عدم وجود قدرات إدارية وفنية تديرها، وليس للقطاع الخاص إمكانيات لإدارة وتمويل الاستثمار فيها أو لأن تكلفة الإنتاج عالية ويمكن استيراد منتجاتها بأسعار رخيصة. إنه تبرير مضلل يفضحه نجاح التجربة الصناعية خلال عقدي الستينيات والسبعينيات[15].

أما مهام وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، فليست معنية بنتائج السياسة الاقتصادية الجاري تطبيقها في زيادة البطالة من الأيدي العاملة الوطنية في مقابل زيادة استخدام الأيدي العاملة الأجنبية.

الخلاصة: مستقبل الاقتصاد الوطني

في مقابل ارتِباك وإرباك "البرنامج"، لا يمكن بناء الاقتصاد الوطني واستدامة النمو وتقليص الاعتماد على الريع النفطي بالالتجاء إلى الغموض والتعميمات والشعارات السياسية "الشعبوية"، وتفضيل رغبات السلطة الذاتية، بديلاً عن العمل بهدى رؤيا وطنية مستقبلية حديثة للارتقاء بمكانة الدولة وبنوعية الحياة في البلاد، والالتزام بأهداف استراتيجية تواكب الثورة التكنولوجية والعلمية، وسياسات اقتصادية فاعلة، وبرامج ومشاريع استثمار حكومية ذات أولوية معلنة ويتم تمويلها من الإيرادات النفطية في إطار برنامج سنوي مستقل، كما في إقامة الصناعات التحويلية المتقدمة تكنولوجياً ومشاريع البنية الأساسية الاقتصادية (المادية)، وبهدف إيجاد مصادر جديدة للإنتاج وللصادرات ولزيادة تراكم الثروة الوطنية، وبالتوازي مع تحسين مستويات المعيشة للمواطنين بمعايير زيادة فرص العمل والدخول، وتحسين الخدمات الصحية والتعليمية والاجتماعية والبيئية العامة.

هذه هي مهام الدولة التي لا يستطيع القطاع الخاص الوطني في هذه المرحلة الإسهام المؤثر فيها بالرغم من عدم تعارضها مع أولويات الاستثمار الخاص، ولا ينفع معها استثمار فوائض الإيرادات النفطية (الإحتياطيات) في الأسواق المالية العالمية من خلال الصناديق السيادية في المستقبل، ولا يُفيدُ زيادة الدين العام والقروض الأجنبية في تحقيقها، ولن تشارك فيها أوهام توطين الاستثمار الأجنبي المباشر في غير "خصخصة" صناعة استخراج وتصدير النفط والغاز. هذه مهام الدولة التي يجب إدراجها في "البرنامج الحكومي" والبدء في إنجازها لينتهي فشل الإدارة الاقتصادية ويجف المصدر الرئيسي للفساد.

الهوامش

1 - أنظر: جمهورية العراق، رئاسة مجلس الوزراء، البرنامج الحكومي (2018 - 2022)، شباط 2019. و"البرنامج" هو العنوان الجديد للطبعة الأنيقة الملونة من "المنهاج الوزاري (2018 - 2022)"، الذي سبق ونشر في بوابة وكالة الأنباء العراقية بتاريخ 24/10/2018. ليس هنالك أسباب أو معلومات جديدة تضاف لمضمون "المنهاج الوزاري"، بعد دعم وتوقيع السادة الوزراء وموافقة مجلس النواب، تدعو للعودة إلى النَقْد الذي سبق وتم نشره. أنظر: صبري زاير السعدي، "المنهاج الوزاري: التذاكي في إدارة الاقتصاد الوطني"، موقع الأخبار الألكتروني، الأربعاء، نوفمبر/ تشرين الثاني 2018 (http://www.akhbaar.org)، ونشر أيضاً في مجلة "الثقافة الجديدة"، العدد المزدوج 401 - 402، تشرين الثاني/ نوفمبر 2018. (http://ina.iq).

2 - أنظر: خطة التنمية الوطنية (2018) الصادرة عن وزارة التخطيط، جمهورية العراق، وقرار موافقة مجلس الوزراء على الخطة، كما ورد في بيان الأمانة العامة للمجلس بتاريخ 14 /4 /2018.

3 - عن التفاصيل، أنظر: صبري زاير السعدي، "الثروة الوطنية والمشروع الاقتصادي الوطني في العراق: بديل الاقتصاد - السياسي للريع النفطي"، العدد 480، شهر شباط/ فبراير 2019، شهرية مجلة "المستقبل العربي" الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

4 - أنظر: "الثروة النفطية والمشروع الاقتصادي الوطني في العراق"، المصدر السابق.

5 - تجدر الإشارة هنا إلى التطورات الاقتصادية والمالية والتجارية التي حدثت منذ الأزمة المالية الاقتصادية العالمية (2008) والتي فرضت التدخل الواسع للدولة في الشؤون الاقتصادية وتقديم الدعم المالي للبنوك وللمؤسسات المالية، والتأميم، ومنح عدد من الصناعات المنهارة تسهيلات مالية مباشرة، وكذلك تدخل الحكومات الاقتصادي والمالي في دول الإتحاد الأوربي خلال أزمة (2010 - 2012). وأخيراً، إجراءات الحماية التجارية والعقوبات الاقتصادية التي بادرت بها الولايات المتحدة الأمريكية في عام 2016، وهي الدولة الرأسمالية الكبرى والرائدة في الدعوة لنظام حرية السوق التنافسية والانضمام لمنظمة التجارة العالمية والإندماج في الاقتصاد العالمي، مع معظم الدول الرأسمالية المتقدمة صناعياً، لاسيما الأوربية ومع الصين: الدولة الاشتراكية.

6- أنظر: ثامر العكيلي، "أنبوب الخط العراقي الأردني بين الحياة والموت"، جريدة الأخبار الأليكترونية 14 /2 /2019. أنظر: التقييم الهام للأستاذ المهندس علي صبيح رئيس اتحاد الصناعات العراقي لتأثيرات الإتفاقية، السلبية الخطيرة، على واقع ومستقبل الصناعات العراقية. أنظر: المقابلة ومدتها 40 دقيقة في برنامج "مال واستثمار" المنشورة في قناة "الرشيد" على اليوتيوب بتاريخ 9/2/2019.

7- عن هذه المؤشرات الاقتصادية الرئيسية المتاحة للسنوات الماضية وللفترة (2018 - 2023)، أنظر:
IMF, "Report for Selected Countries and Subjects/Iraq", World Economic Outlook database, April 2018.
والبيانات الواردة في المصدر أعلاه، هي تعديل للبيانات المقدمة في شهر آب/أغسطس 2017 ، أنظر:
IMF, "IRAQ: Country Report No. 04/890", August 2017.

8- أنظر: جمهورية العراق، المحكمة الاتحادية العليا، العدد: 66 وموحداتها 71 و157 و224/اتحادية /اعلام 2018، القرار الصادر بتاريخ 23/1/2019.

9- ورد هذا الهدف في توقعات "الخطة" التنمية الوطنية (2018 - 2022)، أنظر: خطة التنمية الوطنية (2018 - 2022)، المصدر السابق. وعن تفاصيل ومؤشرات "الخطة"، أنظر: "الثروة النفطية والمشروع الاقتصادي الوطني في العراق"، المصدر السابق.

10- هذا نظام معلومات فني للإدارة المالية العامة يربط اليكترونياً بين التخطيط وإعداد الموازنة وتدفق بيانات تنفيذها بالتعاون المتكامل مع الأجهزة الحكومية ذات العلاقة، والرمزية المستخدمة بالحروف الإنكليزية لإضفاء الهيبة والمعرفة المتفوقة، هي:IFMIS (integrated financial management system)

11- يؤكد إعلان مصرف الرافدين بتمويل مشروع مترو بغداد والقطار المعلق عن طريق البنك المركزي بتكلفة 5 ترليون دينار (نحو 4.247 بليون دولار) وتمليكه بعد تنفيذه إلى أحد المستثمرين كفرصة استثمارية وإعادة المبالغ بفوائدها، الدلالة على طبيعة السياسة الاقتصادية في توزيع الإيرادات النفطية بصورة مباشرة أو غير مباشرة لتمويل القطاع

الخاص من خلال إنشاء المشاريع الخدمية والصناعية كمشروع مترو بغداد والقطار المعلق وتطوير معامل الأسمنت والزجاج والبتروكيمياويات، ومنحه حق ملكية هذه المشاريع. أنظر: ''الرافدين يعتزم تمويل مترو بغداد بـ 5 تريليون دينار''، جريدة الصباح الجديد، العدد 4150 وتاريخ 9 أبريل/نيسان 2019 (www.newsabah.com).

12- أنظر: بيان البنك المركزي العراقي الذي يحذر من التعامل مع شركات التداول الأليكتروني ببيع وشراء العملات والذهب، الاثنين 4 شباط 2019 (https://cbi.iq).

13- حول أهمية التغيير في السياسة النقدية وطريقة إدارة البنك المركزي العراقي لنظام التحويلات الخارجية، أنظر: صبري زاير السعدي، ''جذور أزمة البنك المركزي وارتباك السياسات الاقتصادية في العراق'' مجلة ''الثقافة الجديدة'' العراقية، العدد 356، آذار/ مارس، 2013، بغداد، العراق.

14- عن سياسات الصندوق، كما تعكسها توقعاته وتقديراته الإحصائية للنمو في الإنتاج الصناعي (وقدره صفر) خلال السنوات (2017 - 2022)، أنظر: صبري زاير السعدي، ''المشروع الاقتصادي الوطني في العراق: مقاربة في برنامج صندوق النقد الدولي''، مجلة ''المستقبل العربي'' العدد 469 مارس 2018 الدورية الشهرية الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان. (www.caus.org.lb).

15- أنظر: صبري زاير السعدي، ''التجربة الاقتصادية في العراق الحديث: النفط والديمقراطية والسوق في المشروع الاقتصادي الوطني (1951 - 2006)''، دار المدى، دمشق وبغداد، 2009.

خط تالوك

ويسمى أحيانا خط الوادي، وهي كلمة ألمانية تعبر عن الخط الذي يوصل بين أعمق النقط على مسار وادي أو نهر من أوله إلى آخره، وهو يمثل المسار الطبيعي للماء، أو بمعنى آخر هو الخط التي تجري فيه مياه نهر بأقصى سرعتها، ويستخدم هذا التعبير أيضا لتعريف ممرات مائية تحت سطح الأرض وتكون موازية بوجه عام لمجرى مائي على السطح.

ويسمى خط القعر أيضاً، وقد كان رسم مجاري الأنهار والحدود له أهميته في حالات متعددة، منها ترسيم شط العرب بين العراق وإيران عام 1975 باتفاقية الجزائر واعتبار نقطة خط القعر كحدود بين الدولتين، وفي أواسط أوروبا يقوم نهر الدانوب بهذه المهمة، وكذلك بالنسبة إلى مشكلة ترسيم الحدود بين ناميبيا وبوتسوانا عبر نهر كاسيكيلي/سيدودو والتي ساعدت محكمة العدل الدولية في حلها عام 1999، وأيضاً مشكلة الحدود بين غيانا وسورينام عام 2004 حيث قامت الأمم المتحدة بالتوفيق بين الدولتين في ترسيم الحدود بينهما عبر نهر كورانتين طبقا للقانون البحري.

محاسبة تكاليف (المعضلية) : محاسبة عوامل الإنتاج/ الموارد البشرية، كمثال على ذلك

د. صباح قدوري

الدكتور صباح قدوري، استاذ جامعي متخصص في محاسبة التكاليف وأنظمتها، بكالوريوس محاسبة وإدارة أعمال/ كلية التجارة - جامعة بغداد عام 1965، وحاصل على شهادة الماجستير في محاسبة التكاليف من جامعة Łódź/ بولندا في عام 1979. وفي عام 1985 حصل من نفس الجامعة على شهادة الدكتوراه Ph.D في فلسفة الاقتصاد الكمي/ محاسبة التكاليف. عمل الدكتور قدوري استاذا للمحاسبة في جامعة الفاتح/ كلية المحاسبة في مدينة غريان/ليبيا، كما عمل مدرسا للمحاسبة في المدرسة العليا للتجارة في مدينة اودنسا/ الدانيمارك، ومدرسا لاقتصاد العمل والتكاليف في المدرسة العليا للتجارة/ اودنسا – الدانيمارك. نشر د.قدوري العديد من الدراسات والبحوث والمقالات في المجلات والصحف العراقية والعربية.

المقدمة:

ظهر في أوائل السبعينات من القرن الماضي اهتمام كبير بمسألة ما يسمى بمحاسبة تكاليف المعضلية. وصدر العديد من الدراسات والأبحاث بهذا الخصوص، شملت كلا من: محاسبة العنصر البشري في الإنتاج، محاسبة وقاية الطبيعة، محاسبة الرقابة النوعية[1]. اي بمعنى آخر إستحداث وظيفة إضافية لمحاسبة التكاليف، تحت، المسؤولية الإجتماعية للمحاسبة. كان الهدف من ذلك هو الربط بين الأهداف الاقتصادية النقدية للوحدة الاقتصادية ومردودها الإجتماعي، الذي أصبح يمثل عنصر التمييز والتغيير في ظل الاقتصاد المعرفي والتكنولوجيا المعلوماتية المتطورة وانفتاح السوق، التي تتطلب عمالة بشرية على مستوى عال من المهارة والتعليم والخبرة والتخصص. وبذلك أصبحت الوحدات الاقتصادية أمام مسؤولية المساهمة وإلاهتمام بالعنصر البشري وتطويره وتنميته، والحفاظ على البيئة وإدامتها وحمايتها من التلوث، والرقابة على نوعية وجودة الإنتاج لحماية المستهلك وتقديم أفضل الخدمات إليه، وفي تحسن القرارات الإدارية في هذه الوحدات.

نحاول في هذه الورقة أن نركز بشكل خاص على محاسبة العنصر البشري في وحدات إدارة الأعمال؛ فقد برزت آراء ووجهات نظر مختلفة حول المعالجة المحاسبية للموارد البشرية. وهنا نتناول الموضوع من منظور، عليه اجماع كبير في أواسط

المحاسبين والجمعيات المحاسبية المهنية والباحثين في النظام المحاسبي، والذي يعتبر هذه الموارد أصلا من أصول الوحدة الاقتصادية، وكنشاط إستثماري يدرّ بعائد عليها، يمكن قياسه بالوحدة النقدية، والرقابة عليها، وإنتاج البيانات والمعلومات عنها والتي تساعد الوحدة الاقتصادية على اتخاذ قرارات إدارية سليمة، والجهات المتعاملة معها في تحسين قراراتها تجاهها.

وانطلاقا من المفهوم الذي يعتبر أن العنصر البشري يعد عاملا مهما وأساسيا في العملية الإنتاجية، من خلال المساهمة في الأهداف وتقديم الخدمات الحالية والمستقبلية، ورفع الإنتاجية الذي يعتمد على العنصر البشري بدرجة أولى. ولتحقيق الميزة التنافسية للوحدة الاقتصادية، فقد ازدادت الحاجة الى الاهتمام بالموارد البشرية واعتبارها تكلفة رأسمالية يمتد مردودها الاقتصادي والاجتماعي لعدة سنوات، وبذلك تعامل محاسبيا كأصل من أصول الوحدة الاقتصادية. ومن هنا أصبحت الحاجة ملحة لتطوير المبادئ العلمية والنظم المحاسبية لمعالجة أسس الاستثمار في هذا المجال، وهو ما يعرف بمحاسبة تكاليف الموارد البشرية.

نحاول تسليط الضوء على الموضوع، باتباع أسلوب وصفي وتحليلي للموارد البشرية، ضمن المحاور الآتية:

1. المفهوم المحاسبي لطبيعة الموارد البشرية كأصل من أصول الوحدة الاقتصادية.
2. الاصل البشري ومعالجته المحاسبية في التطبيق العملي، وفق معايير المحاسبة الدولية.
3. أهمية محاسبة الموارد البشرية ومردودها الاجتماعي.

أولا : المفهوم المحاسبي لطبيعة الموارد البشرية كأصل من أصول الوحدة الاقتصادية.

في ظل العولمة والانفتاح على السوق والتطور التكنولوجي وخاصة المعلوماتية منه، أصبحت هناك حاجة الى الاهتمام بالموارد البشرية وأهميتها كأصل من أصول الوحدة الاقتصادية، وذلك لإيجاد طرق جديدة لتحقيق اهدافها وتحسين ادائها وتوفر لها مكانة تنافسية.

تعتبر تكاليف الموارد البشرية نفقات رأسمالية وليست نفقات جارية يحمّل بها عادة حساب الأرباح والخسائر دفعة واحدة، عند حدوثها خلال السنة المالية للوحدة الاقتصادية. وعليه لا بد من تعريف المفهوم المحاسبي لهذه الموارد، ليتسنى لنا قياسها والرقابة عليها وإنتاج المعلومات الخاصة بها والتي تساعد الوحدة الاقتصادية على اتخاذ القرارات الملائمة لأنشطتها الإنتاجية والمالية والإنسانية.

لقد ظهرت مفاهيم وتعريفات عديدة لمحاسبة الموارد البشرية، فعلى سبيل المثال عرفها (Eric Flamholtz)، بانها المحاسبة عن الافراد كموارد تتضمن التكاليف المحققة من قبل الوحدة الاقتصادية في استقطاب واختيار واستخدام وتدريب وتطوير الاصول البشرية، وتشمل ايضا قياس القيمة الاقتصادية للعاملين فيها[2]. وعرفت جمعية المحاسبين الامريكيين (AAA) محاسبة الموارد البشرية بأنها، عملية تحديد وقياس الموارد البشرية، وتوصيل المعلومات الخاصة بها الى متخذي القرارات[3]. كما عرفها (Matzy& Usry)، بأنها عملية تطوير تقييمات مالية للأفراد والجماعات في

الوحدة الاقتصادية والمجتمع، ومراقبة هذه التقييمات عبر الزمن[4].

تتركز هذه التعاريف وغيرها في الجوهر، على تحديد قياس التكلفة والرقابة على عناصرها وإنتاج البيانات والمعلومات، وتحديد أسلوب معالجة الموارد البشرية وتقييم قيمتها الاقتصادية بالنسبة للأفراد والوحدة الاقتصادية والمجتمع، وتقديم هذه المعلومات الى الجهات المعنية للاستفادة منها في عملية اتخاذ القرارات.

ولتحقيق هذه الوظائف لا بد من وجود نظام محاسبي شامل يتم من خلاله تزويد المعلومات عن الموارد البشرية والإفصاح عنها بشفافية ومصداقية عاليتين، باعتبارها تكلفة اقتصادية تتحملها الوحدة الاقتصادية مقابل عائد تحصل عليها مستقبلا. وترجمة ذلك في صورة نقدية وإظهارها ضمن التقارير والقوائم المالية للوحدة الاقتصادية، بهدف تحقيق نوع من التخطيط السليم لأعباء القوى العاملة المتوقعة، الذي يساهم في تطوير العاملين، عن طريق إتباع فهم جديد لتصميم وتنظيم العمل، وإيجاد أفضل الطرق للاستفادة من الاستثمارات في الاصول البشرية، وقياس العائد من استخدام هذه الاصول، باعتبار ان العنصر البشري يمثل موردا هاما من موارد الوحدة الاقتصادية[5].

ولأجل إظهار كلفة الموارد البشرية في القوائم المالية، يتطلب ذلك تطبيق المبادئ، كالآتي:

- إظهار التكلفة، كأصل ضمن الاصول، نفقات إيرادات مؤجلة.
- إطفاء التكلفة، وفق الطرق المعروفة في النظام المحاسبي، لأصول الوحدة الاقتصادية، على اساس العمر الإنتاجي لكل منتسب، وتنظيم حسابات شخصية لكل منهم لهذا الغرض.
- التفرقة بين المصروفات الإيرادية والمصروفات الرأسمالية.
- متابعة دورية للحسابات الشخصية لتحديد عدد تاركي العمل.
- وجود خطة تدريبية مستمرة سنويا للعاملين.

ثانيا الأصل البشري ومعالجته المحاسبية في التطبيق العملي، وفق معايير المحاسبة الدولية.

وفق معيار(38) من معايير المحاسبة الدولية، فإن الاصل الثابت يتضمن الأركان التالية: [6]

- يستخدم لأكثر من فترة مالية.
- يحدد بعمر إنتاجي معين.
- له خاصية ملكية لاستخدامه في العملية الإنتاجية او الخدمية أو للأغراض الإدارية للوحدة الاقتصادية.

إن تحديد وقياس تكاليف الموارد البشرية والرقابة عليها وإنتاج البيانات والمعلومات الخاصة بها ومعالجتها محاسبيا باعتبارها أصلا من اصول الوحدة الاقتصادية، والتعبير عنها بشكل نقدي وحقوق محددة للمنافع والخدمات التي تحصل عليها مستقبلا، وتكون مملوكة للشخص أو الوحدة الاقتصادية، فإنها لا بد أن تخضع لطريقة الإطفاء خلال فترة زمنية معينة تحدد بمدة عقد العمل. وتظهر في الميزانية العمومية للوحدة الاقتصادية، كأصل غير ملموس، مطروحا منه قسط الإطفاء (الاهتلاك) سنويا، الذي يعتبر عبئا ماليا يتحمل به حساب الارباح والخسائر للسنة المالية.

ويمكن قياس تكلفة الأصل من خلال تبويبها الى عناصرها:
- كلفة الحصول على العاملين، فمثلا (الإعلان عن الوظيفة، وأتعاب هيئة التوظيف، ونفقات السفر، وتكاليف المقابلات والاختبارات والتعيين)، وغيرها؛
- وكلفة التأهيل والتعليم، فمثلا (تكاليف التدريب، والتطوير، والدورات التأهيلية، الدراسة والبعثات، والمشاركة في المؤتمرات وكتابة الأبحاث)، وغيرها؛
- وكذلك تكلفة ترك الوظيفة، فمثلا (صرف المكافآت والتعويضات والاستحقاقات)، وغيرها.

لذا فإن قيمة المورد البشري يتضمن كل التكاليف المذكورة والمرتبطة بالمدة الإنتاجية للعنصر البشري التي يمثلها العقد المبرم للعنصر البشري في الوحدة الاقتصادية.

بالمقابل، يجب إظهار عناصر تكاليف الموارد البشرية المذكورة في اعلاه بتفاصيلها بشكل تحليلي في حساب تكوين الأصل الثابت (الموارد البشرية) على أساس القيمة الحالية للخدمات المستقبلية التي يمكن الحصول عليها من العامل. ويحسب وفق راتبه السنوي الذي يساوي القيمة الفعلية للخدمات التي يقدمها للوحدة الاقتصادية، معتمدا على استخدام معدل خصم وعمر العامل عند التحاقه بالعمل، وعدد السنوات المتوقعة للعمل في الوحدة الاقتصادية حتى سن التقاعد. وبذلك تقدم محاسبة الموارد البشرية المقاييس المالية لقيمة الموارد البشرية بصورة شفافة وصادقة وعادلة.

نحاول وباختصار شديد (من دون الدخول في التفاصيل)، تطبيق نموذج محاسبة الموارد البشرية عمليا في الوحدة الاقتصادية، على ضوء المبادئ المتعارف عليها في النظام المحاسبي ووفق معايير المحاسبة الدولية رقم (38)، الذي يستند على الفكر المحاسبي لقياس القيمة الاقتصادية لرأس المال البشري، ما يساهم في تسهيل المعالجة المحاسبة له، والاعتراف به كأصل من أصول الوحدة الاقتصادية، الذي يقدم منافع اقتصادية مستقبلية للوحدة، وإمكانية قياس تكلفته وإظهاره ايضا في جانب أصول الوحدة. وهذا يتطلب الإجراءات التالية:

1. فصل التكاليف الرأسمالية عن النفقات الجارية، وتجميعها ضمن العمليات الرأسمالية، تحت عنوان (الموارد البشرية).
2. إعداد الحسابات الشخصية للعاملين لهذا الغرض، تسجل فيها عناصر التكاليف بتفاصيلها.
3. يمكن تجميع وتصنيف التكاليف المشار إليها سابقا، تحت حسابات إجمالية، وهي: تكاليف الاقتناء، وتكاليف التاهيل والتعليم، وتكاليف ترك العمل وبتفاصيلها [7].
4. تحمّل هذه التكاليف على مركز مراقبة العمليات الرأسمالية تحت عنوان (الموارد البشرية).
5. ولقياس هذه التكلفة، هناك طرق ووجهات نظر مختلفة بذلك، منها:

- التكاليف الكلية التاريخية، وتشمل كل التكاليف المشار اليها سابقا في اعلاه [8]
- تكلفة الإحلال، وهي التضحية التي تتحملها الوحدة الاقتصادية اليوم لإحلال موارد بشرية بدلا من الموجود الآن. وهي تشمل: تكلفة الإحلال الوظيفي، اي إحلال شخص محل وظيفة معينة، يشغلها شخص آخر والقادر على القيام بنفس المهام والخدمات التي تخص تلك الوظيفة. وتكلفة الإحلال

الشخصي، اي إحلال شخص محل شخص آخر، يكون قادرا على تقديم المهام والخدمات التي يؤديها الشخص الحالي، وتشكل تكلفة إحلال الفرد أو التنظيم البشري كله[9] .

• العوائد المستقبلية، يتم تقييم الأصول البشرية على أساس التوصل الى القيمة الحالية للمرتبات والأجور التي يتقاضاها العامل في المستقبل حتى نهاية العمر الإنتاجي للوحدة، ويتم الوصول الى حساب القيمة الإجمالية للأصل البشري من واقع متوسط الرواتب لمجموعة متماثلة من العاملين. ويعاب على هذه الطريقة بأنها تأخذ بنظر الإعتبار فقط عنصرا واحدا من عناصر التكاليف للوصول الى قيمة الموارد البشرية، وإهمال العوامل الاخرى، كسن وكفاءة وخبرة العامل.

• تكلفة الفرصة البديلة، وهي قيمة الاصل عندما يكون في استخدام بديل يختلف عن الاستخدام الحالي. وتصنف هذه الطريقة العاملين الى فئتين، المهرة والعاديين. الاولى وهي نادرة ويتم تقويمها باعتبارها أصلا بشريا يمكن إستخدامه في أكثر من نشاط، اي عدة بدائل لمعرفة قيمتهم في أفضل استخدام. والثانية يسهل إحلالهم بآخرين، ويتم تقسيمهم على أسس نفقات الاستدعاء. [10]

• التكلفة الاقتصادية، وبموجبها يتم تقييم الاصل البشري وفقا لمعدل العائد الممكن الحصول عليه من استخدامه، اي تحديد قيمة الشخص في الوحدة الاقتصادية بما يساوي القيمة الحالية للأرباح المستقبلية، ويعتمد على مدى مساهمة الفرد في تحقيق أهداف الوحدة الاقتصادية.

6. تجمع كل التكاليف التي تنفق على الاصل البشري وتسجل في الدفاتر المحاسبية بشكل منفرد وتحليلي وفي الدفاتر الفرعية لكل عامل.

7. إظهار هذه التكاليف في القوائم المالية (حساب تكوين الاصل، قائمة المركز المالي).

على ضوء ما ورد في أعلاه، نتبع اسس المعالجة المحاسبية للموارد البشرية، كالتالي:

• تسجيل القيد الخاص بعناصر التكاليف في الدفاتر المحاسبية: (من ح/مفردات تكلفة الإقتناء، ح/تكلفة التاهيل والتعليم، ح/تكلفة ترك الخدمة الى ح/ النقد، البنك)، دفع التكاليف إما نقدا أو عن طريق البنك.

• تحميل حساب الاصل: (من ح/ الموارد البشرية الي ح/ تكلفة الاقتناء، تكلفة التاهيل والتعليم، تكلفة ترك الخدمة)، غلق هذه التكاليف بتفاصيلها في حساب تكوين أصل المورد البشري.

• في نهاية السنة المالية يظهر حساب الموارد البشرية بكلفتها الكلية والتاريخية ضمن أصول الوحدة الاقتصادية في كشف المركز المالي لها كأصل غير ملموس، مطروحا منه قسط الإطفاء السنوي.

-8 هناك طرق لاحتساب الإستهلاك السنوي على أساس: القسط الثابت اي الخطي أو القسط المتناقص، ونفضل في هذه الحالة تطبيق القسط الثابت اي بنسبة ثابتة، خلال العمر الإنتاجي للاصل، لكون هذا الإستثمار طويل الاجل، وكالاتي.

• يسجل كل سنة: من ح/ إطفاء الموارد البشرية، الى ح/ الموارد البشرية. يقفل ح/ إطفاء الموارد البشرية في حساب الأرباح والخسائر، ويظهر الحساب المقابل في جهة الاصول بصافي قيمة الاصل، اي مطروحا منه قسط الإطفاء (الإهتلاك)، ويحسب قسط الاطفاء السنوي وفق المعادلة الخطية التالية:

قسط الإطفاء السنوي = تكلفة الأصل البشري مقسوم على العمر الإنتاجي للأصل البشري.
ووفق طريقة القسط الثابت فان القيمة الدفترية لاصل الموارد البشرية تصبح صفرا في نهاية فترة العقد، إذا لم تحدث التعديلات على هذه القيمة خلال تلك الفترة.

• ففي حالة ترك الشخص الوظيفة لأسباب: النقل او البيع أو الوفاة، ستتم التسوية بقيمة أصل الموارد البشرية لكل حالة على حدة، وكالاتي:

ـ عند الحصول على الربح او الخسارة من النقل او البيع، يكون القيد: من ح/ النقد أو البنك الى ح/الموارد البشرية وح/ الربح عن الموارد البشرية.

ـ عند حصول الخسارة يكون القيد: من ح/ النقد أو البنك وح/خسارة الموارد البشرية الى ح/ الموارد البشرية.

ـ عند الوفاة: من ح/ إطفاء الموارد البشرية الى ح/ الموارد البشرية.

8. توجد طرق عدة لتقييم الموارد البشرية، ويعتمد على طريقة توزيع الاصل البشري على فترات زمنية باستخدام معدل مناسب. وللوصول الى قيمة التخفيض في الموارد البشرية، يفضل التفرقة بين تكلفة الإقتناء وتكلفة التاهيل والتعليم، وكالاتي:

• إطفاء تكلفة الاقتناء، يعتمد على فترة بقاء الفرد في العمل لحين إحالته على التقاعد، مطروحا منه عمر الفرد وقت التحاقه بالعمل في الوحدة الاقتصادية، وفق المعادلة في ادناه.

قسط الإطفاء السنوي (Ta) = (r + 1) C مقسوم على الفترة الزمنية لخدمة الشخص (N).

Ta : قسط الإطفاء السنوي

C : تكلفة اقتناء العاملين

r : المعدل المستخدم خلال الفترة

N : الفترة الزمنية المتوقعة لخدمة الشخص

• إطفاء تكاليف التأهيل والتعليم، يتوقف على مدة الاستفادة المتوقعة من برامج التأهيل والتعليم، وعادة ما تكون أقل من الفترة المتوقعة لبقاء الشخص في الخدمة، وتحسب وفق المعادلة الخطية الاتية:

إطفاء العنصر البشري (Ta) = تكلفة الأصل البشري (Cd (1 +r مقسوم على العمر الإنتاجي للأصل البشري، محدد في مدة العقد (SN).

Ta: إطفاء العنصر البشري

Cd: تكلفة الاصل البشري

r : المعدل المستخدم خلال الفترة

S N: العمر الإنتاجي للاصل البشري، محدد في مدة العقد، وهو: حاصل ضرب (الفترة الزمنية المتوقعة للمهارات المعينة يقدمها الفرد للوحدة الاقتصادية (N) مضروبا في (S) التي اكتسبها من برنامج التدريب وتنمية الافراد.

8. بغية ممارسة رقابة فعالة على عناصر تكاليف الموارد البشرية، لا بد من جود نظام محاسبي للتكاليف، يعتمد على التخطيط للموارد البشرية ضمن موازنتها التخطيطية، وبوجود نظام فعال لمحاسبة المسؤولية، تستند على الادوات، كالآتي: [11]

• نظام للتكاليف المحددة مقدما و/أو المعيارية، ليكون مقياسا تقاس عليه هذه التكاليف.
• تنظيم إداري يحدد المسؤوليات والسلطات.
• نظام مدروس للحوافز.
• نظام للتقارير بين مختلف المستويات الإدارية.
• تصميم نظام مستندي خاص بعناصر هذه التكاليف، يساعد على الرقابة عليها من المنبع.
• الفصل بين النفقات الرأسمالية والنفقات الإيرادية.

9. ضرورة وجود مجموعة من التقارير تنتجها محاسبة الموارد البشرية، وتقوم الوحدة الاقتصادية بإعدادها وتقديمها الى الجهات الإشرافية والرقابية المختلفة، وتعتمد على الأركان التالية:

• معلومات تفيد في اتخاذ القرارات الداخلية، وتكون عادة دورية.
• معلومات تفيد جهات خارجية مختلفة، كالبنوك والمؤسسات المالية والائتمانية والمستثمرين، وأصحاب العلاقة بالوحدة الاقتصادية.
• إتباع قواعد وسياسات محاسبية واستخدام المعرفة المهنية للمعايير المحاسبية الدولية، والاعتماد على الجودة بدلا من الكمية.
• اعتماد مبدأ الشفافية في عملية إعداد القوائم المالية الخاصة بالموارد البشرية، وتكون قابلة للفهم، مع الأخذ بنظر الاعتبار الخصائص النوعية للمعلومات المحاسبية عند إعدادها.
• يمكن الاستفادة من الوسائل الالكترونية في إعداد هذه التقارير، وإذا أحسن تصميم أنظمتها، وتوجه في قناة الاتصال المناسب، وتحديد خطوط تسييرها بوضوح، فسوف يؤدي هذا الى تكامل عملية المراقبة وتكامل ايضا في المعلومات.

ثالثا: أهمية محاسبة الموارد البشرية ومردودها الاجتماعي

نحن اليوم في عصر الاقتصاد المعرفي، وما يفرضه من تحديات جديدة على الوحدة الاقتصادية، من أجل المواصلة والبقاء والتفوق في السوق، ومواكبة المتغيرات المتسارعة في محيطها، وإكتشاف طرق جديدة ومفضلة للمنافسة والجودة. وذلك عن طريق مواردها البشرية لامتلاكها المعارف والمهارات والقدرة على التطوير واستغلالها تفعيل الموارد الاخرى (المالية، المادية، والتكنلوجيا الحديثة...الخ). ولأهمية ومزايا تطبيق محاسبة الموارد البشرية، يمكن أن ننظر إليها من زاوية الوحدة الاقتصادية، والأفراد العاملين، والمستثمرين. [12]

1. الوحدة الاقتصادية:

• تستفيد الوحدة الاقتصادية من خلال إنتاج المعلومات عن الموارد البشرية في تحسين: قرارات التوظيف، وتحديد مستوى الرواتب، وتحقيق الكفاءة والإنتاجية للعاملين، والدقة

في اتخاذ القرار عند إنهاء خدمات الأفراد وفق عملية تقييم الفرد العامل، وذلك ارتباطا بأن الموارد البشرية هي أصول لها قيمة مستقبلية.

• زيادة إنتاجية الفرد العامل من خلال تقييم المهارات والقدرات والتصاق العاملين بالإدارة، وتطبيق مبدأ الحوافز المادية والمعنوية، ورفع الروح المعنوية والمبادرة والتطور لديهم.

• بما أن قيمة المؤسسة من الناحية المحاسبية تمثل مجموع قيم الاصول التي تمتلكها الوحدة الاقتصادية، بما فيها أصل الموارد البشرية، مطروحا منها مطلوبات الوحدة الاقتصادية، لذا من الضروري أن تتضمن القوائم المالية تفاصيل شفافة وصادقة ودقيقة عن الاستثمارات في الموارد البشرية منفصلة عن المصروفات العامة. وذلك لان المستثمرين يحتاجون الى مثل هذه المعلومات لعملية اتخاذ قراراتهم.

• تحسين تنافسية الوحدة الاقتصادية وقراراتها الإدارية.

• الحصول على تسهيلات أكثر من المؤسسات الائتمانية والبنوك لمنحها قروضا طويلة الاجل بفوائد مناسبة، بضمان الأصول بما فيها أصل المورد البشري.

• وجود هذه الموارد والإفصاح عنها بالشفافية والمصداقية، يساعد على تحسين قرارات المستثمرين ورؤيتهم وانطباعهم لقيمة الوحدة الاقتصادية.

• تساعد محاسبة الموارد البشرية على مشاركة الوحدة الاقتصادية في المسؤولية الاجتماعية، وذلك عن طريق وضع أهداف لتنمية الموارد البشرية الى جانب الأهداف الإنتاجية.

2. بالنسبة للعاملين:

• تؤثر محاسبة الموارد على سلوكية العنصر البشري، والشعور بأنهم جزء مهم من الوحدة الاقتصادية. وينعكس ذلك على مزيد من الولاء والإخلاص في العمل.

• الاهتمام بالعاملين من حيث التأهيل ورفع قدراتهم في التكنولوجيا الحديثة، وخاصة المعلوماتية منها، ما يساعدهم على البقاء والاستمرارية في العمل.

• يساعد على تحسين المرتبات والترقيات الوظيفية للعاملين.

• حصولهم على المؤهلات والمعرفة والخبرة، يؤهلهم الى حسن التنظيم والتطور ورفع الإنتاجية في العمل.

3. بالنسبة للمستثمرين والممولين:

• وجود معلومات شفافة وصادقة وصحيحة في التقارير المالية (حساب تكوين الاصل وحساب النتيجة، وكشف المركز المالي) للموارد البشرية، يساعد في إجراء التحليلات المالية الخاصة بها، لما لها من أثر على تحسين القرارات للتعامل مع الوحدة الاقتصادية.

• إجراء المقارنات بين الوحدات الاقتصادية المتنافسة على أساس سليم.

• مساعدة الجهات الحكومية في قياس الاداء الاجتماعي للمؤسسة واتخاذ القرارات المتعلقة بتخطيط وتنمية الموارد البشرية على المستوى القومي.

• رغبة المستخدمين الخارجيين للكشوفات المالية لمعرفة درجة رضا ومعنويات العاملين، والحصول على الصورة الحقيقية للوحدة الاقتصادية، واتخاذ القرارات الصائبة والصحيحة والمناسبة تجاهها.

ختاما، نقول، إن العنصر البشري يعتبر عاملا مهما من عوامل الإنتاج، وبذلك يتزايد اهتمام وحدات إدارة الأعمال في إنفاق أموال كبيرة في هذا المجال، من أجل تطوير وتدريب وتأهيل العاملين، باعتبار ذلك نوعا من الاستثمار والتعامل معه كأصل من أصول الوحدة. وهذه الرؤية تتطلب وجود نظام لمحاسبة الموارد البشرية كوحدة إدارية ضمن وحدات المحاسبية في الوحدة الاقتصادية، يستطيع تحديد وقياس هذه الموارد والرقابة عليها وإنتاج معلومات تفصيلية عنها بغية إتخاذ قرارات إدارية سليمة والاستفادة منها في تطوير خدمات العاملين، وتحقيق أهداف الوحدة، وفي نفس الوقت يتحقق ايضا مردودا اجتماعيا للمجتمع بصورة عامة. وبالرغم من أهمية محاسبة الموارد البشرية، إلا أن تطبيقها ما زال محدودا. وتكون غالبا في خدمة القرارات الإدارية للوحدة الاقتصادية.

ان هناك ضرورة لإظهار معلومات كافية وشفافة عن العاملين، وبشكل دوري في التقارير، وأن تتضمن بيانات عن دوران العاملين وأعدادهم واختصاصاتهم وخبراتهم، كذلك الإفصاح عن تكاليف التأهيل والتدريب والتعليم في تبويبات خاصة ملحقة بالقوائم المالية (حساب النتيجة وكشف الميزانية العمومية)، مما له أثر في تقييم الوحدة الاقتصادية.

المصادر:

1 - قدوري، صباح، تحديث محاسبة التكاليف في القطاع الصناعي الحكومي ـ العراق، أطروحة دكتوراه غير منشورة،

2 - جامعةŹódź ، بولندا 1985 (باللغة البولندية)، الفصل الرابع، ص 171 - 180.

Kumar, Depak, 2002, Human Resource planning, Excel Book, N.Delhi, PP. 326-34Porwal L.S., 1993, Accounting Theory, Tata Mc Graw Hil

3 - publishing co., N. Delhi, PP. 342-361.

وموسى، أحمد، دراسات في المحاسبة الإجتماعية، دار النهضة العربية، مصر، 1979، ص 314.

4 - Matz,Usry, 1980, Cost Accounting – planning and Control, South- Western publishing co., USA, PP. 421-423.

5 - عبد الوهاب،علي محمد، وعامر، سعيد ياسين، محاسبة الموارد البشرية،عرض وتحليل، دار المريخ للنشر، الرياض، 1984، ص19.

6 - مجلة المحاسب الفلسطيني، العدد الرابع. جمعية المحاسبين والمراجعين،غزة، 1994، ص 49.

7- Wasiel. J. Rachunkowość zasobów Ludzkich. ZeszytyTeoretyczne Rady Naukowej S. 23 - K.wp. , tom.V11, 1984r. s. 45 (باللغة البولندية).

8- عبد الرحيم الهادي، خالد، إدارة الموارد البشرية، مدخل استراتيجي، دار وائل للنشر والتوزيع ـ الاردن، 2010، ص 320 .

9- عبد الحميد، ممدوح، المحاسبة الإدارية والتكاليف، دار الحريري، مصر، 2005، ص199، 200.

10- جمعة، كمال حسين، منهج جديد لقياس قيمة خدمات المورد البشرى، عن الموقع:
www =52794 .iasjzfunc =ald et fulltext ص11، على النيت.

11- قدوري، صباح، نظام محاسبة التكاليف ووظائف الإدارة في وحدات إدارة الإعمال، ورقة بحثية منشورة على موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2015، ص13.

12- فلامهولتز، أريك، المحاسبة عن الموارد البشرية، ترجمة محمد عصام الدين زايد، دار المريخ للنشر، الرياض 1992.

هل تشكل ثورة تقنية المعلومات بديلاً للثورات الاجتماعية؟

طالب عبد الأمير

طالب عبد الأمير باحث وإعلامي، ماجستير في الاعلام والاتصالات وبكالوريوس هندسة. له العديد من المقالات والأبحاث في مجلات وصحف عراقية وعربية. كما له محاضرات في الإعلام والاتصالات والعلاقة بين العلم والفن، وغيرها، وعدد من الاصدارات منها، "ظلال على شواطئ المنفى" (2016)، "نوبل ومثالية الأدب" (2017)، و"عبد الغني الخليلي، سحر الكلمة وعشق الصداقات" (2018). ترجم عدداً من قصص الأطفال، كما عمل صحفياً بإذاعة يوغسلافيا، ومحرراً ومنتجاً للبرنامج العربي في الإذاعة السويدية. عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، والإتحاد العام للصحفيين في السويد.

هذا السؤال يبدو استفزازياً، بطبيعة الحال، في شكله ومضمونه، لكن دلالاته عميقة في سياق البحث في تطور تقنية المعلومات وتداعياته، التي أشار اليها الباحث الكندي (مارشال ماكلوهان)، صاحب فرضية The global village "القرية العالمية"، قبل عقود، حين قال "إن تبديل وسائل الاتصال هو وحده الذي يخلق حركة التاريخ العملية، فلا داع إذاً للثورات العالمية". هل نتفق معه ام نخالفه الرأي؟

دون أدنى شك فأن العصر الذي نعيشه اليوم يشهد ثورة تقنية معلوماتية - اجتماعية شاملة. وبالرغم من أن هذا التحول الهائل في تقنية المعلومات والإتصالات، حدث على مراحل طويلة، خلال سيرورة النمو التاريخي للحياة البشرية، إلا أن ما نشهده اليوم يتجاوز كل ما مرّ في السابق، فيما يتعلق بسرعة هذا النمو ومديات عبوره الأطر العلمية والمؤسساتية الاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها، وتأثير هذا التطور على أشكال ومضامين البحث عن المعلومة وتوصيلها للمتلقي بوقت أقل ما يقال عنه قياسي. وهذا يشمل كل فروع ومجالات الحياة، وطبعاً حقلها الأساسي، الإعلام.

في هذا السياق فان ثورة تقنية المعلومات ووسائل الاتصال قادت الى تطورات اجتماعية كبيرة، وأعادت بناء مفاهيم في ميادين متعددة من المعارف العلمية والنظرية والتطبيقية. كما أثّرت في عملية تنظيم الإنتاج، على سبيل المثال، في ميادين الحياة الأكثر حساسية، كالطاقة وانتاج الخامات غير الطبيعية، وفي الصناعة والزراعة والبيولوجيا، ذات التأثيرات العضوية للإنسان، وبالتأكيد لا ننسى تأثيراتها على

مجالات النشاط الاقتصادي والتكوين الاجتماعي، وفي التواصل بين فئات المجتمع، صاحبة التغيير، حيث تكاد شبكة الاتصالات أن تكون صنواً للمعلوماتية في تطورها وتأثيراتها على الحياة الاجتماعية والسياسية، وعلى الثقافة والفنون والآداب وغيرها.

مما تقدم أعلاه قد يكون (مارشال ماكلوهان) محقاً في، جانب من، قراءته لدور ثورة المعلومات ووسائل التواصل في تغيير انماط الحياة، إلا أن كثيرين لا يشاطرونه فكرته من ان تطور التكنولوجيا يحكم المجتمع. كما يرى الاقتصادي المصري الرحل سمير أمين، مثلاً، الذي يعتبر هذه النظرة "أحادية، بل وساذجة" حتى. فثمة ضرورة الى ان يؤخذ بعين الاعتبار بأن السلطات الحاكمة قد تستفيد من عملية التطور التقني، لتثبيت سلطتها "وتفرض على التكنولوجيا التكيف للشروط الاجتماعية السائدة". "وبالتالي يصير النضال الاجتماعي من أجل السيطرة على الجديد وتوجيه اشكال استخدامه، بمثابة القوة المسببة للتطور بدلاً من أن يكون تقدم التكنولوجيا هو السبب المباشر للتغيير". بمعنى آخر، فأن الصراع، بأشكاله المختلفة هو الذي يحدد مسيرة التاريخ، وليس التقدم التكنولوجي.

ان استخدام التكنولوجيا في النزاعات السياسية، منح وسائلها الاتصالية أبعاداً اخرى. فثورات التحرر المسلحة، باتت تستند الى جانب قوة السلاح، على أدوات المعلوماتية والاعلام في تحقيق اهدافها، في استلام الحكم. وكان الإسناد الرئيسي لتلك الثورات "العسكرية" مبنياً على أيديولوجيات، لعبت دوراً في تغييب دور الجماهير، بعد نجاح الثورة، من خلال تركيز السلطة بيد الاحزاب السياسية التي ادعت تمثيل الجماهير. ومن خلال امتلاكها وسائل التكنولوجيا وأدوات المعلوماتية، استطاعت الى حد ما السيطرة على مجتمعاتها.

غير أن التطورات المتواصلة لتقنية المعلومات ووسائل الاتصال الجماهيري أضعفت قدرة السلطات على ضبط المجتمع، فلجأت في بعض البلدان الى محاولة ابعاد الشعب عن استخدام التقنية وعزلها عن التواصل مع العالم. كما حدث في الصين وإيران وغيرهما.

يشير تحليل لأسباب فشل انتفاضة آذار 1991 في العراق، الى أنه يعود، من بين أمور أخرى بطبيعة الحال، الى عدم امتلاك الناس لوسائل تقنية المعلومات والإتصالات، فلم تكن هناك هواتف نقالة، ولا انترنيت ولا فضائيات، بينما استطاع جيل الشباب خلال السنوات الاخيرة من استغلال هذه التقنيات، في التحشيد للتظاهرات والإعتصامات والقيام بثورة، ذلك بعد ان دخلت او تسللت وسائل التقنية الحديثة المتطورة الى مفاصل الحياة الاجتماعية وبرزت وسائل التواصل الاجتماعي التي اصبحت بمثابة فضاءات مفتوحة ليس لها حدود، ولم تستطع الحكومات السيطرة عليها. ولدينا أدلة على ذلك، سنأتي عليها ونحن نتحدث عن تأثيرات ثورة المعلومات على العمل الاعلامي والعاملين في هذا الميدان الذي بات دوره أكثر أهمية وتعقيداً.

ولكن، قبل الولوج في هذا الخِضم، أرى ضرورة المرور ولو بإيجاز على مراحل تطور هذه الثورة، التي تنبأ بها الانتروبولوجي الكندي (مارشال ماكلوهان)

في بداية ستينات القرن الماضي، حين طرح نظريته حول "القرية العالمية" وذلك قبل ولادة الإنترنيت، مستوحيا فكرته من تكنولوجيا التلفزيون، فدرس طبيعة هذه التكنولوجيا ودورها في المجتمع، باعتبارها امتداداً للعقل البشري ووظائفها امتداد لجسم الانسان الذي يستخدم في تواصله وتبادله المعلومات وسائل، لم ينحصر دورها في نقل المعلومات والرسائل، بل هي بحد ذاتها رسائل إعلامية، دالة على العصر الذي تظهر وتتفاعل فيه، وهذا التطور هو الذي قاد الى السؤال الاستفزازي المطروح في بداية هذا المبحث، ألا وهو: هل تشكل ثورة المعلومات بديلاً للثورات الاجتماعية؟

مراحل التطور

هناك تقسيمات مختلفة لمراحل تطور تقنية المعلومات والاتصالات، ولكني احاول في هذا المبحث تلخيصها في عدد من النقاط، متجاوزاً ما عرف بمرحلة طفولة البشرية، وهي الفترة التي عاش بها الانسان مرحلة المجتمعات القبلية. بدأها بالإشارات ومن ثم المرحلة الشفاهية التي كانت فيها وسيلة الاتصال الرئيسية الكلمة المنطوقة، وقد كان لحاسة السمع دور رئيسي في عملية التواصل بين الناس. واعتبر أن مرحلة التطور الاولى:

• بدأت مع ظهور الكتابة، في وادي الرافدين بحدود 3200 قبل الميلاد، ويدخل في هذا المجال لاحقاً اكتشاف الوسائل، كورق البردي، على سبيل المثال.

في هذه المرحلة ظهرت الكتابة المنسوخة. ومهنة الورّاقة، وحفظ المخطوطات باستخدام وسائط مختلفة. (الكتابة مرت بعدة مراحل مختلفة: الصورية، الرمزية، الصوتية - المقطعية، الهجائية - الأبجدية)، وقد جرى الاعتماد في استخدام هذه الوسيلة على حاسة البصر، ولكن أيضاً على حاسة السمع. وقد تميزت هذه المرحلة أيضاً بفنون الحرف والزخرفة وغيرها.

• المرحلة الثانية من التطور: وسّمها ظهور الطباعة، التي تعود جذورها الى العام 1040 حيث قام حداد صيني أسمه "بي شينغ" بصناعة حروف متحركة، بدأها بالطين ثم صنعها من الخشب وبعد ذلك من المعدن. ولكن الطباعة شهدت انطلاقتها في العام 1445 على يد الالماني يوهان غوتنبرغ، وقد شكلت بداية عصر النشر الجماهيري، حيث طُبعت الكتب والصحف والمجلات وبدأ معها تكوين الوعي الاجتماعي والسياسي والحراك الذي ولّد نهضة ديمقراطية جاءت كنتيجة لكسر احتكار المعلومة على يد نخبة تمسك بزمام الحكم والامور. بعدها توالت الاكتشافات في وسائل الاتصال الميكانيكية والكهربية والتكنولوجية، حيث اكتشفت:

• الموجات الكهرومغناطيسية 1824، التلغراف 1937، وقد تم مد خطوطه عبر اوروبا وامريكا.

• التلفون 1876، الفوتوغراف 1877، السينما الصامتة 1895 و* الناطقة 1928.

• اللاسلكي والراديو 1896 (استخدم على نطاق واسع 1919).

• ثم تأتي مرحلة التلفزيون، منتصف عشرينات القرن الماضي، لكن انطلاقته الكبرى بدأت العام 1952 وما تبعه من تقنيات معلوماتية واعلامية، نعيش اليوم نتاج تطورها اللاحق.

بعد ذلك تأتي عملية التلاقح بين انفجار المعلومات وثورة الاتصالات التي انطلقت مع اكتشاف الحاسوب أو الكومبيوتر، الذي تطور شكلاً ومضموناً، خلال فترة قصيرة زمنياً من منظور مسيرة البشرية. فبعد أن كان حجم الجهاز بمساحة غرفة، بات اليوم يُحمل في الجيب. وبعد أن كان لأغراض عسكرية وتجارية وبحوث علمية لمؤسسات اصبح متوفراً للاستخدام الشخصي على اوسع نطاق، شأنه شأن شبكة الانترنيت التي أنشئت في العام 1969، ثم سرعان ما تطورت خلال العقد الأخير من القرن العشرين لتستخدم على اوسع نطاق جماهيري عابر للقارات، في السنوات الاخيرة. حيث تشير أحدث أرقام Internet World Stats ''إحصاءات الانترنيت العالمية'' الى ان عدد مستخدمي الإنترنت بلغ ما يقرب من 4,313 مليار مستخدم في العالم، اي حوالي 5,65% من عدد سكان العالم. ومن المتوقع ان تصل النسبة الى 70 % خلال الاعوام القريبة القادمة، أي الى 5.1 مليار شخص، وفق توقعات ''الاتحاد الدولي للاتصالات''. في بلدان الشرق الأوسط بلغ العدد 164 مليون مستخدم، أي بنسبة 64,5% من عدد السكان. بينما كان العدد مع بداية الالفية الثالثة لا يتجاوز 3,300 مليون. تتصدر القائمة البحرين، بنسبة 98% نسبة الى عدد السكان، وتأتي بعدها الكويت 97%. وفي العراق بلغ عدد مستخدمي الانترنيت اليوم 19 مليونا، اي بنسبة 48% بينما كان عدد مستخدمي الانترنيت، 12 مليونا مع بداية الألفية.

ثم تأتي اجيال التلفزيون المختلفة التي تطورت تقنيتها لتتميز بمقدرة عالية في معالجة أدق التفاصيل في عملية توصيل المعلومة. والآن لدينا التلفزيونات الذكية، كما التلفونات الذكية.

رافق هذه المسيرة ظهور الأقمار الصناعية، الميكروويف، الألياف الضوئية Fiber، والموصلات الرقمية، الفيديو والاتصالات المباشرة بالنت وخدمات الهاتف والمؤتمرات عن بعد عبر الشاشات.

كل هذا أدى الى صياغة سمة جديدة للمجتمعات التي وصلت الى مديات من التطور، حيث بات يُطرح مصطلح ''مجتمع المعلوماتية'' كبديل للمجتمع الصناعي.

كان المؤرخون قد صنفوا مراحل التطور على أساس منظومة العناصر التي اشتملت على ادوات الموصلات الجماهيرية، كالسكك الحديد والجسور والفنون والمعمار وتقنيات الحروب والقانون واستخراج المعادن وغيرها، التي اعتبروها سمات الحضارة.

وقد كان العلماء يبرزون اهم عنصر من هذه العناصر ويعتبرونه رمزاً لذلك العصر. فكان التعدين، على سبيل المثال، أهم وسيلة لمعالجة المعادن، فاطلقوا على ذلك العصر اسم ''البرونزي''. وغيرهم من اعتبر الكتابة، عنصراً حاسماً في تلك المرحلة، وجزأ المجتمعات على اساسه، الى مجتمعات تقرأ وتكتب، وأخرى بدائية.

ثم أدى نشوء المدن الى ظهور ''الحضارة المدينية''. وهكذا فيما يتعلق بالاختراعات، فهنالك أمثلة كثيرة تدل على كيفية استقاء علوم الطبيعة مفاهيمها من الميكانيكا ومن ثم التكنولوجيا، كما يشير عالم الفيزياء البريطاني (بول ديفيز). فعندما اكتشفت الآلات الموسيقية في العهد الأغريقي، استلهم الفلاسفة منها صورة الكون المصنوع تبعاً

لتناغمها، فيما اعتبرت اوروبا في القرون الوسطى، الساعات، عجائب التكنولوجيا المتقدمة. ومنها استوحى نيوتن صياغة صورة للكون الذي يشبه الساعة في دقة عمله.

وبعد قرنين احتلت الآلة البخارية مكان الصدارة في الاكتشافات، حتى اصبحت صورة الكون الجديدة، تشبه الآلات البخارية في ضجيجها، ونظام قصورها.

وبعد مائتي عام ظهر الكومبيوتر، الذي انطلق معه عصر السرعة والتواصل والتنمية المضطردة. إذ يعتبر هذا الإنجاز الكوني العظيم أهم ما توصل اليه العقل البشري حتى اللحظة.

وطبعاً حينما نقول الكومبيوتر، لا نعني به الجهاز المنصوب على الطاولة، الذي نستخدمه في بيوتنا واماكن العمل فحسب، بل وحتى الهاتف النقال "الموبايل"، الذي اصبح جزءاً من حياتنا اليومية، ونحمله معنا ويحملنا معه الى كل مكان، ويكاد أن يكون جزءا من امتداد الحواس. بل أن هذه التقنية غيرت الكثير من المفاهيم السديمية عن الكون وطبيعته، مفاهيم سادت مئات السنين. وهناك امثلة كثيرة على ذلك.

مع بداية الالفية الثالثة، وعلى ضوء تطور تقنية المعلومات برزت نظرية تنحو الى التأكيد على أن أصل الكون ليس المادة، كما هو شائع، بل هو المعلومات. وبدأت التنبؤات بأن الكومبيوتر سوف يحل لغز الكون الذي ظل مثيراً للجدل، واعني به اصل المادة.

الأمر الذي يثير أسئلة متباينة جديدة عن طبيعة الوجود والتشكيك بأسبقية المادة على الوعي أو ما شابه، ما هي المادة؟ هل هي اصل الكون؟ كما تطرحه النظريات الفيزياوية، ام المعلومات هي الاصل، وما عداها اشياء مجردة، او بمثابة حشو فائض.

في كتابه "الثقافة، المعلومات والاتصالات"، يقول الانتربولوجي الايطالي (امبرتو ايكو)، ما معناه، ان الجمل والكلمات المجردة التي لا تنقل معلومة ما، تظل عبارة عن اشياء مجردة، حشو لا اكثر. وعلى اساس ذلك لو جردنا الكلمة من المعلومة والدلالة التي تحملها فستكون هيكلاً فارغاً. كما هو حال الصورة المجردة من المعنى الذي تريد التعبير عنه، وكذلك الصوت، الذي لو جردناه من المعلومة التي يريد ايصالها فسيصبح ذبذبات لا تعني شيئاً. ولو جردنا المعلومات من معناها، فستبقى مجرد حروف ميتة أو تموجات ضوئية، او سلسلة ألكترونية تتكون من رقمين يتكرران، صفر وواحد، لكن هذين الرقمين باتا اصل جميع المعلومات التي يقدمها لنا الكومبيوتر.

كما أن هناك من يؤكد على أن المعلومات تشكل عنصراً رئيسياً في جميع العلوم والأنظمة. اذ لو اخذنا اي نظام او برنامج نجده يتكون من اربع ركائز رئيسية هي:

- البنية الداخلية: وتمثل مجموعة العناصر التي تكون النظام وتحدد طبيعته.
- الإحداثيات: التي تعين مواقع العناصر التي يتكون منها النظام وتوزيعاتها الداخلية، حسب وظائفها يضاف لها العلاقات المختلفة بين هذه العناصر التي تمكن النظام من السير في الاتجاه الذي يريده.
- الوظائف: التي يحددها الهدف الأساسي الذي يسعى النظام الى تحقيقه.
- المعلومات أو الإعلام: التي تمثل حالة النظام الذي يتم التخطيط اليه وتحليله، وتوجيهه ومراقبة عمله وتمثيله. فالمعلومات

هنا تمثل الوقود الذي يعطي النظام استمرارية اداء وظيفته.
لكن احدث اتجاه علمي في الفيزياء يذهب الى ابعد من ذلك مؤكداً على أن المعلومات هي أصل أي نظام، وليس احد عناصره الرئيسية فحسب. وأن الكون والمادة وكل الاشياء التي نعقلها ونلمسها هي انعكاس للمعلومات وتجلياتها. كما ان القوانين العلمية عبارة عن معلومات يحاول الانسان استنباطها من الطبيعة. ويتوقع اصحاب هذا الاتجاه ان يكشف الحساب الرياضي لهذه العلاقة عن قوانين جديدة.
هل ستحل هذه النظرية أعقد القوانين التي عرفناها لحد الآن؟ لنتأمل في هذا التساؤل!
قانون الفعل ورد الفعل، قانون فيزيائي معروف. ولكن من اين جاء؟ من اين جاءت القوانين الاخرى؟
المفهوم العلمي يقول ان هذه القوانين مستقاة من الواقع. لكن فيزياء الكم، بينت واقعاً آخر داخل الذرات تتحكم به قوانين مختلفة. ما هي هذه القوانين؟ ومن اين جاءت؟
(روي فريدين)، عالم فيزياوي بريطاني يرى بأن المعلومات هي أصل كل القوانين، بل هي قانونها الشامل. ففي كتابه بعنوان: Science from Fisher Information يقول ''ان المعلومات تتحكم بكل واقع. من سقوط تفاحة على الارض، الى حركة التيار الكهربائي في الأسلاك، وحتى انفجار الذرة. إن جميع القوانين الطبيعية تتحكم فيها قوانين رياضية. وكلها مبنية على قياس كمية المعلومات''.
كلام مقنع الى حد ما، وهذا الحال ينطبق ايضاً على قياس الرأي العام.
توصل (روي) الى رأي مفاده: ''ان النتيجة النهائية لجميع الحسابات التي استخدم فيها قياس المعلومات كانت معادلات تفاضلية. (التفاضلات الرياضية صيغ رياضية تكشف عن الكيفية التي تتغير بها وتيرة تغيير كمية محددة بفعل تأثيرات خارجية). والملفت للنظر هو ان جميع قوانين الفيزياء يمكن تفسيرها بمعادلات رياضية، وكلها مؤسسة على الفعل ومعرفته التي يقتضيها القانون.
فهل تحل هذه النظرية لغز الكون الغامض؟
نظرية المعلومات هذه ليست جديدة، كاملة الجدة. فقد سبق أن طرحها، في نهاية الثمانينات العالم الامريكي (جون ارشيبالد)، الذي صاغ عبارة He From Bit، ''هو من بايت''. هو: ضمير الغائب و''بايت'' وحدة قياس المعلومات في الكومبيوتر.
قوة الكومبيوتر في معالجة المعلومات اثارت دهشة العلماء والفلاسفة. فباتوا يبحثون عن مفاهيم طبيعية مستقاة من احدث اعجوباته. فلو تتبعنا هذا المسار، لوصلنا الى الفكرة العجيبة القائلة ''الطبيعة عملية حساب كومبيوترية''.
ليس ثمة دليل علمي واضح وقاطع على ذلك لحد الآن، لكن نحن في الطريق.
في نهاية الالفية الثانية، علمنا بظهور نظرية جديدة أخرى على ضوء تطور التقنية الحديثة للمعلومات، وهي اكتشاف ''الفمتوثانية'' وهي وحدة الزمن الجديدة التي توصل اليها العالم المصري احمد زويل. وحصل على جائزة نوبل في الكيمياء العام 1999 والفمتوثانية تمثل واحداً من الف على المليون ثانية.
كان العالم قبل هذا الاكتشاف يعرف من التفاعلات الكيمياوية شكلها النظري فقط، لأنها سريعة لا يستطيع الانسان متابعتها زمنياً. هذا الاكتشاف يظهر الكيفية التي

يتم فيها تفاعل ذرتين، ويحدد الوقت الذي يستغرقه هذا التفاعل الذي سمي "كيمياء الفمتو" ومراقبته عن طريق موجات ليزرية متناهية في الصغر. هذا الاكتشاف مكّن من مراقبة الذرة وتفاعلاتها سواء اكانت داخل الجسم، فيما يتعلق بالاصابة بالامراض والهندسة الوراثية، او في مجال الحروب الكيمياوية والبيولوجية وغيرها.

إذاً هو سيل المعلومات الذي حدد ادوات التطور ومظاهره، تطور البشرية الى تراكم المعلومات، ثم برزت الحاجة الى تخزينها واسترجاعها. ولكن... لو (وهذا استدراك فلسفي، يتعلق بالفكر).. لو سلمنا جدلاً بأن المعلومات اصل الكون، وليس المادة، فهل سنكون ميتافيزيقيين، ونتخلى عن الفكر المادي. وهل ستكون هناك مادية جدلية وتاريخية؟ هذا السؤال حاولت الافكار الغائية الدخول الى مفاصله.

لحد الآن، نحن نتحدث عما أوصلتنا اليه ثورة تقنية المعلومات من انقلابات في المفاهيم العلمية والإجتماعية حتى، ان صح التعبير، وهي تقترب، الى حد ما، من موضوعة مبحثنا التساؤلي حول إمكانية هذه الثورة في ان تكون بديلا للثورات الإجتماعية، لكن افرازاتها تقربنا أكثر من هذه العلاقة، ومن الجواب على التساؤل القائم وهو:

"هل تشكل ثورة تقنية المعلومات بديلاً للثورات الإجتماعية؟"

التطورات المتلاحقة في ميدان الانترنيت جاءت بوسائل اتصال جماهيري ذات فضاءات واسعة مختلفة، عابرة للحدود، إندمجت فيها مصادر المعلومات وقنواتها بما بات يعرف اليوم بـ "الإعلام الإجتماعي الرقمي"، حيث افرزت ثورة تقنية المعلومات شبكات التواصل الإجتماعي، لتلعب دوراً كبيراً في تبادل الآراء بين مستخدمي هذه الوسائل، وهم من مختلف المناطق والبلدان. ولفترة وجيزة تطورت وبتسارع شبكات الفيسبوك، والتويتر، والانستغرام واليوتوب والمدونات وغيرها (مثل ماي سبيس، وورد برس، ياهو جيوسيتيز، فليكر، هاي فاي....)، بحيث لم تعد هذه الشبكات تعتمد على النص المكتوب فقط في بث الرسائل الاعلامية بصورة مستمرة، بل وعلى الصوت والصور الثابتة والمتحركة، الفيديو، ما يجعل التأثير على المتلقي آنياً وتفاعلياً عابراً للحدود. ونمت هذه الوسائط من الفكرة الإولى في ربط طلاب الجامعات بشبكة على الانترنيت، لأغراض دراسية وتعارف ودردشة الى ان اصبحت فضاء لتبادل الافكار والآراء المجتمعية والسياسية وغيرها، بل واصبحت سوقاً، او اسواقا للتجارة والسياسة وفضاء واسعاً للحرية والتثقيف والتعبئة والانتفاض ضد مظاهر التعسف والبطالة وقمع الانظمة الدكتاتورية لشعوبها. ولنا في انتفاضات ما اصطلح عليه بـ "الربيع العربي"، دليلاً ملموساً على أهمية استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، حتى ذهب البعض في الوصف بشكل مبالغ به من ان لولا الفيسبوك والتويتر لما اندلعت الثورة في تونس ومصر. وذلك لدورهما (أي الفيسبوك والتويتر – المحرر) في التحضير والتعبئة من اجل التظاهر والاعتصام. كما تشير دراسة حول أهمية إستخدام الشبيبة في مصر مواقع التواصل الاجتماعي، في التحشيد لثورة 25 يناير، ونقلهم للاحداث داخل بلادهم الى العالم عبر اليوتوب، وتأهيل الناس للمشاركة في التعبير عن مظاهر الغضب والاحتجاج وما الى ذلك.

في كتابه «مديح الجمهور الكبير» ”يشير المفكر الفرنسي (دومينيك والتون)، الى قدرة الميديا الرقمية المعولمة على إعادة تشكيل المجتمعات المتنوّعة، فتصبح بعض أقسامها جزءاً من كتل عابرة للدول والهويات والحدود“.

ونحن نضيف الى ذلك التفاعل الذي حصل بين الناشطين من مختلف البلدان، كالدعم الذي قدمه شباب سويديون من شبكة تيليكوميكس الألكترونية في مدينة غوتنبرغ غرب البلاد الى ناشطي ما يعرف بالربيع العربي في مصر وتونس وفي سوريا، بإتاحة امكانية التواصل عبر شبكة الانترنيت، بعيداً عن أعين السلطات ورقاباتها. من خلال استخدام اجهزة موديم قديمة تعود الى التسعينات، وطالما كانت شبكة التلفونات فاعلة فيمكن الاتصال بهذه الاجهزة الناقلة للذبذبات مابين شبكة الانترنيت واجهزة الكومبيوتر والتلفونات عبر مراكز لهذه الاجهزة الموجودة في اوروبا، شريطة ان تكون شبكة الانترنيت مفتوحة، حيث توجد هناك برامج يمكن لها ان تحول طرق سير الشبكة وتفلت من مرشحات الرقابة، كما ان هناك برامج اخرى تقوم بتشفير المعلومات وعرقلة امكانية التنصت عليها، كما عبر لي، (كريستوفر كولنبيري)، صاحب المبادرة الذي اختارته مجلة فوكوس ليحصل على لقب سويدي العام 2011**.

إذاً، يجري استخدام وسائل الاتصال الاجتماعي الحديثة مثل الفيسبوك والتويتر واليوتيوب وغيرها بشكل واسع، حيث يتم نشر المعلومات وطرح الآراء والأفكار بحرية. ولكن هذه الوسائل ليست ديمقراطية بحد ذاتها، فهي مملوكة من قبل شركات ربحية كبيرة، ويمكن بسهولة ان يتم اغلاقها في اي وقت، كما عبر كولينبيري. ومن هنا نجد ثمة صعوبة في هضم فكرة أن يكون لها الدور الحاسم في خلق ثورة، وانما هي أداة ذات أهمية كبيرة لتحقيقها. ومن أجل اسناد هذا الطرح، نستعين ببحث الجانب الفكري الفلسفي حول مفهوم ثورة تقنية المعلومات.

وفي هذا السياق، جرى الحديث عن إخضاع عالم تقنية المعلومات لتحليلات فلسفية، فبرز ما يعرف بالحتمية التكنولوجية. هذا المفهوم الذي طرحه الباحث الكندي (مارشال ماكلوهان)، قبل خمسة عقود مضت، جاء مستوحى من اطروحة (كارل ماركس) حول الحتمية الاقتصادية، حتمية التنظيم الاقتصادي، لكن ماكلوهان تابع الفكرة، مشيراً الى أن ”التحول الاساسي في تقنية المعلومات يجعل التحولات الكبرى تبدأ ليس فقط في التنظيم الاجتماعي، بل وايضا في الحاسيات الانسانية“، وبدون فهم الاسلوب الذي تعمل وسائل الاعلام بمقتضاه لا نستطيع فهم التغيرات الاجتماعية والثقافية.

فاللغة الشفاهية، ميزت بين الإنسان والحيوان ومكنت البشر من بناء مجتمعات ونظم، وحياة جديدة.

ولو تمعنا في فكرة الحتمية لوجدنا ان كارل ماركس كان قد ربط بين الاقتصاد والتكنولوجيا، حين تحدث عن الماكنة والصناعة، واشار الى مرحلة النمو التكنولوجي والعلاقات والنظم التي تكوّن النسق الاقتصادي.

ففي موسوعته الكبيرة ”رأس المال“ يكتب ماركس: ”ان التكنولوجيا تبرز اسلوبَ عمل الانسان تجاه الطبيعة، اي العملية المباشرة لإنتاج حياته، وبالتالي للظروف الاجتماعية

لحياته والافكار او المفاهيم الفكرية التي تنجم عن هذه الظروف".

واذا أخذنا بتعريف الحتمية من كونها فرضية فلسفية، تقول إن كل حدث في الكون خاضع لتسلسل منطقي سببي محدد سلفاً، في إطار سلسلة متواصلة من الاحداث التي يقود بعضها إلى بعض وفق قوانين محددة، فإننا نقترب من فهم الحتمية التكنولوجية، لكننا في نفس الوقت، بحاجة الى فهم أكثر لطرح (مارشال ماكلوهان) حين يقول: "ان تبديل وسائل الاتصال هو وحده الذي يخلق حركة التاريخ العملية. وعلى هذا الأساس لا داع للثورات الاجتماعية.. فهي سوف لا تؤدي الى تغييرات جذرية في حياة البشر... بل هو تبادل المعلومات، الذي يؤدي الى تقارب النظامين وادماجهما في أسرة واحدة... وكان يقصد الرأسمالي والإشتراكي".

لكن هذا الطرح يقودنا الى عدد من الاسئلة حول معنى الصراعات الجارية في اكثر من بقعة من بقاع العالم، ما معنى شقاء الانسان ومعاناته؟ ما معنى الكوارث الاجتماعية التي تحل بشعوب كثيرة، نتيجة اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية المتردية في حين الحديث جاري حول التواصل الحضاري والتجانس الثقافي بين البشر؟

كيف سيحصل الانسجام والتكافؤ بين البشر في ظل هذه الاختلافات الكبيرة واستغلال الأقوى للاضعف، كما شاهدناه في مؤتمرات منظمة التجارة العالمية؟

هل سنجد الجواب في الانفجار الاعلامي كما بشر به مارشال ماكلوهان؟ وهل هذه الاسرة الواحدة، ستخلقها العولمة؟ هل ستؤدي العلاقة القائمة بين تقنية الاتصال الاعلامي الحديثة (الانترنيت) تحديدا، والديمقراطية والعولمة الى تكوين مجتمع القرية العالمية، مجتمع الرفاهية والتكافؤ؟

المصادر:

Mc Luan, M , Poznovanja opistila- covekovih produzetaka, prosveta, Belgrad 1971

Davies, Paul Information Technologi, Oxford University, 2002

Eco, Umberto, Otvoreno djelo sarajevo, 1965

Abdulamir Talib, Systemi maovnih komunikacija i Arabskom svetu, Magisterski rad, Varazdin, Kroatien 1989.

Abdulamir Talib, Inervju med Nobelpristagaren Ahmed Zwel, SR, 8 december 1999

Freiden Roy, Science from Fisher Information, Förlag Cambridge University Press, 2004

An interview with Matt Waite about the future of Drone Journalism,7 sept.2016

سمير أمين، مناخ العصر، رؤية نقدية، سينا للنشر، ومؤسسة الانتشار العربي 1999 .

** ITU - الإتحاد الدولي للإتصالات، إصدار مارس 2019.

تعقيب على ما ورد في مقال (اتفاقية فينا للعلاقات الدبلوماسية) للقاضي زهير كاظم عبود

ستار احمد

اطلعتُ على مقال القاضي زهير كاظم عبود، المنشور في (الثقافة الجديدة) - العدد 403/ كانون الثاني 2019، وأود ان اشير الى الملاحظات التالية راجيا نشر التعقيب في احد اعداد مجلتكم الغراء، عملا بحرية النشر:

- ذكر القاضي زهير كاظم عبود في مقاله المذكور اعلاه (ص 41) انه "وبتاريخ 17 /3 /1985 تم ارتكاب جريمة قتل المعارض نقيب المخابرات العراقي المنشق ماجد عبد الكريم حسين".

وبودي ان اشير الى جريمة قتل ماجد عبد الكريم حسين، وقعت في العاصمة السويدية (ستوكهولم) حيث تم قتله في ليلة 9 - 10 كانون الثاني من العام 1985 وعُثر على جثته مقطعة في يوم 17 اذار 1985 من قبل احد هواة مراقبة الطيور (محمية طيور) في جنوب ستوكهولم.

- ان خلية المخابرات لم تكن عاملة في السفارة، بل ان اعضاءها وصلوا الى السويد لانجاز عملية الاغتيال المذكورة في كانون الاول من العام 1984، اي أن فترة بقائهم لم تتجاوز 3 الى 4 اسابيع، من وصولهم وتنفيذهم عملية الاغتيال.

- اغلق ملف الجريمة في السويد في عام 2010 أي بعد مضي 25 سنة على وقوعها وذلك طبقا للقانون السويدي. ونشير الى ان الملف الوحيد المفتوح امام التحقيق هو جريمة اغتيال رئيس الوزراء السويدي الأسبق (أولف بالمه).

- لم يكن هناك سفير عراقي في السويد اثناء عملية وقوع الجريمة، بل قائم بالأعمال هو المدعو (موفق عبود)، علما ان هذا الشخص اصبح سفيرا للعراق في فرنسا في شهر تشرين الثاني 2004 اي بعد سقوط نظام صدام حسين!

- بعد اشهر من وقوع الجريمة تم تعيين محمد سعيد الصحاف سفيرا للعراق في السويد لتسوية الازمة الدبلوماسية وتهدئة الاوضاع المتوترة بين البلدين والناجمة عن تلك الجريمة والتي تم على اثرها طرد اعضاء السفارة العراقية من السويد. ويعني هذا ان الصحاف لم يكن حينذاك موجودا ليقدم التسهيلات لتهريب المجرمين، بل كانت خطة مدروسة ومتكاملة وضعت من قبل المخابرات العراقية وبإشراف فاضل البراك.

ـ لمزيد من المعلومات حول هذه الجريمة ونشاط المخابرات العراقية في السويد يمكن العودة الى كتاب ”مهمة من بغداد: جهاز استخبارات صدام حسين على الأرض السويدية“ للكاتب السويدي ماتس أكمان، والذي اعتمد على ارشيف ووثائق وزارة الخارجية السويدية وارشيف الشرطة السرية السويدية (SÄPO). والكتاب المذكور منشور باللغة السويدية:

Mats Ekman, På uppdrag från Bagdad : Saddam Husseins underrättelse-.tjänst på svensk mark, Sekel Bokförlag/Isell & Jinert, 2012

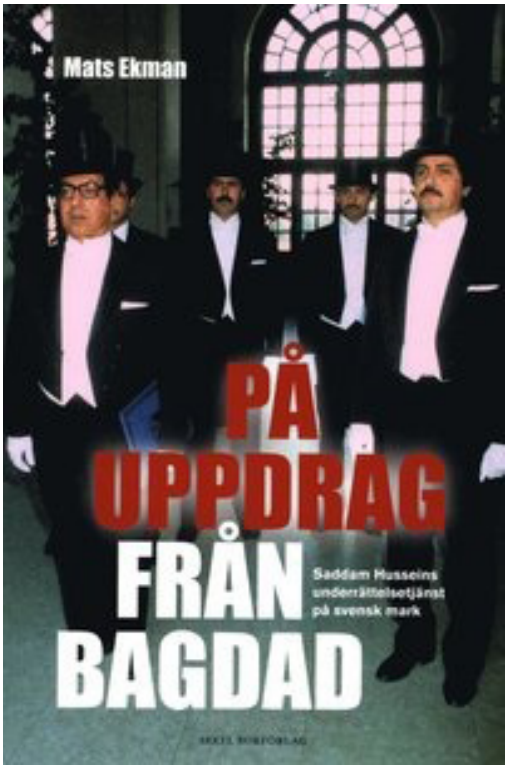

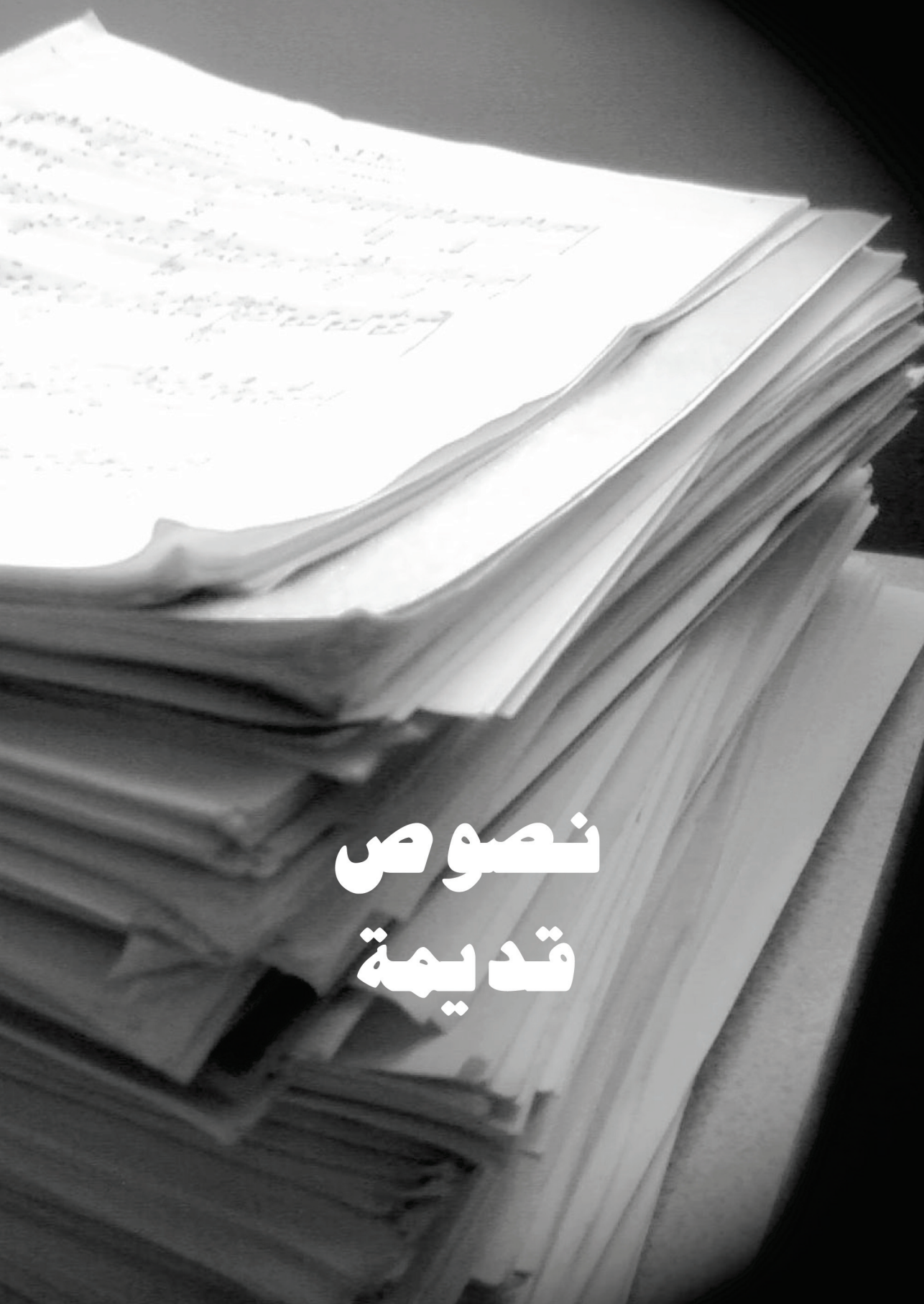

نصوص قديمة

حول المفهوم المادي للتاريخ *

(2 من 2)

محمود صبري

خلاصة الحلقة الاولى**

أ- إن القول بأن البشر يتطابقون مع انتاجهم، ينبغي ان لا يعني فقط بأنهم يتطابقون مع ما ينتجون من أنظمة مادية محددة تاريخياً. اعني، منتجات وموضوعات/ اشياء، وعلاقات اجتماعية.. الخ. (أي، ما يؤلف او يشكل البيئة المادية المجتمعية). إنه يعني أيضا أنهم يتطابقون مع ما ينتجون من انظمة فكرية، لا– مادية، محددة تاريخياً. اعني، من افكار ومعتقدات وقيم...الخ. (أي، ما يؤلف ويشكل البيئة الروحية المجتمعية). البشر يخلقون في نشاطهم التحويلي عالما من منتجات مادية ولا– مادية على حد سواء. وهم يتطابقون مع المجموع الكلي لهذا العالم الذي يخلقونه تاريخياً.

ب- إن ما يجري ايصاله بين الاجيال المتعاقبة ليس فقط "نتيجة مادية"، (قوى انتاج مادية، رؤوس اموال وموارد، وعلاقات انتاجية...الخ)، بل ايضا "نتيجة لا– مادية" (قوى انتاج فكرية مع منتجات وافكار وقيم اخلاقية وادبية وفنية، ومذاهب ومفاهيم دينية وفلسفية وقانونية ...الخ). البشر اذ يعملون على المجموع الكلي لهذه النتائج المادية واللامادية ويغيرونه، فانهم بذلك يغيرون طبيعتهم ذاتها في الوقت نفسه.

ج- لذلك فان الكائن البشري (الذي هو مخلوق وخالق هذه البيئة المادية – الفكرية – المجتمعية)، ليس هو كائن اجتماعي – طبيعي فقط (كتعبير لوحدة وتناقض الانسان والطبيعة)، انه ايضا كائن روحي/ فكري – جسدي/ مادي (كتعبير لوحدة وتناقض الفكر والمادة). في الوقت نفسه وبالتالي، فانه وحدة من الاجتماعي – الطبيعي والفكري – المادي هذا، هي جوهر ديالكتيكه كذات – موضوع. وهو ايضاً اساس ديالكتيكه كفرد – مجتمع.

د- المشكلة ليست في تحديد اولوية الفكري أو المادي، بالاحرى انها ايجاد صيغة جديدة تفسر العلاقة التفاعلية بين المادة والفكر، وبين المجتمع والطبيعة، بدون اللجوء الى اللعبة الفلسفية القديمة من الجدل اللفظي المماحك حول الأولوية والاشتقاق. الصيغة الوحيدة التي يمكنها القيام بذلك على نحو عقلاني هي مفهوم تكافؤ الفكري والمادي.

5 - حول مصطلحي "المادية" و"الديالكتيكية"

هناك ارتباك خلفه استعمال مصطلح "المادية" في صيغة "المفهوم/ التفسير المادي للتاريخ"، او "المادية التاريخية"، للدلالة على "المفهوم الماركسي للتاريخ"، وكذلك في صيغة "المادية الديالكتيكية". التساؤل الذي يثار غالباً، وهو أن ماركس نفسه "لم يستعمل مصطلح المادية الديالكتيكية"[25]، وان انجلز هو الذي "اخترع" مصطلح "التفسير المادي للتاريخ"[26]. لقد لاحظ غرامشي كيف ان "مؤسس فلسفة الممارسة (أي ماركس)، كما هو معلوم، لم يعتبر ابداً مفهومه مادياً... لهذا فانه لا يستعمل مصطلح "الديالكتيك المادي" ابدا، غير انه يدعوه "عقلانياً" كضد لـ "الغيبي"، وهذا يعطي صيغة العقلاني معنى دقيقا تماماً"[27]. اما موريس كورنفورث، فقد اشار الى "ما يقال غالبا بأن ماركس لم يستعمل أبدا مصطلح المادية الديالكتيكية" لوصف نظرته الفلسفية. وان هذا الاستعمال يرجع الى انجلز. وهذا يوحي بأن ماركس نفسه قد وافق عليه لأنهما كانا يتعاونان على نحو وثيق"[28].

مع ذلك، هناك شك في ان استعمال هذا المصطلح يرجع الى انجلز. حقا ان انجلز في كتابه "انتي– دهرنغ"، تكلم مثلا عما اسماه "المادية الحديثة التي هي جوهرها ديالكتيكية"[29]، وفي "لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية"، عن "فلسفة ديناليكتيكه"[30]. غير انه لم يستعمل مصطلح "المادية الديالكتيكية" بالذات. ماكليلان يرى "ان هذا المصطلح استخدمه بليخانوف لأول مرة" [31]. ولكن حتى اذا قبلنا رأي كورنفورث بموافقة ماركس الضمنية على استعمال مصطلح "المادية الديالكتيكية"، من قبل انجلز وكذلك اشارة انجلز ذاته مثلا، بأنه قرأ كامل مسودة "انتي دهرنغ" لماركس قبل طبعها [32]، فان ذلك لا يفسر عدم استعمال ماركس نفسه للمصطلح.

ماركس، كما رأينا، طوّر في الموضوعة رقم (1) حول فويرباخ، مفهوما للاشياء والواقع "كنشاط حسي بشري، ممارسة". وهو مفهوم يختلف عن موقف المادية التقليدية التي تفهم الواقع كشيء معطى موجود باستقلال عن الوعي الانساني. في هذا المفهوم يمكن الكلام عن ثلاثة أوجه متلازمة غير قابلة للتجزئة: الديالكتي، المادي الطبيعي، الاجتماعي/ الانساني/ او (التاريخي).

كما رأينا قبلاً، هناك التباس يتعلق "بالديالكتيكية" فهذا المفهوم استعمل بدلالات مختلفة من قبل كلاسيكيي الماركسية. بالنسبة لماركس، المفهوم يعني قبل كل شيء علاقة تفاعل ذات – موضوع. وقد استعمله، كما رأينا، بهذا المعنى بارتباط مع النشاط الانتاجي للانسان كموضعة. وبالتالي، فإن الديالكتيكية التي يعنيها ماركس ترتبط بشكل لا ينفصم مع مفهومه الخاص للمادة و"المادية". فكما ان المادة ، أي، "الواقع"، "الشيء"، ينبغي ان تفهم كنتاج للتفاعل الانساني – الطبيعي، اي، "النشاط الحسي، البشري، الممارسة" فان الديالكتيكية التي يعينها ماركس هي على حد سواء، ديالكتيكية هذا التفاعل الانساني – الطبيعي، او "النشاط الحسي، البشري، الممارسة".

غير ان الديالكتيكية، يمكن ان تعني، كما

رأينا علاقة تفاعل ولكن ضمن الموضوع فقط، بمعزل عن الانسان، أي، ضمن العالم الطبيعي، "بالقدر الذي نتجاهل فيه تفاعل الانسان مع الطبيعة". لهذا فان انجلز عندما يتكلم عن ديالكتيكية الطبيعة مثلا، ان "الطبيعة هي البرهان على الديالكتيكية.. الخ"[33]، فانه يعني بها ديالكتيكية الموضوع الطبيعي باستقلال عن النشاط الانساني. هذه الصيغة، كما هو واضح، لا تتطابق مع ديالكتيكية "النشاط الحسي البشري .."، والتي يتكلم عنها ماركس.

الشيء نفسه يصح على المفهوم اللينيني للديالكتيكية. فهو يرتبط ايضا بمفهومه للمادة، خاصة في الصيغة التي عبّر عنها في "المادية والنقد التجريبي". "ان مفهوم المادة.." بالنسبة له "لا يعني سوى الواقع الموضوعي الموجود على نحو مستقل عن الفكر البشري ومعكوس من قبله"[34]، او انه "الواقع الموضوعي الذي تنسخه وتصوره فوتوغرافيا، وتعكسه حواسنا بينما يوجد مستقلا عنها"[35]. كل هذا كما هو واضح لا يتطابق مع مفهوم ماركس لـ "المادة" وبالتالي لـ "الديالكتيكية" التي تقترن به.

هذا الاختلاف في الموقف الابستمولوجي تجاه العالم، الذي هو اساس الارتباك الذي يقترن باستعمال مصطلح "المادية" يمكن النظر إليه من زاوية اخرى: ان الصورة الاكثر ملاءمة لوصف المفهوم الماركسي للمادة/ الواقع كـ "نشاط حسي بشري، ممارسة" هي انه حقا مفهوم انتاجي للمادة (كما رأينا) المادية الماركسية، بهذا المعنى هي "مادية" التفاعل الانتاجي للبشر مع الطبيعة. او انها "مادية" تقوم على منتجات هذا التفاعل.

لقد اشار غرامشي الى هذه الصفة الانتاجية عند كلامه عن موقف "فلسفة الممارسة" (أي، الماركسية)، من المادة: بالنسبة لفلسفة الممارسة "المادة" يجب فهمها لا بالمعنى الذي اكتسبته في العلم الطبيعي (...)، ولا في أي من المعاني التي يجدها الانسان في الميتافيزيقيات المادية المختلفة. ان مختلف الصفات الفيزيائية (...) للمادة التي تؤلف حقا المادة ذاتها يجب اخذها بنظر الاعتبار ولكن فقط الى الحد الذي تصبح فيه "عنصرا اقتصاديا انتاجيا. المادة في حد ذاتها اذن ليست موضوعنا ولكن فقط كيفية تنظيمها اجتماعيا وتاريخيا لغرض الانتاج، والعلم الطبيعي يجب ان يرى على نحو مماثل جوهريا كمقولة تاريخية، علاقة انسانية"[36].

الصيغ التي طوّر فيها ماركس مفهومه الجديد لـ"المادة" و"المادية" كانت، غالبا، تنطوي ضمنا على تمايز دقيق (غير انه هام) بين مفهوم الطبيعة و"المادة". او، بين ما اسماه "الطبيعة لذاتها" وبين "الطبيعة المؤنسنة". هذا التمايز نجده واضحا بأشكال مختلفة في المراحل المتعاقبة من انتاجه الفكري، وهو ايضا يؤلف أساس المفهوم الماركسي للتاريخ وأصل الانسان والمجتمع.

ينطلق ماركس، كما رأينا من "اولوية الطبيعة"، كحقيقة "لا يمكن النيل منها"[37]. غير ان "الطبيعة عند اخذها على نحو تجريدي، لذاتها، مثبتة بانعزال عن الانسان هي كما يقول: "لا شيء بالنسبة للانسان"[38]. الشيء الهام بالنسبة لماركس هو "الطبيعة

المؤنسنة" أي "الطبيعة التي خلقها التاريخ – منتجات الانسان"[39]. انها "العالم المحسوس.. الذي هو نتاج الصناعة وحالة المجتمع، وحقا بمعنى انه نتاج تاريخي"[40]. هذه "الطبيعة المؤنسنة" (او، "الطبيعة الانثروبولوجية"، كما يسميها في مكان آخر)، التي تتطور في التاريخ البشري خلال الصناعة، كعالم محسوس من منتجات، موضوعات/ اشياء.. الخ. تمتلك بالنسبة لماركس صفة مزدوجة: مادية/ طبيعية وانسانية/ اجتماعية. فمنتجات العمل الانساني هي من ناحية (كما رأينا) "مادة الطبيعة المكيفة بتغيير في الشكل لحاجات الانسان"[41]، غير انها من ناحية اخرى، "عمل جرى تجسيده في موضوعات اي اصبح مادياً"[42]، أو، "كقيم تبادل" "تعابير مادية للعمل البشري المبذول في انتاجها"[43]. انها ايضا "قوى الانسان الجوهرية الممموضعة على شكل موضوعات محسوسة ... على شكل صناعة اعتيادية مادية"[44]، او انها "السيكولوجيا البشرية الموجودة على نحو محسوس". بكلمة اخرى، انها كما رأينا قبلا: "المجموع الكلي لقوى الانتاج، ورؤوس الاموال، والموارد والاحوال واشكال العلاقات الانتاجية" التي تؤلف بمجموعها "نتيجة مادية"[45]، وصفها ماركس بانها "جوهر الانسان" او "ماهيته". كل هذا يختلف عن المفهوم اللينيني للمادة (بكونها الواقع الموضوعي الموجود على نحو مستقل عن الفكر البشري ومعكوس من قبله)، الذي هو مفهوم اقرب الى مفهوم العلم الكلاسيكي – وبالتالي الى المادية التقليدية.

الواقع الموضوعي الذي يتكلم عنه ماركس هو وحدة من المادي/ الطبيعي والانساني/ الاجتماعي، يخلقها الانسان خلال عمله على الطبيعة. انه يخضع في هذين الجانبين الى المبدأ نفسه. اعني انه كواقع موضوعي (مادي/ طبيعي واجتماعي/ انساني) نتاج تاريخي للانسان، ولنشاطه التحويلي.

كان من السهولة على لينين ان يرى ان "الواقع الموضوعي"، كواقع اجتماعي/ انساني، (أي، كمؤسسات وعلاقات واشكال وعي .. الخ)، هو ليس واقعاً معطى، بل انه حقا نتاج للنشاط البشري التاريخي، ولكنه لم يكن على استعداد للاعتراف بدور مماثل للانسان في انتاج وخلق "الواقع الموضوعي"، كواقع مادي/ طبيعي. ذلك يتناقض مع جوهر المفهوم المادي التقليدي، الذي يرى هذا الواقع كوجود مستقل عن الانسان، والذي يخلط بين "اولوية الطبيعة" و"المادة". انه لم يدرك في حينه (عند كتابة المادية والنقد التجريبي" بأن "الواقع الموضوعي"، المادي/ الطبيعي يمكن ان يكون "نشاطا بشريا حسيا، ممارسة". وفي الوقت نفسه يمكن ان يتمتع بأولوية انطولوجية (أي، مستقلا عن الانسان). لقد ادرك ذلك فقط بعد قراءة علم المنطق الهيغلي، فصاغ عبارته الشهيرة: ان وعي الانسان لا يعكس العالم الموضوعي فقط، بل يخلقه"[46]. أي، ان الانسان تاريخياً يخلق عالماً مادياً/ طبيعياً له وجود انطولوجي. انها ديالكتيكية ذات - موضوع، معقدة، وتعني علاقة من الاستقلال والوحدة في آن واحد بين الانسان والواقع الموضوعي (المادي/ الطبيعي).

المشكلة لماركس كانت في بلورة موقف جديد من مفهوم ''المادة'' و''المادية''، ينطلق عن ديالكتيكية الذات ـ الموضوع، أي، من النشاط الانتاجي للانسان على الطبيعة. الموضوعة رقم (1) كانت اقرب صيغة الى تعريف دقيق لهذا الموقف ''الشيء'' الواقع، الحسية، ينبغي ان ترى ''كنشاط حسي بشري، ممارسة''. ''المادة'' بالنسبة لماركس اذن تعني ''الواقع الموضوعي'' الذي يسهم الانسان في انتاجه وتكوينه - وحدة من الانساني والطبيعي يخلقها الانسان خلال عمله على الطبيعة. اما الاولوية الانطولوجية للطبيعة - التي تعني هي المبدأ الذي تقوم عليه المادية التقليدية - فانها ''تبقى لا يمكن النيل منها''. ولكنها غير قابلة للجدل فـ ''الطبيعة عند اخذها على نحو تجريدي بانعزال عن الانسان''، كما يقول ماركس: ''هي لا شيء بالنسبة للانسان''[47].

غير ان اشكالية ''المادة'' و''المادية'' يمكن النظر اليها ايضا من زاوية اخرى. ان مفهوم ماركس للواقع هو صهر او وحدة لنقد ثنائي الجانب للنهج الهيجلي المثالي وللمادية القديمة (بما فيها مادية فويرباخ) في آن واحد. فقد طور في نقده المبكر لديالكتيكية وفلسفة هيجل (في مخطوطات 1844)، كما رأينا مفهوما ديالكتيكيا للواقع كـ ''طبيعية أو انسانية ثابتة تتميز عن المثالية والمادية على حد سواء، وتؤلف في الوقت نفسه الحقيقة الموحدة لكلتيهما''[48]. وبعد اكثر من عقدين من الزمن، في مقدمته للطبعة الثانية الالمانية من الرأسمال، وصف نهجه الديالكتيكي بأنه قلب رأسا على عقب للديالكتيك الهيجلي واكتشاف ''للنواة العقلانية ضمن القشرة الغيبية''[49]. من ناحية اخرى، فإنه طوّر في نقده للمادية القديمة مفهوما وصف فيه، ''الشيء'' الواقع، الحسية... كنشاط حسي، بشري، ممارسة''.

الصيغة التي يفترض ان ينتجها توحيد/ صهر هذين المفهومين ينبغي ان تكون بالضرورة نقضا للمثالية والمادية، وتوكيدا للحقيقة التي توحدهما في آن واحد، اعني انها يجب ان تعبّر عن جوهر التغيير الذي يتناوله هذا النقد الثنائي، أي كتغيير من موقف ''غيبي'' الى ''عقلاني'' (مع هيجل)، ومن موقف ''تأملي'' الى ''فعّال'' (نشاط حسي .. ممارسة) مع فويرباخ. بكلمة اخرى، من زاوية نظر النقد الماركسي، مثل هذه الصيغة الموحدة، يجب ان تعطينا علاقة ذات – موضوع (او علاقة بين البشر والعالم) تتصف بعقلانية فعالة حسياً، او ممارسة عقلانية. هذه النتيجة تعيد الى الذهن مضمون الموضوعة (11) الشهيرة حول فويرباخ: ''الفلاسفة فقط فسّروا العالم بطرق مختلفة. الهدف هو تغييره''. الدعوة الى موقف عقلاني حسي فعال تجاه العالم لا يمكن إلا ان يعني دعوة الى تغيير العالم. - ولكن، خلال النشاط البشري العقلاني. هذا ينبغي ان يتضمن بالضرورة شكلا جديدا من انسنة العالم وتطبيعه، شكلا عقلانياً لا تجريبياً.

كل هذا يجعل مصطلح ''المادية'' لا عقلانيا وزائدا عن الحاجة على نحو جوهري، مع ذلك فإن هذا المصطلح اصبح جزءاً مكوناً مميزاً (ان لم يكن الجزء المميز) للصيغة

التي اصبح المفهوم العام لهذا النقد الثنائي لهيغل وفويرباخ (بشكلة الموحد) يعرف بها، اعني المفهوم المادي للتاريخ.
ما تقدم يظهر الاشكالية التي يخلقها استعمال مصطلح المادية بارتباط مع المفهوم الماركسي للتاريخ او نهجه الديالكتيكي. ماركس طور مفاهيم تختلف في معانيها عن المعاني المتداولة لـ ''المادة'' و''المادية''. وهذا خلق بالضرورة اشكالية الربط بين المعاني الجديدة والصيغ القديمة. المعاني القديمة تبقى لصيقة بالصيغ التي تقترن بها في الذاكرة والوعي العام، بسبب اصولها وارتباطاتها الثقافية – الاجتماعية التقليدية. ولا بد ان تتسرب خلالها وتختلط بـ المعاني الجديدة. انها اشكالية ربط ''مضمون جديد'' بـ ''شكل قديم'' يمتلك مضمونه التقليدي الخاص به. وهي اشكالية لا بد ان تبقى ما دام هذا الربط قائما، اعني حتى اذا كان هناك وعي بعدم انسجام ''الشكل القديم'' مع ''المضمون الجديد''. كما نعلم الاشكالية لا تزال قائمة مع كل الارتباك الذي تخلقه.

6 - حول اولوية المادة على الفكر

هناك الارتباك الذي يثيره الاختلاف الملاحظ بين الصيغ التي عبّر فيها ماركس عن نقده الثنائي لهيغل وفويرباخ، وبين الصيغة النظرية النهائية لـ ''المفهوم المادي للتاريخ''، كما جرى تدشينها لاول مرة في ''الايديولوجيا الالمانية''. هذه الاخيرة بدت الى حد كبير وكأنها مواصلة للحركة البندولية الملاحظة في تاريخ الفلسفة من تطرّف الى آخر مضاد له، هذه المرة من المثالي الى المادي. وهكذا نقرأ في ''الايديولوجيا الالمانية'': ''في تعارض مباشر مع الفلسفة الالمانية التي تهبط من السماء الى الارض، فاننا هنا نصعد من الارض الى السماء ...''[50].
إن الاطار التركيبي لـ ''المفهوم المادي للتاريخ'' (اعني التركيب التحتي المادي والتركيب الفوقي اللامادي الذي يقوم عليه)، يتخذ نقطة انطلاقة من هذه الاستعارة المجازية لعلاقة ''الارض – السماء'' وهذا ينطبق بالمثل على ''المقدمة'' التي على الرغم من صيغتها الاكثر مرونة وعمومية، فانها تبقى كما رأينا ضمن الاطار التركيبي للمفهوم المادي للتاريخ. هذا يتضح في تأكيدها على الجانب المادي لقوى الانتاج والجانب الانتاجي/ المادي للعلاقات الانتاجية، وهي الصيغة التي تربط بها اشكال الوعي والتركيب الفوقي القانوني والسياسي، بما اسمته ''المجموع الكلي لعلاقات الانتاج''. انه تطبيق مبسط مباشر لمبدأ اولوية المادة على الفكر لتفسير سببية العمليات المجتمعية.
كل هذا يفتقر الى، او، يتعارض مع، ذلك التبصر المدهش الذي وجدناه في ''مخطوطات 1844''، مثلا، في مفهومه للواقع (كما رأينا) كـ ''طبيعة او انسانية ثابتة، متميزة عن المثالية والمادية على حد سواء، وتؤلف في الوقت نفسه الحقيقة الموحدة لكلتيهما''، نجد شيئا مماثلا تقريبا ايضا في مضمون الموضوعة (1)، التي كما رأينا، ترسم صورة للواقع والاشياء ''كنشاط حسي بشري، ممارسة''. فهذا

المفهوم يقتضي ضمناً بالضرورة علاقة ترابط (لا تقوم على الاولوية) بين المادي والفكري "النشاط الحسي البشري.. الخ". هو لا شيء ان لم يكن وحدة تجمع بين العمل الفكري والجسدي معاً، لتكييف مادة الطبيعة لحاجات الانسان. هذا حقا ما يميز العمل الانساني عن "اشكال العمل البدائية الغريزية التي تذكرنا (بالعمل) الحيواني المجرد"، ماركس يوضح هذا التمايز في تعبير شهير: "ان ما يميز اسوأ معمار عن افضل نحلة هو هذا المعمار يقيم تراكيبه في خياله قبل ان يشيدها في الواقع؛ ففي نهاية كل عملية عمل، نحصل على نتيجة كانت موجدة سلفا في خيال العامل في بدء العمل. انه لا يحقق فقط تغييرا في شكل المواد التي يعمل عليها، بل يدرك ايضا غرضا خاصا به يعطي لممارسته قانونها، ويجب ان يخضع ارادته له" [51].

هذا يعني ان عملية العمل هي وحدة فكرية - مادية يتعذر تجزئتها، وبالتالي لا يمكن فيها تحديد أولوية اي من هذين الجانبين: الانسان يخلق سلفا في خياله الصور الذهنية اللازمة لعمله. هذه الصور تصبح هدف العمل، الصيغ الشكلية التي يعاد تشكيل موضوع العمل وفقا لها، او القانون الذي يجب ان يخضع العامل ارادته له ويوجه عملية عمله. واذا كان ذلك يصح على الممارسة الفردية، فمن الطبيعي ان يصح ايضا على الممارسة المجتمعية بكاملها. بكلمة اخرى، من الصعب التوفيق بين مضمون عملية العمل الانساني (كما يحددها ماركس) وبين مبدأ "أولوية المادة على الفكر".

7 - حول العلاقات الاجتماعية

في "الايديولوجيا الالمانية" استعمل ماركس وانجلز (كما لاحظنا) بارتباط مع "المفهوم المادي للتاريخ" مصطلح "اشكال الاتصال المادية" الذي حوّل في كتاباتهما اللاحقة الى "علاقات الانتاج المادية"، الذي سبق وان اشرنا الى اشهر تعبير له في الموضوعة (6) (الجوهر الانساني = مجموعة العلاقات الاجتماعية). المصطلح يغطي الطيف الاوسع المتنوع من العلاقات التي يدخلها البشر فيما بينهم في نشاطهم الحياتي (أي، بما في ذلك علاقات الانتاج). وهكذا، كما ان "قوى الانتاج" تتألف من قوى مادية وبشرية وبالتالي فكرية ايضا، فان العلاقات الاجتماعية تتألف على حد سواء من علاقات انتاج مادية وعلاقات لا مادية (اي ايديولوجية – سياسية، اخلاقية قانونية دينية ..الخ). هنا نرى ايضا مبدأ اولوية المادة يطبق بالمثل على علاقات الانتاج المادية التي هي الاكثر اهمية من كل اشكال العلاقات الاجتماعية. وهي التي تقرر الاشكال الاخرى من هذه العلاقات أي اللامادية – الايديولوجية ...الخ)[52]. ماركس يشير في المقدمة الى ان علاقات الانتاج تعني بصيغ قانونية "علاقات التملك" التي تعمل قوى الانتاج المادية للمجتمع ضمن اطارها. بكلمة اخرى، المبدأ الفعال في "العلاقات الاجتماعية" يجري اختزاله الى علاقات الانتاج المادية، اعني علاقات التملك. وهذه الفاعلية يجري توكيدها في المفهوم المادي للتاريخ: الصراع بين القوى المادية للانتاج في المجتمع وبين العلاقات المادية للانتاج،

يصبح هو القوة المحركة للتغيير التاريخي. اما في "المقدمة" فان الصيغة دقيقة: هذا الصراع هو الذي يقود الى، او يعلن عن بدء عصر ثورة اجتماعية".

هذا التقييم المضخم لدور وواقع "علاقات الانتاج المادية" والاختزال الذي يرافقه للاشكال الاخرى من العلاقات الاجتماعية يربك فهم وتقييم مسألة جوهرية: الحرية الاجتماعية والفردية. فضمن سياق المفهوم المادي للتاريخ، الحرية كحاجة انسانية، ترتبط بالضرورة بأشكال تعتبر ثانوية فرعية من العلاقات الاجتماعية (أي، بعلاقات سياسية واخلاقية ودينية ..الخ). لهذا فان اهميتها في نظام الاشياء بالمقارنة بالحاجات الاقتصادية – المادية، تختزل بالمثل؛ فتعامل في التطبيق ككمية فرعية، من الدرجة الثانية. بكلمة اخرى ان "المفهوم المادي للتاريخ"، يقود بالضرورة الى تطبيق اجتماعي يتجه نحو توكيد الحاجات المادية – الاقتصادية على حساب الحاجات التي ترتبط بالعلاقات الايديولوجية – السياسية الخ. (مثلاً، حرية الفكر والديمقراطية السياسية.. الخ) في نظامه الخاص من الاولويات.

غير ان التركيب الثنائي للعلاقات الاجتماعية هو كل واحد متلازم، ولا يمكن تجزئته الى منطقتين منفصلتين (احداهما اساسية، مادية – انتاجية. والاخرى، ثانوية، فكرية - روحية). مثل هذه التجزئة تشوه توازن المجتمع، ولا يتعلق الأمر هنا بالارتباطات والعلاقات التي يكون هذا الفرد او ذاك تجسيدا لها بحكم موقعه الاجتماعي الطبقي، بل المضمون الحقيقي لهذه العلاقات الاجتماعية بمجموعها.

الموضوعة الاساسية للمفهوم المادي للتاريخ هي ان علاقات الانتاج التي ترتبط بنمط التملك وبالانتاجية المادية، هي الجزء المقرر الهام من العلاقات الاجتماعية، غير انني كما اشرت قبلاً، هناك، الى جانب التكنولوجيا المادية، تكنولوجيا فكرية، أو ادوات انتاج فكرية. وهذه التكنولوجيا الفكرية هي الاداة الفعالة المباشرة في تطوير تلك الاشكال من العلاقات الاجتماعية التي تتعلق (على نحو خاص) بالحاجات الروحية- الفكرية – الاجتماعية. بكلمة اخرى: ان انتاج وتطوير العلاقات الاجتماعية يكون وفقاً لانتاجية البشر الفكرية، اضافة الى انتاجيتهم المادية.

باختصار: ان تعبير العلاقات الاجتماعية هو وحدة متكافئة من الاقتصادي – المادي والروحي - الفكري. وقد اظهرت التجربة الاشتراكية النتائج الكارثية التي تترتب على شق هذه الوحدة واستثناء الوجه الثاني (الفكري-الروحي) من نظام الحاجات البشرية الاساسية اللازمة لبناء "مجتمع انساني" جديد.

لهذا فان التركيب الاجتماعي ليس دالة فقط على مستوى تطور الانتاجية المادية (ماركس)، بل ايضا في الوقت ذاته، على مستوى تطور الوعي بالحرية (هيغل). انه وحدة التعبير التي لا تتجزأ لهذين الجانبين. وكما سنرى فإن هذا بالذات هو الذي يجهز الحل لملاحظة ماركس المحيّرة حول "التطور غير المتكافئ للانتاج المادي، ومثلا، ذلك الذي للفن الاغريقي".

8 - لغز الفن الاغريقي

لعل اكثر النصوص التي كتبها ماركس حول الفن، اهمية، بل واثارة للاهتمام هو ما جاء في المدخل Introduction (المخطوطة الشهيرة التي كتبها في 1857، والتي عثر عليها غير كاملة بين اوراقه بعد وفاته، وهي تؤلف الجزء الاول من مجموعة المخطوطات المعروفة بإسم الغروندريسه). القسم الاخير غير المنتهي من هذه المخطوطة تضمن بعض الملاحظات والاسئلة المثيرة للتفكير والجدل حول الفن الاغريقي خاصة، كما لو ان ماركس – كأي عالم جدي – كان يختبر خلال هذه الملاحظات والاسئلة جوهر مفهومه الخاص للتاريخ ذاته. أي العلاقة النوعية المميزة بين التركيب الاساسي المادي والتركيب الفوقي الفكري. هذا يظهر في الشمولية والدقة البالغة اللتين كان يناقش فيهما افتراضاته المتباينة . غير ان السطر الاول من النص يشير الى استنتاج يتعارض مع المبدأ الاساسي لنظريته في التاريخ. ولكنني قبل ان اناقش هذا الاستنتاج اقدم ملخصاً للنقاط الرئيسية للنص: ”التطور غير المتكافئ للانتاج المادي ومثلا، ذلك الذي للفن. فيما يتعلق بالفن، من المعروف ان بعض قممه لا تتطابق بأية حال مع التطور العام للمجتمع، ولان لذلك، مع التركيب التحتي المادي، هيكل تنظيمه اذا جاز التعبير مثلا، الاغريق بالمقارنة مع (الامم) الحديثة، او، ايضا، شكسبير..“.

بعد ذلك يتوسع ماركس في توضيح العلاقة بين الفن الاغريقي والميثولوجيا الاغريقية: ”انها حقيقة معروفة، ان الميثولوجيا الاغريقية ليست فقط ترسانة الفن الاغريقي، بل ايضا التربة ذاتها التي نبع منها..“. ”كل الميثولوجيا تُخضع، وتسيطر على، وتكيّف قوى الطبيعة، في، وخلال الخيال؛ لهذا فانها تختفي حالما يحقق الانسان السيطرة على قوى الطبيعة..“.

”الفن الاغريقي يقتضي ضمنا وجود ميثولوجيا اغريقية.. ولكن، ليست اية ميثولوجيا تؤخذ كيفما اتفق.. الميثولوجيا لا يمكن ابدا ان تكون التربة او الرحم الذي يلد الفن الاغريقي. ولكن على اية حال (يجب ان يكون هناك) ميثولوجيا (فلا يمكن للفن الاغريقي ان ينشأ) اطلاقا في مجتمع يستبعد اي تفسير ميثولوجي للطبيعة، وأي موقف ميثولوجي تجاهها، ويتطلب من الفنان خيالا متحرراً من الميثولوجيا“.

وأخيراً، يشير النص الى صعوبة ادراك علائقية الفن الاغريقي بالنسبة للعصر، وينتهي بتقديم احكام معينة في تقييم الفن الاغريقي والقديم (والامم القديمة) بوجه عام: ”غير ان الصعوبة هي ليست في ادراك الفكرة (القائلة) بأن الفن الاغريقي يرتبط على نحو لا ينفصم مع اشكال معينة من التطور الاجتماعي. انها بالاحرى تكمن في فهم لماذا لا يزال يؤلف معنا مصدرا للمتعة الاستيتيكية، وفي نواحي معينة يسود كمقياس ونموذج لا يمكن بلوغه...“. ”لماذا يجب على الطفولة الاجتماعية للبشرية، حيث حققت اجمل تطور لها، أن لا تمارس سحراً ابدياً كعصر لن يعود ابداً؟“.

أ. واضح ان النص يناقض المبادئ الضمنية الاساسية للمفهوم المادي للتاريخ، التي

تفترض علاقة من التطابق او الاشتقاق بين التركيب القاعدي المادي والتركيب الفوقي الفكري. غير ان المدهش هو ان ماركس يتعامل مع هذا التناقض الملاحظ، اي "التطور غير المتكافئ للانتاج المادي والفن الاغريقي.."، كميزة، او كخصوصية، يمكن تفسيرها بصيغة "سحر ابدي" لـ "الطفولة الاجتماعية للبشرية"، بدلا من صيغة مفهومه الخاص للتاريخ. انه كما لو ان الفن مستثنى من احكام النظرية. وهذا، بوضوح، غير مقبول. فهو (أي التناقض) ممكن ان يعني فقط، ان هناك خللاً في النظرية، وكذلك فانها تتطلب التعديل.

ومع ذلك فان الفن الاغريقي يمكن ان يتطابق بسهولة مع اطار نظري جديد يسمح بتكافؤ مادي – فكري في مكونات تركيبه التحتي. اعني، ان التركيب التحتي (كنمط من قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية معاً) يجب فهمه كوحدة من المادي والفكري، بدلا من تعريفه ككيان مادي فقط. او، كما اشرنا قبلاً، ان التركيب الاجتماعي ليس فقط دالة للانتاجية المادية، بل انه ايضاً، في الوقت نفسه، دالة للحريات الاجتماعية والفردية. بهذا المعنى، يمكن ان يرى كوحدة تجمع بين المفهوم المادي للتاريخ، والمفهوم الهيغلي الذي يرى التاريخ العالمي كـ "تطور الوعي بالحرية".

الفن الاغريقي يمكن تفسيره حقاً، وفقا لإطار يأخذ بنظر الاعتبار ايضاً، الديمقراطية الاغريقية والازدهار الاستثنائي للابداع الفكري الذي اقترن بها. هذه الديمقراطية كانت فريدة في ظروف العالم القديم. انها مثلت شكلاً أولياً جديداً من تركيب اجتماعي اقترن بسلطة الطبقات الوسطى. وقد تضافر عدد من الظروف لضمان نجاحه. غير انه حدث على خلفية من العبودية – وهي مؤسسة تعتبر الآن بحق شيئا بغيضا ومداناً بشدة على نحو كوني. ولكنها في سياق عصرها، كانت تعتبر، وفقا لكلمات ارسطو، حالة متأصلة في الطبيعة ذاتها.

ب- أصرّ ماركس على توكيد الفرق بين الميثولوجيا المصرية والميثولوجيا الاغريقية. وهذه نقطة هامة. غير اننا يجب ان نلاحظ ان الاولى متأصلة في لاهوت كهنوتي يقترن باستبداد إلهي، في عصر برونزي. بينما الثانية ملونة بالتأملات الفلسفية – العلمية لمواطنين احرار، في ديمقراطية دول مدينية لعصر حديدي.

ج- من ناحية اخرى، فان الفن الاغريقي كان متأثراً بالفلسفة والعلوم والرياضيات.. الخ الاغريقية، تماما بقدر تأثره بالميثولوجيا الاغريقية، مثلاً، مفهوم الشكل المثالي والجمال المثالي، التناسب والتناسق والانسجام والتوازن الرياضي، ديالكتيكية الحركة – الانسانية (وحتى الحركة الحيوانية) الخ [53]. حقا لا يمكن التوصل الى فهم حقيقي لكل من شكل ومضمون الفن الاغريقي، دون اشارة الى افكار فلاسفة وعلماء مثل: فيثاغورس وهيراقليطس وديمقريطس وافلاطون.. الخ. وماركس، كما هو معلوم، كان "محبا امينا" للثقافة الاغريقية، وكان متعوداً على قراءة اسخيلوس على نحو منتظم في الاصل الاغريقي[54]. وقد كتب اطروحته حول "الفرق بين الفلسفة الطبيعية لديمقريطس وابيقور" حينما كان لا يزال شاباً في الثالثة

والعشرين من العمر. لهذا يصعب تفسير السبب الذي جعله يربط الفن الاغريقي فقط بالميثولوجيا الاغريقية، دون اشارة، بالمثل، الى الفكر الفلسفي – العلمي الاغريقي. غير ان هذا من الناحية الاخرى، يمكن ارجاعه ببساطة الى حقيقة ان النص هو غير كامل، او انه مجرد مسودة تمهيدية كما اشرنا قبلاً.

د- اما "لماذا لا يزال" الفن الاغريقي، "يؤلف معنا مصدراً للمتعة الاستيتيكية وفي نواحي معينة يسود كمقياس ونموذج لا يمكن بلوغه .."، فإن تعليقي هو: ان ماركس كتب هذا النص في منتصف خمسينيات القرن الماضي، لذلك ان كلمة "لا يزال" تشير دون شك الى تلك الفترة. كما نعلم فإن القرن العشرين شهد طفرة في تطور الفكر الفني والعلمي، وفقد الفن الاغريقي مركزه "كمقياس ونموذج لا يمكن بلوغه". ان كامل نظرية وممارسة الفن انتقل الى منطقة تخيلية جديدة، لم يحلم بها مفكرون مثل ماركس.

خاتمة

الاطار التركيبي للمفهوم المادي للتاريخ، هو اطار ثنائي المستوى – مشيد وفقاً لمبدأ اولوية المادة/ الوجود على الفكر/ الوعي: هناك تركيب تحتي مادي، وعليه يقوم تركيب فوقي فكري، من اشكال وعي اجتماعي وتراكيب سياسية – قانونية. انه اطار مركب على نحو من استعارة مجازية لعلاقة الارض – السماء، التي اشرنا إليها.

ولكن، العمليات المجتمعية الفعلية هي اكثر تعقيداً مما يمكن ان يسمح به هذا الاطار. الجانبان المادي والفكري، كما رأينا، يتواجدان كوحدة لا تتجزأ في كافة التراكيب المجتمعية، حتى اذا اخذناها وفقا لقواعد هذا المفهوم في قوى الانتاج كعناصر مادية وبشرية في العلاقات الاجتماعية، كعلاقات مادية (انتاجية) وعلاقات لا مادية (ايديولوجية- سياسية- اخلاقية ..الخ). وفي التركيب الفوقي كأشكال وعي اجتماعي اضافة الى مؤسسات سياسية وقانونية (دولة). من ناحية اخرى هناك ايضا، كما رأينا التباس مربك في الصيغ التي تحدد اشكال وطبيعة العلاقات التي تربط التركيبين التحتي والفوقي. في هذا الاطار الثنائي. مثلاً، علاقة اشكال الوعي مع مكونات التركيب التحتي (أي، قوى الانتاج وعلاقات الانتاج). اضافة الى ذلك هناك غموض في مقولاته الاساسية، مثلاً، المادة، المادية، الديالكتيكية ..الخ.

لهذا فان مبدأ اولوية المادة على الفكر الذي هو حجر الزاوية في "المفهوم المادي للتاريخ". لم يعد نافذاً كمبدأ للحياة، ينبغي تغييره او استبداله بمبدأ جديد يسمح بموديل اجتماعي – تاريخي اكثر انسجاماً مع الواقع. المبدأ البديل هو ما اسميه مبدأ تكافؤ الفكر – المادة. انه يقوم على مفهوم المجال. واقرب نظير اجتماعي – مفهومي له هو مفهوم المجال البضاعي لماركس، الذي يمكن ان يخدم على نحو ما من صورة مجازية: هناك تركيب او (مجال) جوهري يمثل "مجموع قوة عمل المجتمع"، وتتكون ماهيته من العمل البسيط المتجانس (الجسدي والفكري) لمجموع افراد المجتمع، وينشأ عن هذا التركيب الجوهري (التحتي)،

او، يقترن به تركيب آخر من تجسيدات ظاهرية (كظواهر ثانوية) تتخذ شكل منتجات وعلاقات ومؤسسات ..الخ، ذات مضامين مادية وفكرية تمثل مقادير اكبر او اصغر من هذا العمل البشري الذي يؤلف ماهيتها. هذه التجسيدات (او المنتجات.. الخ) بمجموعها تشكل بالنسبة لعملية العمل الاجتماعي التركيب الفوقي (المظهري) المادي والفكري الذي ينشأ عنه.

بكلمة اخرى، ما هو جوهري ("كطاقة بشرية مصروفة"، كما يقول ماركس)، يتجسد على شكل منتجات مظهرية. او انه كعمل جسدي – فكري لتكييف مادة الطبيعة لحاجات الانسان، يدمج نفسه مع موضوعه، يتجسد كمظهر، في عملية تغيير شكل الموضوع. هذا يعني ايضا ان المادة والفكر يؤلفان وحدة تتواجد بالضرورة بأشكال مختلفة، على المستويين الجوهري والمظهري معاً؛ مما يعطينا ضمنا تراكيب متكافئة تمثل جوهر ومظهر الواقع، كمستويين من الوجود، صورة الواقع وفقاً لمبدأ تكافؤ الفكر – المادة.

هذا يختلف عن الاطار ثنائي المستوى الذي يشيّده المفهوم المادي للتاريخ وفقاً لمبدأ اولوية المادة على الفكر، والذي يعني شق الواقع المادي - الفكري (في الصورة التي يرسمها المجتمع، ونمط تطوره التاريخ)، اعطاء الاولوية الى الجانب المادي (كتركيب تحتي) واختزال الفكر الى دور ثانوي اشتقاقي (كتركيب فوقي). الصورة هي مواصلة وتعبير لصراع بين المادية والمثالية (كأيديولوجيتين متضادتين) سادت تاريخ الفكر البشري لآلاف السنين، غير انه في الاصل نتاج لفهم بدائي ميثولوجي يسببه الكون، المعرفة البشرية المعاصرة تسمح (تجريبياً، عملياً) بتجاوز هذا الصراع نحو موقف جديد يقوم على التعامل مع المادة والفكر كصفتين (من بين عدد لا متناه من الصفات) لماهية كونية جوهرية، هي المجال الفيزيائي. لهذا يمكن القول اننا نشهد الآن تحولاً فكرياً لا مثيل له، مثل انتقالاً من ثنائية المادة – الفكر الى احادية المجال، او – بالنسبة لموضوعنا – من مبدأ اولوية المادة او الفكر، الى مبدأ تكافؤهما.

باختصار: هناك تركيب او مجال تحتي (مادي – فكري) فعال من قوى انتاج (مادية وفكرية) وعلاقات اجتماعية (مادية/ انتاجية وفكرية/ ايديولوجية). اعني، من كائنات بشرية مع معداتها (تكنولوجيتها) الاصطناعية (المادية والفكرية) تعمل ضمن اطار محدد تاريخيا من العلاقات. ومن هذا العمل الفعال الذي يقوم به البشر لاعادة انتاج الطبيعة والمجتمع، ينشأ تركيب فوقي، تجسيدات او ظواهر ثانوية فوقية، عالم من منتجات وموضوعات وايديولوجيات ومؤسسات ..الخ. مادية وفكرية على حد سواء، يخلقها البشر لاشباع حاجاتهم المادية والروحية المتنوعة، وادامة تماسك وعمل وتطور المجتمع.

*** الثقافة الجديدة – العدد 283، تموز ـ آب 1998**

**** نعيد نشر هذه الخلاصة كما ورد في ختام الحلقة الاولى لإفادة من لم يطلع عليها- ث.ج**

الهوامش

Copleston, Frederick, A History of Philosophy. P. 316. - 25
Carver, Terrell, Engels. Oxford University Press. Pp 62- 63. - 26
Gramsci, Antonio. Selections from Prison Notebooks. P 456- 57. - 27
Cornforth, Maurice. "Marxism and Science". December 1969, p 358. -28
Anti- Duhring p 36. -29
SW .vol 3, pp. 339- 40. -30
Mclellan, David, Marx. P 77. -31
Anti- Duhring , pp. 13- 4. -32
Ibid, p 33. -33
Lenin, V. I Materialism and Empiro- Criticism (Moscow Foreign Languages Publishing. -34
Ibid, p 127. -35
Prison Notebooks. pp 465- 66. -36
German Ideology, p 59. -37
1844 MSS. P 145. -38
Ibid, p 127. -39
German Ideology , p 57. -40
Capital , vol I. P 180. -41
1844 MSS. P 63. -42
Capital , vol I. P 74. -43
1844 MSS, P 97. -44
German Ideology , p 50. -45
CW. Vol 38. P 212. -46
1844 MSS, P 145. -47
Ibid. p. 135. -48
Capital, P 20. -49
German Ideology, p. 37. -50
Capital, p. 178. -51
Dictionary of Philosophy . p. 387. -52
Clark, Kenneth. The Nude. PP 9- 33. -53
Marx, Karl. And Frederick Engels. Literature and Art. Pp.122- 126. -54

نصوص مترجمة

سياسات الهوية.. واليسار

اريك هوبزباوم
ترجمة: سوران قحطان

محاضرتي هذه ستكون بشأن موضوع جديد بشكل مفاجئ*. لقد اصبحنا معتادين على مصطلحات مثل ''الهوية الجماعية''، و''مجموعات الهوية''، و''سياسات الهوية'' وفي نفس السياق ''الاثنية''؛ بحيث صار من الصعوبة ان نتذكر انها طفت منذ وقت قريب على السطح، كجزء من القاموس او الرطانة المعاصرة للحوار السياسي. على سبيل المثال، اذا القيتم نظرة على الموسوعة العالمية للعلوم الاجتماعية، والتي صدرت في عام 1968 - أي انها كتبت في اواسط الستينات - لن تجدوا مدخلات تحت (مفردة)(1) هويــة ما عدا واحدة عن الهوية النفسية، كتبت من قبل اريك اريكسون، والاخير كان معنيا الى حد كبير بمسائل من قبيل ما يسمى ''ازمة هوية'' المراهقين الذين يحاولون اكتشاف ذواتهم، واخرى عن هوية الناخبين. بالنسبة لـ[مفردة] الاثنية، نجد انها في قاموس اوكسفورد الانكليزي الذي صدر في بدايات السبعينات، ما زالت تظهر ككلمة نادرة تدل على ''الوثنية وخرافات الوثنيين'' وهي موثقة باقتباسات من القرن الثامن عشر.

باختصار، اننا نتعامل هنا مع مصطلحات ومفاهيم بدأ استعمالها فعليا فقط في ستينات القرن العشرين. وانبثاقها يمكن تتبعه بسهولة في الولايات المتحدة الامريكية. والى حد ما لأنها كانت دوما المجتمع ذا الاهتمام غير العادي بمراقبة درجة حرارته وضغط دمه الاجتماعية والنفسية، وغيرها من الاعراض، ولكن على الاغلب لأن الشكل الاكثر وضوحا لسياسات الهوية - لكن ليس الوحيد - اي الاثنية، كان دائما مركزيا بالنسبة للسياسات الامريكية منذ ان اصبحت بلد الهجرات الجماعية من انحاء أوربا. ان الاثنية الجديدة شهدت اول ظهور علني لها تقريبا مع كتاب كليزر وموينهانز ''ما وراء وعاء الانصهار'' في 1963(2)، ثم اصبحت برنامجا كفاحيا في كتاب ميشيل نوفاك ''صعود الاثنيات غير القابلة للانصهار'' عام 1972(3). بالنسبة للعمل الأول، لا يحتاج ان اخبركم انه كان نتاج عمل بروفيسور يهودي، وايرلندي هو الان عضو مجلس الشيوخ الاكبر عن الحزب الديمقراطي لمدينة نيويورك. اما العمل الثاني فقد جاء من كاثوليكي من اصل سلوفاكي. في الوقت الحالي لا نحتاج لأن نزعج انفسنا بالتساؤل لماذا حصل هذا في الستينات، لكن دعوني اذكركم انه في هذا العقد - بالطراز الامريكي على الاقل - شاهدنا ايضا نشوء شكلين آخرين مختلفين من سياسات الهوية: الحركة

النسائية الحديثة (بمعنى ما بعد حركة منح حق الاقتراع)، وحركة المثليين.

أنا لا اقول انه قبل عقد الستينات لم تتواجد مجموعات تساءلت مع نفسها عن هويتها العامة. ففي حالات الشك وانعدام اليقين هم يفعلون ذلك احيانا؛ على سبيل المثال في منطقة اللورين، الحزام الصناعي في فرنسا، التي تغيرت لغتها الرسمية وجنسيتها خمس مرات في قرن واحد، والتي تغيرت حياتها الريفية الى حياة صناعية، وشبه حضرية بينما اعيد رسم حدودها سبع مرات في القرن والنصف الماضيين، لا عجب ان يقول الاهالي: ''البرلينيون يعرفون انهم برلينيون، الباريسيون يعرفون انهم باريسيون، لكن من نحن؟''. أو، ولنقتبس من مقابلة اخــرى: ''اتيت من اللورين، ثقافتي المانية، جنسيتي فرنسية، وانا افكر بلهجتنا الاقليمية'' [4]. في الواقع، هذه الأمور تؤدي الى مشاكل هوية حقيقية عندما يمنع الناس من امتلاك هويات متعددة، ومندمجة والتي هي طبيعية بالنسبة لأغلبنا. او أكثر من ذلك عندما ينفصلون ''عن الماضي وعن كل الممارسات الثقافية المشتركة''[5]. ومع ذلك، فحتى الستينات بقيت مشاكل الهويات الملتبسة هذه حبيسة تخوم خاصة من مناطق السياسة، ولم تصبح بعد مركزية.

ويبدو ان مشاكل الهوية هذه اصبحت اكثر مركزية بكثير منذ الستينات. لماذا؟ بلا شك ان من الاسباب المهمة لذلك هي سياسات ومؤسسات هذا البلد او ذاك - على سبيل المثال الاجراءات الغريبة المفروضة على الولايات المتحدة بواسطة دستورها، احكام الحقوق المدنية في الخمسينات مثلا، والتي طبقت في البداية على السود، ومن ثم وسعت لتشمل النساء، والتي وفرت نموذجا لمجموعات هوية اخرى. وكذلك يمكن ان تحدث بالأخص في البلدان التي تتنافس فيها الاحزاب على الاصوات، فهي تشكل نفسها بمثل جماعة هوية ما، لأن هذا قد يوفر لها فوائد سياسية ملموسة: تمييزا ايجابيا لصالح اعضاء المجموعة، محاصصة في مجال الوظائف وغيرها. وهذا الحال ليس موجودا ايضا في الولايات المتحدة فقط؛ ففي الهند مثلا، عندما تتعهد الحكومة بالعمل على تحقيق مساواة اجتماعية، فقد تدفع اموالا بصورة فعلية، من اجل ان تصنف نفسك ضمن طائفة ادنى او كمنتمي الى مجموعة قبلية بدائية، من اجل ان تتمتع بإمكانية وصول اكبر للوظائف المضمونة لهذه المجموعة.

إنكار الهوية المتعددة

لكن من وجهة نظري فإن بزوغ سياسات الهوية هو نتيجة للاضطرابات والتحولات العميقة والسريعة للغاية للمجتمع البشري في الربع الثالث لهذا القرن[6]، والتي حاولتُ وصفها وفهمها في كتابي التاريخي ''عصر التطرفات القرن العشرين الوجيز'' [7]. وهذا ليس رأيي فقط؛ فالعالم الاجتماعي الامريكي (دانيال بيل) مثلا، جادل في عام 1975 ان '' تدهور بنى السلطة التقليدية والوحدات الاجتماعية السابقة والمؤثرة - تاريخيا الامة والطبقة.. تجعل من الروابط الاثنية اكثر بروزا''[8].

في الواقع، نحن نعلم ان كلا من الدولة - الامة والاحزاب والحركات السياسية القائمة على اساس طبقي، قد تم اضعافها بسبب نفس التحولات. اكثر من ذلك، نحن عشنا وما زلنا خلال "ثورة ثقافية" ضخمة، و"تحلل استثنائي للبنى والمعايير والقيم الاجتماعية التقليدية، والتي تركت العديد من قاطني العالم المتطور يتامى وثكلى". وإذا استمريت مقتبسا من كتابي "لم يصبح استخدام الكلمة (جماعة)[9] فارغا وكيفما اتفق مثلما اصبح في العقود التي صار فيها العثور على هذه الجماعات بالمعنى الاجتماعي صعبا في الحياة الحقيقية "[10]. الرجال والنساء يبحثون عن مجموعات من الممكن أن ينتمون لها، يقينا والى الابد، في عالم كل شيء آخر فيه متغير ومتحول، ولا شيء آخر فيه يقيني. هذا اليقين يجدونه في هوية المجموعة. وبالتالي فالمفارقة الغريبة، والتي ميزها اورلاندو باترسون وهو بالصدفة عالم اجتماع كاريبي من هارفرد: يختار الناس الانتماء الى مجموعة هوية ما، ولكن "هو اختيار مستند إلى اعتقاد متمسك به بقوة، ومدرك بكثافة، ان الفرد لا يملك خيارا إلا بالمطلق بالانتماء الى هذه المجموعة المعينة"[11]. وهذا الخيار يمكن احيانا ان يتم توضيحه. عدد الامريكان الذين اعلنوا عن انفسهم كـ "هنود أمريكان" او "أمريكان من السكان الاصليين" تضاعف اربع مرات تقريبا بين 1960 و 1990، من حوالي نصف مليون الى حوالي مليونين، والى حد بعيد لا يمكن تفسير هذه الزيادة الى زيادة طبيعية في الاحصائيات السكانية؛ وبالمناسبة، بما ان 70% من "السكان الاصليين الأمريكان" يتزوجون من خارج سلالتهم، فإن تحديدا اثنيا دقيقا لمن هم "السكان الاصليين"، هو أمر بعيد كل البعد عن ان يكون واضحا[12].

وبالتالي، ماذا نفهمه من هذه "الهوية" الجماعية. عاطفة الانتماء هذه لمجموعة بدائية، ما هو اساسها؟ سوف أوجه انتباهكم لأربع نقاط:

أولا الهويات الجماعية، تعرف سلبيا، أي بالضد من آخرين. فـ "نحن" ندرك انفسنا كـ "نحن" وذلك لأننا نختلف عن "هم". فإذا لم يكن هناك "هم" نختلف عنهم، لم تكن هناك حاجة كي نسائل انفسنا من "نحن" فبدون الغرباء لا وجود للمنتمين. بمعنى آخر، الهويات الجماعية لا تقوم على ما يشترك فيه اعضاؤها مع بعضهم البعض - من الممكن ان تكون المشتركات قليلة جدا فيما عدا اننا لسنا "هم". الاتحاديون والقوميون في بلفاست، أو الصرب والكروات والبوسنيون المسلمون، يتكلمون نفس اللغة، لديهم نفس اسلوب الحياة، متشابهون ويتصرفون بنفس الطريقة، ولا يمكن التمييز بينهم إلا لأنهم يؤكدون على المسالة الوحيدة التي تقسمهم والتي صادف ان تكون الدين. وبالعكس، ما يمنح مزيجا سكانيا يتكون من مسلمين من مشارب متعددة، ويونان ورومان كاثوليك، ويونان ارثوذكس، وغيرهم، الوحدة كفلسطينيين هو ببساطة انهم ليسوا اسرائيليين. وكما تذكرهم السياسة الاسرائيلية باستمرار. بينما في ظروف اخرى مختلفة من الممكن ان يتقاتل هؤلاء كما هو حال جيرانهم اللبنانيين.

بالطبع، هناك مجاميع تقوم على اساس مميزات موضوعية يشترك فيها اعضاؤها، من ضمنها الجنس البايلوجي، او تلك الصفات الجسمانية الحساسة سياسيا، مثل لون البشرة وغيرها. ومع ذلك، فإن اغلب الهويات الجماعية تشبه القميص اكثر من الجلد، بمعنى انها نظريا على الاقل اختيارية وليست محتومة. وبصرف النظر عن الموضة المعاصرة التي تتلاعب بأجسامِنا، ما زال ارتداء قميص آخر اسهل من تبديل الذراع. اغلب جماعات الهوية لا تقوم على تشابهات أو اختلافات جسمانية موضوعية، بالرغم من ان جميعهم يفضل ان يدعي انها ''طبيعية'' بدلا من كونها مبنية اجتماعيا. من المؤكد ان كل المجموعات الاثنية هي كذلك.

ثانيا، بالتالي في الحياة الفعلية، الهويات مثلها مثل الثياب، قابلة للتبديل أو الارتداء معا عوضا من كل واحدة لوحدها. ومتى ما تم ارتداؤها فسوف تلتصق بالجسم. وكما تعلم جميع استطلاعات الرأي لا يوجد من يمتلك هوية واحدة، وواحدة فقط. وحتى لأغراض بيروقراطية بحتة، لا يمكن وصف البشر إلا بمزيج من عدد من الصفات المميزة. لكن سياسات الهوية تفترض ان واحدة من بين الهويات المتعددة التي نمتلكها، هي التي تحدد، او على الاقل تهيمن على سياساتنا، مثلا: اذا كنت ناشطا نسويا يجب ان تكون امرأة، اذا كنت وحدويا من شمال ايرلندا يجب ان تكون بروتستانتيا. اذا كنت ناشطا قوميا كاتلونيا يجب ان تكون كاتلونيا، وان تكون مثليا، اذا كنت ضمن حركات مثلي الجنس. وبالتأكيد، يجب ان تتخلص من الهويات الاخرى، اذا كانت تتعارض مع ''حقيقتك'' هذه. مثل الدعوة الصارمة لـ ديفيد سلبورن وهو منظر متعدد الاهداف وناقد عام، أن ''اليهودي في انكلترا'' يجب ان ''يكف عن ادعاء انه انكليزي'' وان يسلم بأن هويته ''الحقيقية'' هي انه يهودي. وهذا الامر خطير وسخيف على حد سواء. فلا وجود لانعدام توافق فعلي [بين الهويات] ما لم تكن هناك سلطة خارجية تخبرك انك لا يمكن ان تكون كلها، او ما لم يكن هذا مستحيلا جسديا. اذا رغبت في ان أكون في الوقت ذاته مسكونيا (Ecumenically) وكاثوليكيا ورعا، يهوديا متدينا، وبوذيا مخلصا، فلماذا لا يمكنني ذلك؟ السبب الوحيد الذي يمنعني من ذلك هو ان السلطة الدينية المختصة تبلغني انني لا يمكن ان اجمع بينهم، أو لأنه من المستحيل ممارسة جميع شعائرهم الدينية معا لأن بعضها يتعارض مع البعض الآخر.

لا توجد مشكلة عند الناس، عادة ان يجمعوا بين الهويات، وهذا هو اساس السياسات العامة والتي تتميز عن سياسات الهوية القطاعية. وغالبا ما لا يكلف الناس انفسهم عناء الاختيار بين الهويات، إما لأن احدا لم يسألهم ذلك، او لأن هذا موضوع معقد جدا. وعندما يسأل سكان الولايات المتحدة الامريكية ان يصرحوا عن اصولهم الاثنية، فإن 54% منهم يرفضون او هم غير قادرين على اعطاء جواب. باختصار فإن سياسات الهوية الحصرية لا تقع بصورة طبيعية عند الناس. والاكثر احتمالا انها فرضت عليهم بالقوة من الخارج - سواء بنفس الطريقة التي اجبر فيها الصرب، والكروات والمسلمين على الانفصال، وهم من عاشوا وتزوجوا وخلقوا صداقات

مع بعضهم البعض، او بطرق أخرى اقل وحشية.
ثالثا الهويات ، او اشكال التعبير عنها، ليست ثابتة، حتى لو افترضنا انك اخترت واحدة من ذواتك الكامنة، بالطريقة التي اختار فيها ميشيل بورتيملو[13] ان يكون بريطانيا بدلا من اسباني. وهي تتناوب ويمكن ان تتغير، اكثر من مرة، اذا كانت هناك حاجة. على سبيل المثال المجموعات غير الاثنية، والتي صادف ان جميع او اغلب اعضائها من السود او يهود، قد تتحول بصورة واعية الى مجموعات اثنية. وهذا ما حدث للكنيسة المعمدانية المسيحية الجنوبية عندما كان مارتن لوثر كنغ يقودها. العكس ممكن الحدوث ايضا، مثلا عندما تحول الجيش الجمهوري الايرلندي الرسمي من القوميين الفينيان الى منظمة طبقية، والتي هي الآن حزب العمال الذي هو حاليا جزء من ائتلاف حكومة الجمهورية الايرلندية.
المسالة الرابعة والاخيرة التي تذكر حول الهوية، هي انها تعتمد على السياق، والذي يمكن ان يتغير. يمكننا جميعا ان نفكر في اعضاء جماعة المثليين في اوكسبورج[14] في عشرينيات القرن العشرين، وهم اعضاء يحملون بطاقة الانتماء، ويدفعون الاشتراكات، وقد تحولوا بعد انهيار 1929 وصعود هتلر، وكما كان يقال: من الهومنترن الى الكومنترن[15]. حيث نقل بورغيس وبلانت مثليتهما من المجال العام الى المجال الخاص[16]. أو تأمل حالة العالم الكلاسيكي البروتستانتي الالماني باتر، استاذ الكلاسيكيات في لندن، والذي اكتشف على حين غرة، بعد هتلر، انه كان عليه ان يهاجر، لأنه في الحقيقة يهودي وفق المعايير النازية، وهي حقيقة كان حتى تلك اللحظة غير مدرك لها. ومهما كان يعرف نفسه في ما مضى، فقد وجد الآن هوية مختلفة.

شمولية اليسار

ما علاقة هذا كله باليسار؟ مجموعات الهوية بالتأكيد لم تكن مركزية بالنسبة لليسار. ان الحركات الجماهيرية الاجتماعية والسياسية لليسار، تلك التي ألهمت بالثورة الامريكية والفرنسية وبالاشتراكية[17]، كانت في الاساس فعليا ائتلافات او تحالفات مجموعة، لكنها لا تتماسك معا بالأهداف الخاصة بالمجموعة، بل بقضايا عظيمة شاملة، حيث تؤمن كل مجموعة ان اهدافها المحددة ستتحقق بواسطتها: ديمقراطية، الجمهورية، اشتراكية، شيوعية او أيا كان. حزب العمال خاصة في ايامه العظيمة كان في نفس الوقت حزبا طبقيا، وايضا وبين اشياء اخرى، حزب قوميات الاقلية وجماعات المهاجرين لبريطاني البر الرئيسي. لقد كان كل هذا لأنه كان حزب المساواة والعدالة الاجتماعية.
ودعنا لا نسيء فهم ادعاء ان يكون الحزب قائما بصورة جوهرية على اساس طبقي. فحركات العمال السياسية والحركات الاشتراكية لم تكن ابدا وفي اي مكان حركات مقصورة بصورة اساسية على البروليتاريا بالمعنى الماركسي الحصري. فما كان لهذه الحركات ان تكون بهذا الاتساع لو كانت كذلك، لأنه في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر في الوقت

الذي ظهرت فيه الاحزاب العمالية والاشتراكية الجماهيرية فجأة الى المسرح كحقل من الزهور في الربيع، كانت الطبقة العاملة الصناعية في اغلب البلدان، ربما باستثناء بريطانيا، اقلية صغيرة الى حد ما، وفي كل الاحوال فإن الكثير منها كان خارج منظمات العمال الاشتراكية. ونتذكر انه قبل حدوث الحرب العالمية الاولى، نالت الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية بين 30 - 47% من اصوات الناخبين في بلدان مثل الدنمارك، السويد، فلندا، وهي كانت بالكاد بلدانا صناعية، بالإضافة الى المانيا. (اكبر نسبة من الاصوات تحصل عليها حزب عمالي في هذا البلد كانت 48% سنة 1951). بل اكثر من ذلك، ان قضية الاشتراكية ومركزيتها بالنسبة للعمال في حركتهم لم تكن قضية قطاعية خاصة. ان الاتحادات والنقابات هي ما كانت تناضل من اجل مصالح قطاعية للأجراء، وأحد اهم اسباب كون العلاقة بين الاحزاب الاشتراكية والعمالية والاتحادات والنقابات ذات الصلة لم تكن دون مشاكل، هو ان اهداف الاحزاب كانت اوسع من اهداف النقابات. ان مناظرة الاشتراكيين الرئيسية لا تقوم على ان اغلب الناس ''اما شغيلة يد او فكر'' فقط، بل كان يقوم على ان العمال هم القوة التاريخية الضرورية لتغيير المجتمع. وبالتالي وبغض النظر من تكون، اذا اردت المستقبل، فيجب ان تذهب مع حركة العمال.

وبالعكس، عندما تقلصت الحركة العمالية الى درجة انها اصبحت مجموعة ضغط او حركة قطاعية ضيقة للعمال الصناعيين، كما في بريطانيا في سبعينيات القرن العشرين، فإنها فقدت قدرتها على ان تكون مركزا محتملا للتعبئة العامة للناس، وكذلك الامل العام بالمستقبل. ان النقابية ''الاقتصادية'' المتشددة اثارت عداوة كل من لم يرتبط بها مباشرة، الى الحد الذي منح السياسات التاتشرية المحافظة اغلب حججه المقنعة - ومبررا من اجل تحويل حزب الامة الواحدة، حزب المحافظين، الى جيش لشن حرب طبقية قاسية. بالإضافة الى ان سياسات الهوية البروليتارية لم تقم فقط بعزل الطبقة العاملة، بل قامت بشقها ايضا، عبر وضع مجاميع العمال ضد بعضهم البعض.

ماهي علاقة سياسات الهوية باليسار إذن؟ دعوني اصرح وبحزم بما يجب ان لا تعاد صياغته. ان المشروع السياسي لليسار هو الشمولية: انه لكل البشر. انها ليست حرية حاملي الاسهم او السود، بل الحرية للجميع. هي ليست مساواة كل اعضاء نادي غاريك[18] او ذوي الاحتياجات الخاصة، بل المساواة للجميع. وهي ليست أخوية للإتونين[19] او للمثليين، بل أخوية للجميع. بينما سياسات الهوية هي من الناحية الجوهرية ليست للجميع ولكن لأعضاء مجموعة واحدة فقط. وهذا واضح جدا في حالات الحركات الاثنية والقومية. القومية اليهودية الصهيونية، وبغض النظر عما اذا كنا متعاطفين معها او لا، هي حصرية لليهود، بينما هي تبعد الآخرين او تقذفهم بالقنابل. كل الحركات القومية تكذب حين تدعي انها مع حق الجميع في تقرير المصير.

وذلك هو السبب لماذا لا يمكن لليسار ان يبني نفسه على اساس سياسات الهوية.

فلديه اجندة اوسع. فإيرلندا بالنسبة لليسار، تاريخيا هي واحدة وواحدة فقط من بين الكثير من الضحايا والمجاميع المستغَلة والمضطهَدة، والتي يناضل من اجلها. بالنسبة للحركات القومية من نوع الجيش الجمهوري الايرلندي، فإن اليسار هو واحد وواحد فقط من الحلفاء الممكنين في صراعها من اجل تحقيق اهدافها في حالات معينة. وفي حالات اخرى هي مستعدة لاعتماد دعم هتلر، كما فعل بعض قادتها في الحرب العالمية الثانية. وهذا ينطبق على كل مجموعة تجعل من سياسات الهوية اساسها، سواء كان اثنيا او غيرها.

ان الاجندة الواسعة لليسار تعني بالطبع انها تدعم الكثير من مجاميع الهوية، على الاقل لبعض الوقت، وهم بدورهم يتطلعون الى اليسار. بالتأكيد، بعض هذه التحالفات قديمة جدا، وحميمية جدا، بحيث ان اليسار يتفاجأ عندما تنتهي، كما يتفاجأ الناس عندما يحدث الطلاق بعد زواج طويل. ففي الولايات المتحدة الامريكية يبدو غير طبيعي ان الاثنيات من جماهير المهاجرين الفقراء وذريتهم لا يصوتون بصورة تلقائية للحزب الديمقراطي. وهو يبدو امرا لا يصدق ان الامريكيين السود يفكرون للترشح لرئاسة الولايات المتحدة كجمهوريين (وهنا انا افكر في كولن باول). المصالح المشتركة للأمريكان الايرلنديين، والايطاليين، واليهود، والسود في الحزب الديمقراطي لا تشتق بصورة مباشرة من اثنيتهم الخاصة، رغم ان السياسيين الواقعيين يجلبون انتباههم لها. ما يوحدهم هو توقهم للمساواة والعدالة الاجتماعية، والبرامج التي يؤمنون انها يمكن توفرها.

المصالح المشتركة

لكن هذا بالضبط ما أهملتهُ العديد من قوى اليسار، وكأنها تغوص ورأسها نحو الاسفل في مياه سياسات الهوية العميقة. فمنذ سبعينيات القرن العشرين هناك ميل وهو ميل متزايد لاعتبار اليسار، جوهريا، ائتلافا لمجموعة من الاقليات والمصالح: العرق، الجندر، والتفضيلات الثقافية، اساليب الحياة، ومعها الاقليات الاقتصادية، مثلما اصبحت الطبقة العاملة الصناعية الآن. وهذا الامر مفهوم بما فيه الكفاية، ولكنه خطر، لأسباب ليس من اقلها ان الفوز بالأكثرية ليس هو نفسه اضافة اقليات الى بعضها البعض.

اولا، دعني اكرر: مجموعات الهوية هي عن ذاتها، ولذاتها وليست لأحد آخر. ان ائتلاف هذه المجموعات والتي لا تتماسك مع بعضها البعض بواسطة مجموعة واحدة مشتركة من الاهداف او القيم، وانما باتفاق لغرض ما، وهي تشبه نوعا ما التحالفات المؤقتة في حرب ضد عدو مشترك. وهي تتحطم عندما تفقد سبب تماسكها. على اي حال، فإنها كمجاميع هوية، لا تلتزم مع اليسار كما هو، وانما فقط من اجل الحصول على الدعم من اجل تحقيق اهدافها متى ما استطاعت. فاذا نظرنا الى تحرر المرأة كقضية شديدة الترابط مع اليسار، وهو ما كان فعلا منذ بداية الحركة الاشتراكية، حتى قبل ماركس وانجلز. بينما من الناحية التاريخية، فإن حركة نضال المرأة البريطانية من اجل نيل حق الاقتراع قبل عام 1914 كانت حركة للأحزاب الثلاثة

جميعا، وأول مرأة عضوة برلمان كانت من حزب المحافظين[20].

ثانيا، مهما تكن بلاغتها، فإن حركات ومنظمات سياسات الهوية الفعلية تحرك اقليات فقط، قبل ان تمتلك سلطة الاكراه والقانون. الشعور القومي قد يكون شاملا، لكن الى حد علمي، لا يوجد حزب قومي انفصالي في دولة ديمقراطية حتى الآن على الإطلاق حاز غالبية الاصوات في دائرته الانتخابية، على الرغم من ابناء مقاطعة كيبك (كندا – المترجم) في الخريف الماضي كانوا قريبين من ذلك، لكن القوميين هناك كانوا حريصين على ألا يطالبوا فعليا بالانفصال الكامل بكلمات كثيرة بعد ذلك. انا لا أقول ان هذا لا يمكن او لن يحصل، ولكن اقول فقط ان اسلم طريق من اجل نيل الاستقلال القومي بالانفصال يكون عن طريق عدم الطلب من الناس التصويت من اجله، حتى تكون قد حصلت عليه اولا بوسائل اخرى.

بالمناسبة، هذا ما يجعل سببان براغماتيان كي نكون ضد سياسات الهوية. [الاول] بدون هذا الضغط والاكراه الخارجي، وفي ظروف طبيعية من الصعوبة بمكان ان يتم تحشيد اكثر من اقلية من المجموعة المستهدفة. وبالتالي فإن محاولات تشكيل احزاب نسوية مستقلة لم تكن مجدية الى حد كبير من اجل دفع النساء للتصويت. السبب الثاني هو أنه محاولة اجبار الناس على ان تكون لهم هوية واحدة، وواحدة فقط، تفصل بعضهم عن بعض. وبالتالي فهي تعزل هذه الاقليات.

بناء على ذلك فإن الالتزام بحركة عامة مطالِبة بحقوق اقليات، والتي لا تشتمل بالضرورة على كل الجمهور، هي عملية بحث عن متاعب. وكان هذا اكثر وضوحا بكثير في الولايات المتحدة الامريكية، حيث نجد هناك ردة فعل عنيفة ضد التمييز الايجابي لصالح اقليات معينة، وضد الاسراف في التعددية الثقافية؛ ولكن المشاكل توجد هنا ايضا.

اليوم، كل من اليمين واليسار مثقلان بسياسات الهوية. ولسوء الحظ، فأن خطر التفسخ الى مجرد تحالف أقليات هو على غير العادة اكبر في اليسار، وذلك لأن شعارات التنوير الشاملة والكبيرة قد فقدت اهميتها، وهي التي كانت اساسا شعارات اليسار، وبالتالي تركته دون اي وسيلة واضحة لصياغة مصالح مشتركة عابرة لحدود الانقسام. ومن بين ما يسمى الحركات الاجتماعية الجديدة، فإن واحدا منها فقط يعبر جميع هذه الحدود [اعني] انصار البيئة. ولكن وللأسف، فإن مطالبها السياسية محدودة، ومن المرجح ان تبقى كذلك.

ومع ذلك، فهناك شكل واحد شامل فعلا من سياسات الهوية: قومية المواطن[21]، نظرا لأنها تقوم على مطالب مشتركة، على الاقل ضمن حدود دولة واحدة. فمن منظور عالمي قد تبدو قومية المواطن نقيض المطالب الشاملة، ولكن من منظور الدولة، وهي المكان الذي ما زال غالبيتنا يعيش فيه. ومن المرجح اننا سنستمر في العيش فيه، فهي توفر هوية مشتركة، او بحسب تعبير بندكت اندرسن: "جماعة متخيلة"[22]، وهي هوية ليست اقل واقعية لكونها متخيلة. اليمين، خصوصا اليمين

في الحكومة، يدعي دائما احتكار هذا الشكل من القومية، كما انه قادر دائما على التلاعب به. وحتى التاتشرية، حفارة قبر حزب الدولة الواحدة، حزب المحافظين، وخليفتها، حكومة ميجر الشبحية المفلسة، تمنت تفادي الهزيمة الانتخابية عبر ادانة خصومها [بتهمة] اللاوطنية.

لماذا اذن اصبح من الصعوبة بمكان، خصوصا بالنسبة للبلدان الناطقة بالإنكليزية، ان يجد اليسار نفسه ممثلا لكل الامة؟ وانا بالتأكيد اتكلم عن الامة بوصفها جماعة من سكان البلد، وليس ككيان اثني؟ ولماذا يجد هذا اليسار حتى المحاولة بالغة الصعوبة؟ ففي النهاية، ان اليسار الاوربي بدأ عندما قررت طبقة، او تحالف طبقي، او الطبقة الثالثة من الجمعية الفرنسية العامة 1789، ان تعلن عن نفسها انها ''الامة'' ضد اقلية الطبقة الحاكمة. وحتى ماركس، تصور هذا التحول في ''البيان الشيوعي''[23]. تود كلتن، احد افضل المراقبين في اليسار الامريكي، عبر عن القضية بصورة دراماتيكية في كتابه الجديد (شفق الاحلام المشتركة): ''ما هو اليسار اذا لم يكن، على اقل تقدير، صوت كل الشعب؟ اذا لم يكن هناك شعب، بل شعوب فقط، لا يوجد اذن يسار''[24].

الصوت الخافت لحزب العمال البريطاني الجديد[25]

كانت هناك ازمان عندما لم يكن مطلوبا من اليسار ان يكون الامة فقط، وانما تم التسليم به كممثل للمصلحة الوطنية، حتى من قبل أولئك الذين لا يملكون تعاطفا مع مطامعه: في الولايات المتحدة الامريكية عندما كان الحزب الديمقراطي بطابعه الروزفلتي[26] مهيمنا، في اسكندنافيا منذ بداية ثلاثينيات القرن العشرين. وبشكل عام، مع نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن اليسار في كل مكان من اوروبا تقريبا، مثل الامة بالمعنى الاكثر حرفية للكلمة، لأنه مثل المقاومة والنصر على هتلر وحلفائه. ومن هنا بدأ الاقتران وثيق العرى بين الوطنية والتحول الاجتماعي، والذي هيمن على السياسات الاوربية مباشرة بعد عام 1945. ليس اقلها في بريطانيا، حيث كانت 1945 استفتاء شعبيا لصالح حزب العمال كالحزب الافضل تمثيلا للامة مقارنة بحزب المحافظين الذي يقوده زعيم الحرب المنتصر الاكثر كارزمية على الساحة[27]. وهذا ما حدد مسار تاريخ البلد للسنوات الخمس والثلاثين التالية. ونجد في الآونة الاخيرة، سياسيا بعيدا عن اي التزام فطري باليسار، وهو فرانسوا ميتران اختار قيادة الحزب الاشتراكي كي يكون المنبر الافضل لقيادة كل الشعب الفرنسي.

قد يعتقد المرء ان اليوم كان برهة اخرى عندما يدعي اليسار البريطاني الكلام باسم البريطانيين - بمعنى كل الشعب - ضد نظام متداع، فاسد، وفاقد المصداقية. كم اصبح من النادر سماع كلمات مثل ''الوطن''، ''بريطانيا العظمى''، ''الامة''، ''الوطنية'' وحتى ''الشعب'' في خطابات ما قبل الانتخابات، من قبل أولئك الذين يأملون ان يصبحوا الحكومة القادمة في المملكة المتحدة.

وقد اشير الى ان سبب هذا قد يكون ان

"السياسيين والعامة، وبعكس عامي 1945 و1964 لا يملكون إلا ايمانا متواضعا بقدرة الحكومة على القيام بالكثير"[28]. واذا كان هذا هو السبب الذي يجعل حزب العمال يتكلم بمثل هذا الصوت الخافت، فهو سخيف من ثلاثة اوجه. الاول، لأنه اذا اعتقد المواطنون فعلا ان الحكومة لا تستطيع القيام بالكثير، فلماذا يزعجون انفسهم بالتصويت لهذا الشخص اكثر من ذاك، بل لماذا التصويت اصلا؟ ثانيا، لأن الحكومة، اي ادارة الدولة بالمصلحة العامة، لا غنى عنها وستبقى كذلك. وحتى ايديولوجيي اليمين المعتوه، من الذين يحلمون استبدال الدولة بالسوق المستقلة العالمية، يحتاجونها لتحقيق هذه اليوتوبيا او بالأحرى الدستوبيا[29]. وبقدر ما نجحوا في ذلك كما في بلدان العالم الاشتراكي السابق، فإن ردود الفعل العنيفة ضد السوق ستعيد الى المجال السياسي هؤلاء الذين يرغبون في عودة الدولة لتحمل مسؤوليتها الاجتماعية. في عام 1995، بعد خمس سنوات من تخليهم عن دولتهم القديمة بالكثير من المرح والحماسة، نجد ان ثلثي سكان المانيا الشرقية السابقة يرون ان الظروف والحياة في جمهورية المانيا الديمقراطية القديمة كانت افضل من "البيانات والتوصيفات السلبية" في وسائل الاعلام الالمانية اليوم، و70% يرون ان "فكرة الاشتراكية كانت جيدة، لكن كان لدينا سياسيون فاقدو الاهلية". [ثالثا] وبشكل لا يدحض، لأننا في السبع عشرة سنة الماضية عشنا في ظل حكومات تؤمن ان للحكومة سلطة هائلة، وقد استخدمت هذه السلطة لتغيير بلدنا وعلى نحو حاسم الى الأسوأ، وهم حتى في ايام حتفهم مستمرون في القيام بذلك، محاولين خداعنا ان نعتقد ان ما قامت به حكومة ما، يتعذر الغاؤه من قبل حكومة اخرى. الدولة لن ترحل. وعمل الحكومة هو استعمالها.

الحكومة ليست فقط من اجل ان تنتخب ويعاد انتخابها. هذه عملية في السياسات الديمقراطية، تتضمن كما هائلا من الكذب وبكل الاشكال. الانتخابات اصبحت منافسة في التزوير المالي. ولسوء الحظ فإن السياسيين والذين لديهم نفس الافق الزمني الضيق الذي لدى الصحفيين، يجدون من الصعب رؤية السياسة كشيء مختلف عن موسم الحملات الانتخابية الدائم. مع ذلك هناك شيء ما عداه. هناك تقع ما على الحكومة ان تفعل، وما يجب ان تفعل. هناك مستقبل البلد. هناك آمال ومخاوف الشعب ككل، وليست "الجماعة"، وهي انسحاب ايديولوجي، ولا هو المجموع الكلي للكسبة والمانحين، دافعي الضرائب بلغة السياسيين، وانما الشعب البريطاني ككل، مصدر الوحدة المستعدة للاحتفال بنصر الفريق البريطاني بكاس العالم، اذا لم يفقدوا الامل بانه يوجد شيء من هذا القبيل. من اعراض انحدار بريطانيا، مع انحدار العلم هو انحدار الرياضات الجماعية.

كان من صلابة السيدة تاتشر انها ادركت هذا البعد في السياسة. لقد رأت نفسها تقود شعبا "يرى انه لا يستطيع القيام بالأعمال العظيمة التي كان يقوم بها سابقا" - وانا هنا اقتبس كلماتها - "هؤلاء الذين يؤمنون ان انحدارنا لا رجعة فيه، واننا لا يمكن ان

نكون مرة اخرى كما كنا عليه سابقا"[30]. انها لم تكن مثل السياسيين الآخرين، فبقدر ما ادركت الحاجة الى تقديم الامل والمبادرة لشعب مرتبك ومشوش، فقد قدمت أملا زائفا، وبالتأكيد نوع خاطئ من المبادرة، لكنه كان كافيا لها كي تنحي جانبا المعارضة في حزبها وخارجه، وان تغير البلد وتدمر الكثير منه. فشل مشروعها واضح للعيان الآن. انحدارنا كأمة لم يتوقف. كشعب نحن الآن اكثر اضطرابا، وارتباكا من عام 1979، ونحن نعرف ذلك. وهؤلاء الذين سيشكلون الحكومة بعد المحافظين هم انفسهم مرتبكون وخائفون من الفشل والهزيمة[31]، ولن يعرضوا شيئا ما عدا وعود بعدم زيادة الضرائب. ربما سنفوز في الانتخابات العامة القادمة بهذا الاسلوب، وانا آمل اننا سنحقق الفوز، على الرغم من ان المحافظين لن يحاربوا في حملتهم الانتخابية في المقام الاول حول الضرائب، وانما حول الوحدة البريطانية، القومية الانكليزية، ورهاب الاجانب، وراية الاتحاد. وبقيامهم بهذا سيثيرون فينا روح المفاجئة على حين غرة. هل سيؤمن بنا فعلا من ينتخبنا اننا سنقوم بإحداث اختلاف كبير؟ وما الذي سنفعله اذا هم انتخبونا فقط، ثم هزوا اكتفاهم كما يفعلون؟ سنكون قد خلقنا حزب العمال الجديد، وهل سنقوم بنفس الجهد من اجل استعادة وتغيير بريطانيا؟ ما زال هناك وقت للإجابة على هذه الاسئلة.

---

* هذا النص هو لمحاضرة مجمع باري أميل ونورمان ميلبورن، القيت في معهد التعليم ، لندن، /ايار/1996. يمكن قراءة النص باللغة الانكليزية من موقع (Barry Amiel and Norman Melburn Trust) و على الرابط التالي :

http://www.amielandmelburn.org.uk/events/1996-trust-lecture-eric-hobsbawm-identity-politics-and-the-left /

كما ان المحاضرة نشرت في (New Left Review) كمقال:

New Left Review I/217, May-June 1996, p:38-47

يمكن قراءة النص باللغة الانكليزية على الرابط التالي :

https://newleftreview.org/I/217/eric-hobsbawm-identity-politics-and-the-left

(المترجم)

الهوامش

1 - كل ما سيرد بين قوسين من كلمات في سياق النص [ ] من المترجم.

2 - Glazer N. and Moynihan D.P; Beyond the Melting Pot: The Negroes, Puerto Ricans, Jews, Italians, and Irish of New York City; The MIT Press and Harvard University Press,1st ed.1963.

صدرت للكتاب طبعة ثانية في عام 1970 مع مقدمة طويلة بحدود 90 ورقة [المترجم]

3 - Novak, M; The rise of the unmeltable ethnics : politics and culture in the seventies; Published by Macmillan,1st ed. ;New York (1972) [المترجم]

4 - M.L. Pradelles de Latou; Identity as a Complex Network; in C. Fried, ed., Minorities, Community and Identity, Berlin 1983, p. 79.

5 - المصدر نفسه ص 91.

6 - القرن العشرين. [المترجم]

-7 Eric; Age of extremes- The short twentieth century 1914-1991; 1st puplished by Michael joseph; Great Britain ; 1994. Hobsbawm,

ترجم الكتاب الى اللغة العربية مرتين وبعنوانين مختلفين:-

عصر التطرفات – القرن العشرين الوجيز 1991-1914 ؛ ت: فايز الصياغ ؛ مؤسسة ترجمان ؛ المنظمة العربية للترجمة؛ بيروت ؛ 2011.

عصر النهايات القصوى: وجيز القرن العشرين؛ ت: هشام الدجاني؛ ط1؛ دمشق؛ وزارة الثقافة ؛ 1997. [المترجم]

-8 Bell, Daniel; Ethnicity and Social Change: in Nathan Glazer and Daniel P. Moynihan, eds., Ethnicity: Theory and Experience, Cambridge, Mass. 1975, p. 171.

-9 Community = الجماعة الاهلية . [المترجم]

-10 E.J. Hobsbawm, The Age of Extremes. The Short Twentiety Century, 1914–1991, p. 428.

-11 O. Patterson, 'Implications of Ethnic Identification' in Fried, ed., Minorities: Community and Identity, London 1994, pp. 28–29

-12 Todd Gitlin, The Twilight of Common Dreams, New York 1995, pp. 162, 109.

-13 صحفي، مذيع، بريطاني عضو برلمان وعضو مجلس وزراء عن حزب المحافظين، ومن اشد المعجبين بمارغريت تاتشر. والده من الجمهوريين الاسبان استقر في انكلترا بعد انتصار فرانكو. [المترجم]

-14 اوكسبورج (Oxbridge) مفرد انكليزية تمزج وتشير الى اسمي اقدم جامعتين في انكلترا اوكسفورد وكامبردج، واكثرها هيبة وعراقة واعلاها تصنيفا. والمصطلح حديث نسبيا مقارنة بقدم الجامعيتين وطبقا لقاموس اوكسفورد للغة الانكليزية فان الكلمة ظهرت للمرة الاولى في رواية الكاتب الانكليزي (وليم ثاكري) عام 1849. [المترجم]

-15 الكومنترن (Comintern) مختصر لاسم الاممية الثالثة، الأممية الشيوعية ((Communist International 1919-1943)). اما الهومنترن (Homintern) فهي مفردة تمزج ما بين المثلية الجنسية (Homosexuality) والكومنترن، وهي استخدمت من قبل المعادين للمثليين والمرتابين من وجود مؤامرة دولية يقوم بها الكتاب والفنانون والموسيقيون والسياسيون المثليون، شبيهة من وجهة نظرهم بنشاط منظمة الكومنترن، والكثير من هؤلاء محسوبون على اليسار. [المترجم]

-16 Guy Burgess دبلوماسي بريطاني Anthony Blunt اكاديمي في كامبردج، وكلاهما من جواسيس الاتحاد السوفيتي، واعضاء في حلقة الكامبردجيين الخمسة في ثلاثينيات القرن العشرين وفترة الحرب العالمية الثانية. [المرتجم]

-17 ترجمت كلمةsocialism الى الاشتراكية، اين ما وردت في النص وذلك وفق لما هو دارج. بينما الاصح ان تترجم الى الاجتماعية. [المترجم]

-18 من اقدم نوادي الاعضاء في العالم، اسس في قلب لندن عام 1831. اعضاؤه من الكتاب واصحاب المواهب والفنون. [لمترجم]

-19 نسبة الى كلية إتون التي انشأت في القرن الخامس عشر في انكلترا. [المرتجم]

-20 Jihang Park, 'The British Suffrage Activists of 1913', Past & Present, no. 120, August 1988, pp. 156–7. .

-21 قومية المواطن = Citizen Nationalism. مقارنة بالقومية الاثينة فإن قومية المواطن تقوم على ان اي فرد يعيش ضمن دولة ما، سيكون جزءا من الامة بغض النظر عن اثنيته. للاطلاع:

Eide, Asbjorn; In Search of constructive alternatives to secession; Paper prepared for the United Nations Sub-Commission on Prevention of Discrimination and Protection of Minorities; 1993; p.5.

Tomuschat, Christain; Modern Law of Self determination; London; 1993; P.143

[المترجم]

22- Benedict, Anderson; magined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism; first published by Verso, London New York.

23- ”بما ان على البروليتاريا وقبل كل شيء ان تحرز السلطة السياسية، ان تنصب نفسها طبقة قومية، ان تشكل من نفسها أمة، فهي مازالت قومية، لكن بالتأكيد ليس بالمعنى البرجوازي“؛ ماركس وأنغلز؛ البيان الشيوعي الجزء II. في الطبعة الالمانية الاصلية ورد ”طبقة قومية“، في الترجمة الانكليزية 1888 اعطته تعبير“الطبقة الرائدة للامة“.

24- Gitlin, The Twilight of Common Dreams, New York 1995, p. 165.

25- ورد في النص الانكليزي ((New Labour وهي تشير الى مرحلة جديدة في تاريخ حزب العمال البريطاني من 1990-2010 تحت قيادة توني بلير وغوردن براون. وهو مأخوذ من الشطر الاول لشعار مؤتمر الحزب عام 1994(عمال جديد، يسار جديد في بريطانيا)... [المترجم]

26- نسبة الى فرانكلين روزفلت رئيس الولايات المتحدة الامريكية 1933-1945. [المترجم]

27- المقصود ونستون تشرتشل. [المترجم]

28- Hugo Young, ‘No Waves in the Clear Blue Water’, The Guardian, 23 April 1996, p. 13.

29- Dystopia نقيض الـ Utopia. كلمة مشتقة من الاغريقية وتعني مكانا او مجتمعا او دولة خيالية. كل شيء فيها سيء وكريه ومرعب.

30- Cited in Eric Hobsbawm, Politics for a Rational Left, Verso, London 1989, p. 54.

31- المقصود هنا ما سيصبح حكومة حزب العمال البريطاني، اي حكومة توني بلير الاولى 1997-2001

المجمع العلمي العراقي

مجمع يهتم بدراسة اللغة العربية إضافة إلى اللغات الكردية والسريانية، تأسيس عام 1947، ويتميز مجمع بغداد مع مجمع القاهرة بتخصصهما في قضايا المصطلح، وتعريب العلوم، ولهما أكبر رصيد في هذا الميدان. إذ أن مهمته تعريب الكلمات وإيجاد المصطلحات العلمية وترجمة الكتب التي يحتاجها في البحث والدراسة.

عند تأسيسه اقتصر اختصاصه على اللغة العربية لكن أوائل الستينات تم تأسيس مجمعين علميين آخرين الأول للغة السريانية والآخر للغة الكردية، وفي 1978 تم دمج المجمعات اللغوية الثلاثة العربية والكردية والسريانية ضمن مجمع علمي واحد وهو المجمع العلمي العراقي.

وفي العام 1996 صدر قانون جديد، أُعيد بموجبه تنظيم المجمع العلمي وتوسعت اهدافه لتشمل كافة التخصصات العلمية والتقنية وعدم حصرها بتخصصات اللغات العربية والكردية والسريانية والتراث العربي والإسلامي، بل امتدت لتشمل تخصصات العلوم التطبيقية والهندسية والزراعية والفلسفية والقانونية والاقتصادية والمعلومات وشتى المعارف المختلفة بهدف إثراء المعرفة الإنسانية وتوظيف هذه المعارف لخدمة التنمية في العراق والبلاد العربية والإسلامية، وبذلك يقترب عمل المجمع أكثر فاكثر إلى مفهوم عمل ما يعرف في دول العالم المتقدمة بأكاديميات العلوم التي تضم في العادة كبار العلماء والمفكرين والمبدعين.

والشيخ محمد رضا الشبيبي هو أول رئيس للمجمع عند تأسيسه.

حـــــــــــوارات

"الثقافة الجديدة" تحاور كاتب الدراما العراقية المخضرم
عادل كاظم: الدراما تبتعد أحيانا عن الحقائق التاريخية لأغراض سياسية

حاوره / علاء الماجد
تصوير / كريم الدفاعي

ولد عادل كاظم في منطقة الفضل ببغداد عام 1941 ثم نزحت عائلته الى مدينة البصرة حيث عمل والده عاملاً في مينائها وهناك تعلم وانهى دراسته الإعدادية، كتب الشعر في سن المراهقة، ثم عاد الى بغداد والتحق بأكاديمية الفنون الجميلة عام 1967 وبعد تخرجه عمل في وزارة الشباب عام 1971. مارس الكتابة للمسرح خلال سني دراسته في الأكاديمية وبعد تخرجه. لقد أهلته ثقافته العامة وثقافته المسرحية وقراءاته اضافة الى موهبته وسعة خياله الى كتابة مسرحيات تقترب في أسلوبها من الإنتاج المسرحي العالمي. كما انه اخرج بعضا من مسرحياته. وكانت (الطحلب) 1962و(الكاع) أولى مسرحياته التي ظهرت على خشبة المسرح عندما أخرجها بنفسه لمجموعة من منتسبي وزارة الشباب عام 1971. وتناول في المسرحية الثانية علاقة الفلاح بارضه ويظهر ميله للدفاع عن حق الفلاح ضد المغتصب. وكتب مسرحية (الطوفان) اعتماداً على (ملحمة كلكامش) وأخرجها له ابراهيم جلال لطلبة فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة عام 1967 بأسلوب ادبي متقدم تناول الاسطورة برؤية تقترب من الفلسفة الوجودية ومقسما المجتمع القديم الى سادة وهم الكهنة وعبيد وهم أبناء الشعب. كتب المسرح محترفا وهو طالب في الكلية حينما اخرج له ابراهيم جلال مسرحية الطوفان، وكان قد كتب عدة نصوص منها (الكاع، الطحلب، الموت، القضية) ثم واصل الكتابة المسرحيّة في (تموز يقرع الناقوس، عقدة حمار، المتنبي، نديمكم هذا المساء، مقامات ابي، الورد، المومياء، الخيط) ومسرحيات أخرى. كتب للتلفزيون مسلسلات مهمة منها (الذئب وعيون المدينة، والنسر وعيون المدينة، الايام العصيبة، حكايات المدن الثلاث، بنت المعيدي) ونصوص مسلسلات بوابات المدن، اصوات الضفة الأخرى وزنابق المياه الراكده)، كما كتب ثلاثية (الحب والفأر والكومبيوتر) ومسلسل (مضت مع الريح) انتاج اردني ومن اخراج الدكتورة خيرية المنصور، وله رواية من ثلاثة اجزاء باسم (الشط الكبير) كتبت عنها عشرات الدراسات والبحوث. كرم من مؤسسات ودول كثيرة في المغرب والجزائر وتونس والامارات ومصر والعراق وسوريا. عادل كاظم الذي شكل ثقلاً كبيراً في تاريخ الدراما العراقية. ومثل مرحلة مهمة من مراحل المسرح حتى اصبح صانع الدراما المخضرم الكبير.

"الثقافة الجديدة" التقت الكاتب الكبير عادل كاظم في منزله ببغداد وأجرت معه الحوار التالي:

***من يتوهج بمن: الدراما بالسياسة ام السياسة بالدراما؟**

- لايمكن عزل الدراما عن السياسة، لان الدراما تعني الفعل، والسياسة فعل. الدراما أو التعبير الدرامي نوع من التعبير الأدبي الذي يؤدى تمثيلاً في المسرح أو السينما أو التلفزيون أو الإذاعة. أخذت الكلمة من اللغة وتعني العمل او الفعل. وتأتي أيضاً بمعنى التناقض حيث إنها كلمة مشتقة من عدة أسماء لكتاب وفلاسفة مشهورين، حيث يجتمع في هذا النوع من التمثيل خليط من الضحك والجد والواقع والخوف والحزن. وللدراما أهميتها الكبيرة في الحياة لانها تقوم بدور وسائل الترفيه، وهدفها الأكبر عكس الواقع الذي نعيشه، وذلك يشعرنا بالكثير بالمواساة، كما ان لها دور تعليمي في بناء المجتمع كما حصل في فترة السبعينات والثمانينات. ونعلم وضمن هذا المفهوم انه يتم استخدام الدراما التاريخية لصناعة السياسة، بمعنى ان الدراما تبتعد أحيانا عن الحقائق التاريخية لأغراض سياسية، وبذلك تكون السياسة هي التي تتوهج بالدراما وليس العكس.

***الخير والشر، الحب والبغض، الحرب والسلام، الفقر والثراء، الوفاء والخيانة، وغيرها كثيرة من الثنائيات التي استخدمتها الدراما قديما ومازالت، هل هناك ثنائيات حديثة؟**

- منذ الدراما اليونانية، عندما كتبوا عن اوديب، كانت عبارة عن صراع. الدراما الكلاسيكية اليونانية، التي هي ام الدراما العالمية، خلقت بالفعل والحياة، الفعل الذي هو محور الدراما وفيه هذه المتناقضات. الدراما الحديثة المعاصرة ارتكزت على الدراما القديمة وحاولت ان تطورها، مثلا مسرح اللامعقول، الملحمية التي تتحدث عن الملاحم، وعن السلام أيضا، كتبوا أيضا عن القضايا الشخصية للإنسان من حب

وبغض وخيانة. اذا الدراما تمثل الصراع وهي الفعل. وهناك دراما مصنوعة ودراما موجودة من خلال الفعل والصراع، بما معناه ان الثنائيات الحديثة هي استمرار للثنائيات القديمة الموجودة عبر التاريخ.

***من هو الركن الاهم في الدراما: المؤلف ام المخرج ام الممثل ام التقني؟**

- المخرج والممثل والتقني يمثلون إرادة المؤلف، يمثلون إرادة صانع الفعل، صانع الدراما، ويأتي دور المخرج بعد ذلك، واحيانا يقوم المؤلف نفسه بعملية الإخراج، وطبعا دور هؤلاء كلهم ضروري لانجاح أي عمل درامي، ولكن يبقى المؤلف هو الأساس، حتى عند ارسطو في كتابه الكبير (الشعر) المؤلف هو الأساس. ونرى ان من الاسباب التي أثرت على الدراما العراقية هي ان بعض الكتاب الكبار مهملون لا أحد يسأل عنهم، والبعض الاخر تنحى ولأسباب معروفة، وايضا المخرجين الكبار والتقنيين الكبار مهملون، واغلبهم في الخارج. كذلك لانخفي دور شركات الانتاج فهي بذات الأهمية في صناعة دراما متقدمة ولكن منها للأسف من تبحث عن المادة على حساب قيمة العمل الدرامي على عكس شركات الإنتاج العربية.

***لماذا اخفقت الدراما العراقية في تجاوز حدودنا والانتشار مثل الدراما المصرية والسورية؟**

- السبب وسائل الاعلام أولا، واقصد ضعف وسائل الانتشار التقنية العراقية. كذلك غياب الإنتاج الدرامي، وغياب كتاب الدراما وغياب دعم الدولة التي وضفت مجمل الفن لخدمة خطابها المباشر في توجيه المشاهدين خاصة في أوقات الحروب، لذلك لم تبرز انجازات فنية كبيرة كما في حقبتي السبعينات والثمانينات من القرن الماضي. هنالك اعمال درامية كبيرة لاتزال الذاكرة الجمعية العراقية محتفظة بها مثل ''حب وحرب'' و ''تحت موس الحلاق'' و''النسر والذئب وعيون المدينة'' و ''حكايات المدن الثلاث'' و ''فتاة في العشرين''، و''مقامات ابي الورد''، و''تموز يقرع الناقوس''، و''نديمكم هذا المساء''، وغيرها. لقد كانت الدراما العراقية متميزة وتصنف ثالثا بعد مصر وسوريا عندما كانت الدولة تمول إنتاجها، ولكنها أخذت في التراجع والتدني خلال الفترة الأخيرة بسبب الإرهاب والحروب والمشاكل المحلية والخارجية. لذلك شهدت تراجعا في المشهد المحلي وغيابا عن المنافسة في المشهد العربي والإقليمي.

***دخل الرأسمال الخاص في صناعة الدراما العراقية، ماذا كانت النتيجة؟**

- كانت هناك شركات خاصة للإنتاج الدرامي، وكانت شركات مرموقة مثل شركة بابل للإنتاج السينمائي والتلفزيوني، وشركة سومر . اما ماتقصده من وجود قطاع خاص فهذا عبارة عن استثمار أموال فقط لاعلاقه لها بالفن. فقد كانت اغلب الاعمال الدرامية العراقية خلال السنوات الأخيرة عبارة عن منصات للتهريج وافتعال الضحكة في حين اغفلت أهمية ومراعات الذوق العام وتحقيق

المتعة الفنية الى جانب إشاعة المفاهيم المعرفية فغاب الابداع وتحققت المتعة الكاذبة.

***بعد دخول الرأسمال الخاص، نشأت المجاميع الشللية في الوسط الفني التي تحتكر الاعمال لها دون سواها، كيف ترى هذه الظاهرة؟**

- لايوجد رأسمال خاص في الدراما العراقية، وان وجد فهو ضعيف جدا. ونحن نتحدث عن دراما حقيقية، وعن مسرح عالي المستوى، ولانتحدث عن كل من هب ودب، ومانراه الان ليس له علاقة بالدراما. الدراما هي الفن الذي يعتمد على تجسيد ومحاكاة الواقع ضمن، وتشتبك مع الفنون الأدبية كالنصوص والشعر والنثر والمسرحيات، فهي حالة وجدانية تقوم بتقليد او تجسيد لما يوجد بالنصوص الأدبية الأخرى، وتوجد مساحات فنية وإعلامية تدخل فيها الدراما كـالمسرح والتلفزيون والإذاعة والسينما. الان نرى اعمال لاترقى الى هذا المستوى وهي في غالبيتها عبارة عن تهريج.

***التحولات التي مر بها العراق في العقدين الاخيرين خطيرة جدا لكننا لم نجد اقترابا دراميا منها. لماذا؟**

- السبب الرئيس هي الحرية، الدراما تحتاج الى فضاء من الحرية، وبدونها لاتستطيع ان تعم في فضاء الحقيقة، انا لااستطيع مثلا في عهد النظام السابق ان احقق فعلا دراميا يعتمد الحقيقة ، سوى الايحاءات وليس بالطريقة المباشرة نرمز للاشياء. وحتى الان لاتستطيع ان تعتمد المباشرة في الفعل الدرامي رغم التغيير الذي حدث بعد 2003. لذلك ومن اجل ان تعود الدراما العراقية الى تألقها فهي تحتاج الى فسحة كبيرة من الحرية والى إنتاج عال المستوى وكتاب جيدين ومخرجين جيدين وكادر فني ومهني جيد وممثلين حقيقيين.

***الدراما كشف وتعرية للمسكوت عنه تاريخيا واجتماعيا، هذه فلسفة عمل في بعض الدراما العربية، لماذا لا نجد هذا في الدراما العراقية، وان وجدناه فهو تلامس قشري لا جوهري؟**

- هذا السؤال له علاقة بالسؤال السابق، وكما قلنا ان فسحة الحرية هي التي تحقق ذلك. في بعض الدول العربية نجد فسحة للحرية للاعمال الدرامية التي تكشف خفايا واسرار تاريخية. لذلك نجدها تتألق في هذا المضمار. نحن بحاجة أولا للحرية في تناول هكذا اعمال، لذلك ترى اننا عندما نتناولها لانسبر غورها وندخل الى اعماقها. إنّ استحضار النّصوص والوثائق والرّسائل والرّموز التّاريخيّة في النّصوص الرّوائيّة وكشف المستور والمسكوت عنه فيها كانت له تِبعاته السلبية على من يتصدى لمثل هكذا امور.

***اية بلاد يمكن لها ان توفر توهجا وانتشارا كبيرين لصانع الدراما الماهر عادل كاظم؟**

- التوهج يكمن في اللغة، ولغتي عراقية، واكتب **الدراما** بنفس عراقي ، عن مجتمع عراقي، لذلك فان فضائي هو العراق، هو الذي يمسك في زمام إمكانية الابداع عندي

او بمعنى اني لايمكن ان اتألق في فضاء آخر. ولكن لو كنت في مصر مثلا لكان الامر مختلف، فهناك الدراما متألقة في الزمن الملكي.

كيف تفسر لجوء اغلب كتاب الدراما الى الاعداد بدلا عن التأليف؟ وهل لذلك علاقة بـ مخيال الكاتب؟

- طبعا، المعد يعتمد صيغة موجودة واطار آخر هو يعدها ويكتبها، عكس المؤلف الذي يعتمد خياله والواقع الذي يعيشه والتفاعل الإنساني معه، وطبعا واكيد ذلك له علاقة بمخيال الكاتب وقدرته على ترجمة الاحداث والاعمال والافعال اليومية للناس. ان الفرق بين التأليف والاعداد شاسع، التأليف ما يقوم به الكاتب او القادر على التاليف باختيار موضوع ومن ثم الكتابة عنه وذلك حسب قدرة الكاتب وكفائته . اما الاعداد فهو ارجاع القصص والاحاديث الى مصادرها، وتبقى عملية التأليف شاقة فالمؤلف يصنع كتاب والمعد يحقق هذا الكتاب المصنوع.

***هل استطاع المنجز الادبي العراقي ان يؤثر في حياة المجتمع بعد العام 2003؟**

- بصراحة انا لم اطلع على اعمال كثيرة لكتاب وادباء عراقيين، ولكني كتبت عمل روائي كبير وبجزئين اسمه (الشط الكبير)، صدرت عن منشورات اتحاد الادباء. لقد ظهرت اعمال يشار اليها وهي على حد علمي تصل الى 540 رواية صدرت منذ 2003. ولكن مدى تأثيرها في حياة المجتمع، اعتقد ان الوقت لايزال مبكرا.

***كتبت في اغلب اعمالك الدرامية نصوصا اعتمدت الحكايا والاساطير التاريخية، الا تعتقد ان الدراما التاريخية هي اعادة قراءة التاريخ بعين ناقدة وليست عينا أسيرة للحكاية التاريخية؟**

- التاريخ والملاحم موجودة، انا صيرتها الى واقعنا وكتبتها بصيغة ناقدة ولم اكن اسيرا للحكاية بمعنى نقلها حرفيا. مقامات ابي الورد مثلا هي عبارة عن تاريخ عربي قدمتها بشكل مغاير، ولي رؤيا فيها. وفي كلكامش قدمته دكتاتور وسفاح ونرمز فيه الى الدكتاتورية.

***السينما والمسرح خطان متوازيان في ثقافة الشعوب، لماذا بقيت السينما متأخرة عن اللحاق بالمنجز المسرحي العراقي؟**

- السينما متأخرة في العراق، وهذا بسبب ضعف الاهتمام بهذا الفن. كان الاهتمام بالتلفزيون لانه يحقق المتعة للناس وهم في بيوتهم ودون أي عناء في الذهاب الى دور السينما، والتي اختفت تماما الان.ان اندثار دور العرض السينمائي يسهم في ذلك بعد تحويل مبانيها إلى مجمعات تجارية، ذلك له أسبابه ومنها الوضع الأمني المعقد الذي يشهده البلد.

***ودعنا الكاتب الكبير عادل كاظم متمنين له الصحة والسلامة وهو يحملنا تحياته الى اسرة تحرير مجلة الثقافة الجديدة.**

أدب
و
فن

الشبيبي والحيدري
شهيدان في ذاكرة الشعر والأدب ايضاً

ريسان الخزعلي

(1)

المناضلون الشهداء يعودون باستمرار، يطرقون الذاكرة، يبددون الهواجس، يهوّنون تعارضاتنا الوجودية. وبذلك نصحوعلى قِصَرِ قاماتنا امام امتدادهم في العلّو والاعالي، وهكذا نتطامن بحضورهم، هذا الحضور الذي يقاوم الغياب والمحو .

(2)

الشهيدان الخالدان، حسين محمد الشبيبي وجمال الحيدري، حينما تستعيدهم الذاكرة، فإنها تستعيدهم حضوراً نضالياً تأصيلياً، تستعيدهم صورةً للبدايات المستمرة التي تدفعنا للتمثل والامتثال، تدفعنا لأن نتلمس عقدة الشنق في الرقبة. ولا نفاجأ حين تكون البدايات متجذرة في الابداع الادبي ايضاً، بعد التأصيل النضالي المعمّد بالتضحية والشهادة، ولا غرابة في ذلك، حيث ان الحزب الشيوعي العراقي المجيد يُقيم صلاته مع الحياة نضالياً وثقافياً منذ التكوين الأوّل، من اجل انسان أرقى وحياة أنقى ووجود أبقى.

(3)

الشهيد الخالد حسين محمد الشبيب، كتب في مجال النقد (حيث تبدو المعالجات التي كتبها عن الادب في بداية الاربعينات انجازاً كبيراً ومهمّاً في هذا المجال. كان يمكن لولا ضغط الاحداث ولولا الظروف الصعبة التي عاناها الحزب الشيوعي أن يتطور ويغتني من خلال المنطلقات الصائبة التي استند عليها – من مقدمة كتاب سلاماً ايها الحزب).

والشهيد كتب الشعر، وجعل منه موقفاً نضالياً تحريضياً ضد كل ما يسلب حرية الانسان ويقوّض وجوده. وكان لهذا الدور الفعل الذي يعزز صلابة المناضلين سواءً كانوا في المعتقلات والسجون أو خارج اسوارها. ومن شعره قصيدة (موكب التاريخ) التي أُلقيت عام 1948 في سجن الكوت، ونُشرت في مجلة (الثقافة الجديدة) العدد الرابع السنة الأولى، وقد كُتبت بالشكل الشعري السائد في تلك الايام، الشكل الذي يجعل من الايقاع والقافية منبهات تخترق الصمت برنينها الموسيقي

المُدوّي الذي يشدّ العزم ويُعلي الشكيمة :
موكبُ التاريخِ للنصرِ اندفاعا ...والى
النجمِ سموّاً وارتفاعا
وأغذَ السير ـ مقرون ـ الخُطى ... بالدم ـ
القاني حماساً وانتجاعا
وبأرواح ـ الضحايا صُعداً ... وأماماً لا
انحداراً وارتجاعا
وبهدي الفكر ـ من منبعه ... نحنُ والباغي
احتراباً وصراعا
إذ دحرنا الظلمَ فازددنا اختباراً ...فدفعناه
ُ فزودنا اقتناعا
اننا نحن ُ المريده حياة ... والمشيده
اصطباراً واضطلاعا
موكبَ التاريخ ـ لا زلت ـ شعاعاً ...لمريدك
َ فطاماً ورضاعا
.....،
ايها الموكبُ..،
يوم اكتوبرَ يا مجداً مشاعاً ...لبني الدنيا
ويا عهداً تراعى
انت ـ للعامل ـ والفلاح ـ والـ...كادح ـ
المتعوب ـ والحرِّ جماعا

القصيدة طويلة، وقد تجاوزت الخمسين بيتاً، مما يُدلل على طول النفَس الشعري، كما انها جاءت على وزنٍ واحدٍ ، بحر الرمل، وبرويٍ واحدٍ ايضاً، وبذلك يكون الشاعر / الشهيد متمكناً، ومدركاً للبناء الشعري ونظام الشعر في شكله الأول. ولأهمية هذه القصيدة فقد تصدرت قصائد كتاب (سلاماً ايها الحزب) الذي صدر عام 1974 لمناسبة الذكرى الاربعين لميلاد الحزب الشيوعي العراقي المجيد.

(4)

أما الشهيد الخالد جمال الحيدري، فهو الآخر شاعر يُجيد ممكنات الشعر الكردي واساليبه المتنوعة، وقد تمكن ببراعة فنية ان يمزج النضال في شعره مع الافتتان بالطبيعة والجمال وهسيس صبوات العشق وحب الوطن واستذكار الشهداء، وهكذا، كان متوحداً مع انسانيته والآخر، متوحداً بإبداعه ونضاله ، النضال المتوّج بسموِ الشهادة ، تضحية ً عالية ـ الصوت والصدى .

من قصائده ، قصيدة (مم وزين) المكتوبة عام 1960 في موسكو وقد قام الاستاذ محمد الملا عبد الكريم بتعريبها، نختار منها بعض المقاطع التي تستطير غنائية ً وشفافية ً:

مم : -
زين .. يا زيني
يا حبيبتي العزيزة على القلب
مدّي لي يدك ، فالقلب على وشك ان يطير
انهضي لنذهب معاً ، لقد اخضرّت الارض.. وأرض كردستان ،
بعد رحيل الشتاء .
عروسة الدنيا ..جميلة كالجنّة
آه ما اروعها ..ما ابدعها.. إنها كقلوب المحبين
العيون والينابع ،
تتفجّر كأكباد الشهداء..
والشقائق ،
زاهية بلون الدم.. كقطرات الدموع ،

تذرفها عيون الفتيات.. وحبّات الندى ،
عندما ينقشع الضباب ،
كمرآة فضيّة .. صافية .
زين :
حقّاً يا حبيبي !
نحن في عنفوان الربيع ، وانك صادق فيما تقول
انهض.. بالله عليك
لنترك المدينة ، فقد تأخر بنا الوقت
لنمشِ بعيداً شطرَ الحدائق والمروج
اننا سكارى الحب،
وفي صدرينا يخفق قلبان طريّان ...

(5)

في المفتتح الاخير، يتأكد حضور الشهيدين في الذاكرة، نضالياً وابداعيّاً وسموّاً في التضحية.. انها علامة الذين ليسوا كسواهم...

جعفر أبو التمن

هو محمد جعفر جلبي بن محمد حسن بن الحاج داود أبو التمن، سياسي عراقي ولد عام 1881 في عائلة من بغداد من قبيلة ربيعة، كان قائداً لجمعية حرس الاستقلال المناوئة للاحتلال البريطاني في العراق عام 1919، وساهم في ثورة العشرين، لكنه هرب إلى إيران وعاد للعراق بعد تولي الملك فيصل الأول عرش العراق.

شغل منصب رئيس الحزب الوطني العراقي عام 1922، شغل منصب وزير التجارة في الوزارة النقيبية الثانية، فنفاه البريطانيون خارج العراق.

تعاون مع ياسين الهاشمي وناجي السويدي في تأسيس حزب الإخاء الوطني عام 1930، وتعاون مع انقلاب بكر صدقي وشغل منصب وزير المالية في وزارة حكمت سليمان الانقلابية منذ 29 تشرين الأول 1936 لكنه استقال في حزيران 1937.

شغل منصب رئيس غرفة تجارة بغداد للفترة 1935 إلى 1945.

توفي في 20 تشرين الثاني 1945، ورثاه الجواهري بقصيدة مطلعها:

طالَتْ – ولو قَصُرَت يدُ الأعمارِ - لرَمتْ سِواكَ عَظُمْتَ مِنْ مُختارِ

بغداد تحتفل باليوم العالمي للشعر

أقام الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق صباح الخميس 21 اذار 2019 احتفالا خطابيا وشعريا كبيرا على قاعة الرباط ببغداد بمناسبة يوم الشعر العالمي، وفي سياق جديد بتكليف أحد شعراء العراق المرموقين بكتابة كلمة المناسبة وإلقائها، فقد كتبها هذه السنة وألقاها الشاعر الكبير ياسين طه حافظ، وهذا نصّها:

سلاما وفرحا بكم ايها الشعراء
ومحبي الشعر في العالم

عن الشعر، فليكن الكلام بأقصى الوضوح. وضوح تريده أيامنا. فمن بعد الحرب الثانية والحروب المحلية في الشرق الاوسط، وغير الاوسط، وبعد سنوات المدارس الفنية وصولاً الى الواقعيات وحماسات أدب التغيير، وصلنا الى ثلاثة تشغل اشعارنا: ذواتنا الممتحَنة بالمعنى والمثقلة بضرورات العيش وواجبنا الاخلاقي لأوطان مهددة ومجتمعات محاصرة بالاحتياجات والرداءة ثم همنا الانساني تجاه العالم.

فلم تعد البقعة التي نعيش عليها، الارض التي ننتمي رسميا لها، هي وطننا حسب. نحن اليوم مواطنو العالم الكبير، مواطنوه الذين يمتلكون الاشارات النارية وحدائق الحُلم. الانسانية اليوم امتنا الكبرى ووطنا بعض من العالم الذي يريدون منعنا

من الانتماء لحضارته ولشعره وفنونه ومستوى عيشه. لكننا نصر على الانتماء إليه وشعرنا اليوم وفنونا تحمل روح الانسانية النظيفة التي يحملها شعراء العالم.

بعد التمشي المجيد على سطح القمر وبعد رفرفة نبتة أرضية على الكوكب الاحمر وبعد الكشوفات العظيمة، لا أحد يستطيع التنبؤ بما سيكتبه الشعراء غداً. الشعراء وحدهم المكتشفون والشعراء وحدهم، بأشعتهم الكونية وبالروح النقية الشَغوف، سيرسمون أقانيم الكتابة الجديدة. انتهت الوصايا وبدأت المغامرة والاكتشاف. بدأت القراءة الجديدة والكتابة الجديدة والوطنية النقية الجديدة بعيداً عن الهمجية ومخلفات العصور. هو الاحترام الكبير للانسان في الوطن وفي العالم.

الشعر هو الذي بدأ الاحترام لا حملة البنادق ولا المحشوون باللغو والشراسات وجنون الكراهة. الشعر العراقي هو المتمرد الأول على الموت. واليوم هو

المتمرد الأول على ابعادنا عن العالم وقتلنا في المكان.
من هنا التقى الشعر بالنضال من أجل حرية الوطن وتقدمه. انتهى زمن الفصل بين الاثنين. الحرية واحدة وارادة التقدم في الشعر وفي الحياة واحدة وحداثة الشعر تؤم لحداثة الأنظمة وحداثة الحياة كلها. الفصل ليس في صالح أحد.
لم يعد الماضي وحده متّكأنا. الماضي وآمال المستقبل معاً لإيقاد شعلة الحاضر. والقصيدة الجديدة تتماهى بها التخوم الثلاثة لحظة الكتابة. والقصيدة الجديدة هي التي تحتوي بدفئها الانسانَ موضوعاً، الانسانَ محتفى به والانسانَ متشوّقاً يريد والانسان يتحرر والانسان عاشقَ حياةٍ أبدي ومغيِّر مسار.
جوهر هذا الكلام ليس جديداً، فقد بدأ الشعر في العراق كونياً. بدأ رائي انسانية ومصير. بدأ عن الناس في العالم السفلي وعن الانسان مهدداً بالموت. وأولى القصائد كانت بحب العالم وأبديته وحب الحياة وبقائها وامام الموت، الشعر هو الوحيد الذي راح يبحث عن حل!
أنا أعلم أن الملايين في بلدي وفي العالم، ما يزالون في عالمهم السفلي. لكني أعلم ايضا ان للملايين في بلدي وفي العالم آمالهم العظيمة في حياة أفضل وأشرف ويريدون الحرية تكتمل. الحرية شرط الابداع الأول وشرط التقدم الأول وأن الجيوش والبربرية وقوانين الردع أو القتل تؤسس مجاز لكنها لا تؤسس حضارة.
يوما قالوا: ”سيأتي يوم يعمل فيه الانسان ثلاث أو أربع ساعات وباقي وقته لينعم بالحياة وبالمتع الجمالية ...“ كم مرَّ على هذا القول؟ عقود وهم يزيدون الانسان قنانةً وسَحْقاً. ونحن هنا، من أجل الخبزة والسلامة، من اجل الخبزة والسلامة لا غير، تتبادل قنانتنا الجهات. فنحن بين هذه وتلك نعيش.
في عالم مثل هذا تقبع الفنون في زاوية وليس الا الدماء والشكوى. دعوني اسأل في يوم الشعر: كم هي حصة كادحي العالم من مكاسب بعد الحرب والتطور الكبير؟ ليس غير العذابات المرة وأغاني الواقع التي تشبه عويلاً مخنوقاً. في حياة مثل هذه، صعبةً تكون حياة الشعر. وأن جاء شعر فلا يحتفي بالحياة، هو لا يرى جمالها!
لهذا أقول تقدم الشعب معاً وتقدم القصيدة. نحن أبداً لا نريد الانسان يهرب من زمنه ومن مسؤولياته ومن التاريخ. نريد هذه كلها فناً! نريدها حقول عمل ونريدها متنزهات لأرواحنا! أيضاً، لا نريد المبدعين، أولئك الذين يقتدحون النار في الخرائب الباردة، لا نريدهم ان يألفوا التكرار والتشابه وركاكة الحياة في فنهم، فيأتلفوا من بعد مع الاعتيادي. نريدهم يظلون وقّادين كباراً وعشاقاً كباراً وكاسحي انقاض وفاتحي طريق الى المستقبل، مستقبل الشعب معاً ومستقبل القصيدة!
شعر اليوم هو الذي انتبه لخطورة العوز على المعنى وروح الفن. وشعرنا الحديث هو الذي انتبه الى صناعة النسخ البشرية المتشابهة وضياع التماعة التفرّد والامتياز. والشعر أيضا هو الذي يدعو للفرح بالوجود لا بالوقوف في الصفوف الطويلة حيث الخبز لا تفارقه المهانة. والشعر أخيراً، ليس أخيراً، الشعر أولاً،

هو الرافض الكبير والشجاع للعصر الرث الذي نعيش فيه ويستدعي ما وراءه ليصل!

فيا أيها الشعر كم مهماتك صعبة، لكن كم عظيم وفي غاية الجمال أنتَ! أيها الشعر أبقَ في الحياة لتظل حياةً! وأبقَ مثلما نريدك متقناً و قوياً و محتفظاً بشرف المعنى، دلالات وجمال رؤى. احتمل أيها الشعر متاعبك في طريق التقدم، تقدم الفنون وتقدم الحياة كلها. لاعودة للماضي. لاعودة الى وراء لا في القوانين ولا في الانظمة ولا في الفنون لا عودة أبداً. ومن لا يُرِد ان يفهم ، ستُفهمه الحياة علناً!

أيها الشعراء في بلدي، وأن كانت حياتكم صعبةً وتعيشون بالرغم منها، يكفيكم فخراً انكم تكتبون شعراً. وأن الشعر في العراق ألتقى بالشعر في العالم. وهذا يعني العمل على ان تلتقي حياتنا بالحياة في العالم وألاّ يظل شعبنا صفوفاً خلفيةً تنتظر!

لكم المجد أيها الشعراء،

لكم المجد يا شعراء بلدي

ولتكن لتجاربكم قوة السطوع والاكتشاف، ويا أفق الحرية اتسع !

المعلقات

هي من أشهر ما كتب العرب في الشعر وسميت بالمعلقات، وقيل عنها المعلقات لأنها مثل العقود النفيسة تعلق بالأذهان أو لأنها كتبت بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة قبل الإسلام.

وتعدّ هذه القصائد أروع وأنفس ما قيل في الشعر العربي القديم لذلك اهتم الناس بها ودونوها وكتبوا شروحا لها، وهي عادة ما تبدأ بذكر الأطلال وتذكر ديار محبوبة الشاعر وكانت سهلة الحفظ.

وقيل إن حماد الراوية هو أول من جمع القصائد السبع الطوال وسماها بالمعلقات (السموط)، وكان يقول أنها من أعذب ما قالت العرب، و قد ذهب الأدباء والكتاب من بعده لدراستها، مثل ابن الكلبي، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد.

والمعلقات السبع هي: قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ لامرؤ القيس، لِخولة أطلال ببرقة ثهمد لطرفة بن العبد، آذَنَتنَا بِبَينِها أَسمَاءُ للحارث بن حلزة، أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّم لزهير بن ابي سلمى، أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَا لعمرو بن كلثوم، هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ منْ مُتَرَدَّم لعنترة بن شداد، عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا للبيد بن ربيعة.

وعند بعض تضاف ثلاث قصائد الى السبع السابقات ليصل عددها الى عشر معلقات: ودع هريرة إن الركب مرتحل للأعشى، أقفر من أهله ملحوب لعبيد بن الأبرص، يا دار مية بالعلياء فالسند للنابغة.

تاريخانية التوالي السردي في (ثلاثية القرون)

د. نادية هناوي

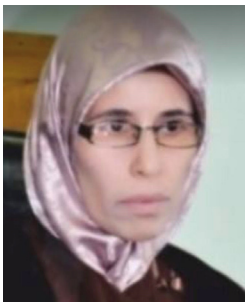

مدخل/ التوالي بين التاريخ والسرد

للتاريخ تأثير كبير في كتابة السرد، من منطلق أنّ التاريخ ليس الماضي حسب؛ بل هو الحاضر الذي يدلل على المستقبل أيضا. وهذا ما أدركه الروائي جورج اورويل في مقولته(أن من يتكلم بالماضي يمسك بالمستقبل).

وصار الحديث في أروقة الدرس النقدي الفرنسي عن انكسار الزمن وتفتت التاريخ أمرًا مقنعًا وطبيعيًا، ولاسيما عند ميشيليه كأول داع إلى غربلة تاريخ الحوليات، وهو القائل:" رأيت فرنسا كانت لها حوليات ولكن لم يكن لها تاريخ"، وميشيليه الأب الروحي لمدرسة التاريخ الجديد التي نقضت تاريخ الحوليات بتواريخ جديدة. ومن تلك التواريخ التاريخ المفتت لفرانسوا دوس، وفيه سعى إلصناعة تاريخ شامل يجمع كل الجوانب التي تهم الواقع في حركة واحدة حتى غدت الظواهر المكبوتة هي موضة التاريخ الجديد، مهتما بالسحرة وعالم اللامعقول وحركات الهرطقة والمهمشين والثقافة الشعبية.

ومع تقدم الحياة تكنولوجيا وتزايد التأثير الإعلامي وتسارعه يوميا، صار من الملّح والمهم على الساحة العالمية أن ننظر إلى التاريخ نظرة متسارعة ومتقدمة، تجعلنا نعيشه لا أن نسترجعه، منغمسين فيه انجذابا وتعاطفا أو مقتا ونكاية. وعندها سيغدو المؤرخ هو المحكوم الذي تتحكم فيه ارادة القارئ. وواحدة من محاكمات التاريخ الرسمي التي يؤاخذ عليها المؤرخون أنهم أرخوا للوقائع من وجهة نظر الاقلية الخاصة التي هي السلطة وتناسوا وجهات نظر الاغلبية العامة التي يمثلها الشعب، فلم يكشفوا لنا عن أغوار العامة ونفسياتهم وأحاسيسهم وتصوراتهم أبان وقوع حدث ما، والكيفية التي بها تطورت سلوكياتهم تجاه هذا الحدث فيما بعد.

ووفقا لفرانسوا دوس فإن الذهنيات تخترق التاريخ على أريكة من الهواء على حدٍّ تعبيره، وأنه بمجرد أن يصبح المتخيل شخصية تاريخية دائمة ببنيتها ووظيفتها فعندذاك ستتم تغطية كل الأبعاد الأخرى

ويصبح التاريخ مؤديا وظيفة المفتاح لما نعيشه في العصر الحالي.

ونستطيع أن نبني على هذا الطرح تصورنا الخاص لتاريخ يغوص في أعماق الذهن البشري من قبل الولادة إلى ما بعد الممات في دورة لا نهاية لها، ويحفر في الذاكرة التي يقاس تقدمها بالعمر، بادئا من الأجنة وهي تسبح في فضاء داخلي آمن مطمئن، مارا بفضاء الواقع الخارجي غير الآمن، ومنتهيا باستعادة الأرض للبشر كأجنة من جديد في دورة ليس فيها فواصل بين زمان وآخر.

ولئن كان التاريخ ليس هو الزمان الماضي؛ فإنه أيضا ليس أخبارا فقط وإنما هو سردية قوامها حكايات وقصص وأخبار تقوم على مبدأ السببية لا مبدأ الزمانية. وهذا ما يدعم إمكانية دراسة التاريخ على وفق منهج يرىالتاريخ شكلًا من أشكال المعرفة. وهذا ما يسميه هايدغر بالمعاودة petition التي "هي الشكل المحدد لوجود الأحداث في نطاق التاريخية على عكس وجودها في الزمان".

وكان الروائي ميلان كونديرا قد تعامل مع التاريخ لا بوصفه علمًا، فالوصف نفسه لا يهمه وهو غير موجود في رواياته، لكنه مؤمن أن التاريخ هو تاريخ المجتمعات لا تاريخ الإنسان ولهذا كانت الأحداث التاريخية التي تتحدث عنها رواياته غالبا منسية في أعراف علم التاريخ ونظرياته، وقد وصف سلوكه إزاء التاريخ بأنه "سلوك المخرج المسرحي الذي يتدبر أمر مشهد تجريدي بعدد من الأشياء لا غنى عنها للحدث".

ولا خفاء أنّ التوالي هو الذي يجعل الماضي حاضرًا حضورًا آنيًا والحاضر مستشرفًا استشرافًا مستقبليًا آتيا، وبهذا يبتعد الجمود عن الماضي وتتلاشى صنميته ويتداعى تحنطه، بعد أن يمنحه الحاضر الحيوية ويكسبه المستقبل الامتدادية. وهذا ما خاض فيه الناقد الأمريكي ألون مونسلو مفرقا بين الماضي والتاريخ، فالأول موجود باستمرار والثاني تنتقل معرفته إلينا وفقا لمبادئ أساسية من الشكل السردي".

وكانت نظرة رولان بارت البنيوية للنص قد قطعت عليه أي طريق للوقوف عند التاريخ، بيد أن انتقالته النقدية إلى ما بعد البنيوية، أتاحت له النظر للتاريخ نظرة جديدة أساسها الإحساس باللذة، فتساءل "لماذا توجد في بعض الكتب التاريخية.. لذة في رؤية تمثيل الحياة اليومية لعصر من العصور ولشخص من الشخصيات؟ لماذا هذا الفضول بالنسبة إلى التفاصيل الصغيرة المواقيت وجبات الطعام المساكن الثياب إلى أخره هل هو الذوق الاستيهامي للواقع والصورة المادية لقولك (كان ذلك)؟ أليس الاستيهام هو الذي يستدعي التفاصيل والمشهد الصغير والخاص والذي أستطيع أن آخذ مكانا في داخله بسهولة ؟".

وقد أوصل هذا التساؤل بارت إلى وضع يده على بناء تقاني في السرد هو حصيلة

الجمع بين الثقافة واللغة والحياة والسرد، كنوع من المنطق الثقافي الذي به تكتسي سلاسل الأفعال السردية ظاهرًا منطقيًا يجعل المكتوب في الماضي متواليًا في أفعال حاضرة داخل النص. وقد قسّم بارت التوالي بهذا المفهوم إلى ثلاثة أقسام:

1) متوالية بسيطة ذات قوانين من نمط (سؤال/ جواب)لنلاحظ أن مثل هذه المتواليات تكون هامة بالقدر الذي تكون فيه مبتذلة شائعة لان ابتذالها ذاته يشهد على كونها قيدا عاما تقريبا أو أيضا قاعدة من قواعد لغة السرد.

2) متوالية متطورة ذات أنوية متعددة تتحدد في(الذهاب /البحث/ الوصول إلى موضع / الطلب / الحصول على الطلب/ العودة بالمطلوب) وبعض العناصر قابلة للاستبدال في محكيات أخرى، فالعودة بالمطلوب مثلا يمكن أن يحل محلها في موضع آخر التخلي/ التنازل.. الخ

3) متوالية الأفعال المتشكلة تبعا لبنية منطقية زمنية تتجلى على امتداد المحكي حسب نظام معقد، ويمكن لعنصرين في المتوالية أن يفصل بينهما ظهور عناصر تنتسب إلى متواليات أخرى فتتشابك المتواليات لتشكل جدلية المحكي.

واهتم بول ريكور بالتوالي بين الحياة والسرد، من منطلق ما سماه (الفهم السردي) الذي ينبع من وجود خطاب من الدرجة الأولى هو الخيال، وتتبعه السردية كخطاب من الدرجة الثانية، وبناء على هذا الفهم السردي يكون الخيال هو المحاكاة بينما السرد هو المحاكاة الثانية. أما القولبأن القصص تروى ولا تعاش والحياة تعاش ولا تروى فهو بحسب ريكور مجرد مغالطة، والصحيح (ان القصص تروى لكنها تعاش ايضا على نحو متخيل).

وريكور هو الذي فسر الحياة بوصفها قصة في طور الولادة ونشاطا وعناء وبحثا عن سرد، وأطلق على ذلك (الخاصية ما قبل السردية للتجربة الانسانية) وأن الزمن وليد الانقطاع المتواصل بين ثلاثة مظاهر للحاضر هي التوقع الذي يسميه حاضر المستقبل والتذكر الذي يسميه حاضر الماضي والانتباه الذي هو حاضر الحاضر. واستعمل فكرة(التراثية) بديلة عن التاريخ لأهميتها الكبيرة في الفعالية السردية، بوصف التراثية هي المفتاح لتشغيل النماذج السردية وتحديد هويتها على أساس تفاعل عاملين هما (المبتكروالراسب) وبالعلاقة بينهما يتشكل التراث وإذا كان الابتكار هوالقطب المضاد لقطب التراث، فإن متغيرات هذين القطبين تضفي على الخيال الابداعي صفة التاريخية وتبقي التراث السردي تراثا حيا. وبهذا التصور العلائقي للتراث تتشكل أنماط بناء الحبكة التي تجعل آثار التاريخ ممتدة بلا انقطاع.

وعبر هايدن وايت عن التوالي في الأفعال بالمدارية (Tropology) وهي فن المجاز الذي فيه تتم إزاحة الوقائع إلى أرضية التخييلات الأدبية أو إسقاط

أحد أنواع التشكل الأدبي على وقائع بنية الحبكة، مفسرا علاقة الطفل بواقعه ونموه المعرفي بالنمط المداري. وهذه المدارية تجعل الحبكة‘‘ ليست مكونا بنيويا للقصص التخييلية او الاسطورية فحسب بل تعلب دورا حاسما في التمثيلات التاريخية للاحداث ايضا‘‘ .

المتخيل التاريخي في ثلاثية القرون /

وصف هايدن وايت النص التاريخي بأنه حقيقة أدبية، نافيا بذلك الموضوعية التاريخية في التمييز بين الاحداث المهمة والاحداث غير المهمة، متاثرا بنورثروب فراي وحديثه عن الوهمية التي تقع بين (التاريخية) و(الاسطورية)

وهذا ما بنى عليه هايدن وايت نظريته التي تقوم على التعامل مع التاريخ بوصفه سردا، وسردية التاريخ لا تتجسد إلا في سرديات ما بعد الحداثة ومنها رواية التاريخ التي هي مضادة للرواية التاريخية، ومنها أيضا قصة التاريخ التي تتخذ من الواقعة وسيلة، هدفها السرد الذي به تعاد كتابة الواقعة بمتخيل جديد، وبهذا تعاكس قصة التاريخ القصة التاريخية التي فيها يفهم التاريخ بأنه الماضي، فتظل الواقعة في القصة هي نفسها في التاريخ.

بقصة التاريخ نستطيع الوقوف على فعالية السرد وهو يستعيد اللحظة التاريخية بطريقة انقلابية توصلنا الى التفتيت الذي به نلتقط تاريخ الذهنيات التي تحدث عنها فرانسوا دوس.

وهناك وسائل سردية مختلفة لبناء قصة التاريخ، ومن تلك الوسائل التوالي الذي تحدث عنه بارت، والعينة التي سنمثل بها هي(ثلاثية القرون) للقاص العراقي جهاد وجيد وهي عبارة قصص قصيرة ثلاث هي (الذكرى المئوية وخطاب القرون وذكرى القرون) وسبب التمثيل بها عائد اولا الى ريادتها في توظيف التاريخ بالمفهوم ما بعد الحداثي، فالقصص منشورة العام 1988 وثانيا أن كاتبها كان قد بلور مفهوما نظريا للتوالي يقوم على ازالة الحدود بين الاجناس تحت فضاء واسع هو السردية، وهو الذي وصف التوالي في مقدمة روايته (حكايات دومة الجندل) كالآتي (وحدات سردية منفصلة متصلة تقبس من القصة القصيرة الكثافة في المشهد والجملة وقصر الحجم بالنسبة لكل وحدة منفردة والاستقلالية النسبية ضمن هذا الحجم، ومن الرواية الروابط الوثيقة بين كل الوحدات وحدة المناخ ونسغ الأحداث المتصاعد عبرها والشخصيات دائمة الحضور والمتكررة ووقائعها المتشظية في كل الوحدات أو معظمها وسوى ذلك من خصائص‘‘.

وبهذا الاجتراح يكون جهاد مجيد أول سارد عراقي وربما عربي ـ على حد علمنا ـ وظف نظريا وطبق عمليا التوالي بوصفه تقانة سردية في التعامل مع موضوعة التاريخ قصصيا وروائيا.

والسبب الذي جعل ثلاثيته القصصية قصة تاريخ استعماله التوالي بالمفهوم الذي ضمه القسم الثالث من اقسام التوالي التي صنفها رولان بارت. وفيه

تتخذ الأفعال المتشكلة شكل بنية منطقية تتوالى على امتداد المحكي التاريخي حسب نظام معقد يقوم على وحدة الحدث التاريخي(التحرير) ووحدة المكان (الفاو)، كاشفا لنا عن خفايا هذا الحدث ومسكوتاته التي تناساها التاريخ الرسمي للمدينة، فلم يوثق سوى للانتصارات والبطولات والايجابيات الحياتية؛ بينما لم يحفظ إلا القليل من وقائع الانكسارات والسقوط والنكسات والهزائم، وهنا يظهر دور الذاكرة في حفظ هذه الوقائع بطريقة حيوية لكنها شفاهية تنتقل جينالوجيا من جيل إلى جيل.

ولأن هذا النوع من التوالي مركب ومتعدد لذلك سنقف باستفاضة عند كل توال من متواليات المتخيل السردي في (ثلاثية القرون) كما يأتي:

التوالي المجمِل /

ونعني به تكرار الفواعل والملفوظات والتقانات التي توالت في تشكيل قاعدة الامتداد في القصص الثلاث، ويمكن تحديد ثلاثة أشكال في هذا التوالي هي :

1) قصدية تكرار دور المؤرخ مرة وهو مأزوم بضغط الاحساس بالقصور في اداء مهمته كمؤرخ، ومرة أخرى وهو عازم على إعادة تسجيل حدث التحرير بالاستعانة بوثائق جديدة لم يكن التاريخ الرسمي قد فطن الى أهميتها كالذواكر والرسائل والشهادات الحية.

والسبب في ذلك التأزم وهذا العزم هو الحقيقة الصادمة التي فطن لها المؤرخ وهي أن التاريخ الرسمي تاريخ ينتقي ولا يستقصي، وصحيح انه نقل لنا أن تحرير مدينة الفاو تكرر مرتين، مرة في التاريخ البعيد في العهد الساساني ومرة في التاريخ القريب منتصف ثمانينات القرن العشرين، بيد أنه لم يسجل لنا تاريخ الاحتلال الثاني، كما لم يسجل تاريخ الاحتلال الأول.

وتبدأ الثلاثية باسترجاع ذكرى تحرير المدينة لكن بعد مرور مئة سنة عليها وأهلها يستعدون لاحتفال باليوبيل الذهبي للتحرير، والبغية الوقوف على حقيقة هذا الحدث التاريخي، ورهان السارد يتجسد في السؤال أيهما أوثق وأبقى التاريخ الرسمي أم محكي التاريخ؟

2) المداومة على استعمال السارد العليم لتيار الوعي بما فيه من تقانات التداعي الحرة والمناجاة والمنولوجات الداخلية والحوارات الحرة غير المباشرة، محاولا الظفر بمزيد من مخفيات حدث التحرير ومهملاته.

3) توزيع السارد للشخصيات بطريقة تخدم موضوعه، ففي القصة الأولى نجد المؤرخ هو الفاعل السردي الأول، الذي سيتحول في القصة الثانية الى مجرد مسرود لفاعل سردي هو السيدة الفاوية حفيدة الجد المحاصر، وقد عثرت على رسالة سيفيد منها المؤرخ كمخطوطة فيها معلومات تاريخية هي عبارة عن مذكرات تودع فيها لحظات نفسية ومشاعر انسانية دقيقة عاشها جدها. وتستحضر في الرسالة ايضا

قصة مضمنة بطلها جد الجد المحاصر وهو يقص حكاية نجاته الربانية من حكم الاعدام الذي كان منتظرا تنفيذه على سطح السفينة البريطانية؛ إلا إن وجها نورانيا ياتي وينقذه باعجوبة " ابشر يا عبد الله النعيمي انت في حمى جدك.."
ويكون الفاعل السردي في القصة الثالثة شاهدا عيانيا على لحظة الاحتلال حاملا ذاكرة اليمة عنها، وتظل شهادته حية معه لكنه عاجز عن الادلاء بها. وفي ذلك إشارة اليغورية إلى أن التاريخ الرسمي لا يكترث لشهادات الناجين الذين عاينوا الكوارث وعاشوا مآسيها وشهدوا الحروب وعرفوا أهوالها.

التوالي المفصِل/
ونعني به الاشتغال الخاص على التوالي داخل كل قصة على حدة، فقصة (الذكرى المئوية) وهي أولى قصص الثلاثية، تبدأ بلحظة الاستعداد للاحتفال، وقد تشكلت لجنة لهذا الغرض تتألف من مؤرخ المدينة وشاعرها الكبير وفنانها المعروف ومفكرها العسكري. وبتصاعد الحبك يتضح لنا أن مؤرخ المدينة يعيش حالة من التأزم والسبب أنّ كثيرا من تفاصيل الذكرى لم تحفظ، فيسائل نفسه عما اذا كان يؤدي وظيفته التوثيقية بصدق؟ ويتوكد له أن للتاريخ الأدبي دورا في التوثيق مثلما ان للفنان والعسكري دورهما ايضا " ادرك المؤرخ ان زميله بدأ يزحف على مهمته في الاحتفال" فالتاريخ الرسمي اغمط كثيرا من الاحداث حقها ولم يسجلها كما لم يستعن بالاخرين شعراء وفنانين وعسكريين في استكمال عمله التاريخي ولولا ذلك لكان تاريخ سقوط المدينة في الاحتلال محفوظا كما حفظ تاريخ تحريرها.
ويسهم التوالي في استعمال الفعل (تذكر) مثل (وهو يتذكر أول الوفود/ الآن يتذكر في البدء كان عمل اللجنة صعبا/ لا أذكر بالضبط اسمه) في جعل المؤرخ اكثر اقتناعا أن هناك تفاصيل تاريخية طالها النسيان فضاعت. ولان التاريخ الرسمي اهمل فعل الذاكرة ولم يكترث له، غدت مهمة الارخنة للمدينة صعبة وهذا ما يتضح في هذا المونولوج الذي فيه يعيش المؤرخ احتداما فكريا" حقا إن مهمتي هي الأعسر. عليَّ أن أكلم الناس عن طبيعة الناس آنذاك عن مجريات حياتهم في أيامهم تلك وكل شيء يجب توثيقه بالأرقام والنصوص والوقائع"
وبهذا يدرك المؤرخ أن عمله لا يقترن بجمع البيانات والوثائق حسب؛ بل عليه أيضا الإلمام بكل التفاصيل الصغيرة جامعًا العام بالخاص بكل جوانبهما سلبية مظلمة كانت أو ايجابية مضيئة.
وأنّى للمؤرخ القيام بذلك والمنظومة الرسمية تريد منه أن يؤرخ للمدينة فلا يظهر منها غير الوجه المنتصر، مع تغييب دور العموم من المواطنين وهذا ما يعبر عنه السارد العليم رمزيا بنصب المواطن المجهول في إشارة الى إن تاريخ المحكومين مندثر بصمت بينما

تاريخ الحاكمين معلوم مذاع.
ويصل التأزم بالمؤرخ الى الذروة حين يمتد شكه الى كل فعالية من فعاليات الاحتفال الرسمي فالقصيدة التي تغنت بالانتصار مسروقة من قصيدة قديمة، والرقصة التي أدتها الفرقة على المسرح ليست بجديدة بل منقرضة، وما عبر عنه الاستعراض بثغر العراق الباسم ليس كذلك، فلم تكن نساء الفاو ابان الاحتلال يرقصن وما كان الانتصار سفينة تمخر العباب باباء.
أما حوارية اوتوبنشتم مع جلجامش وانكيدو فليست سوى مغالطة تاريخية تريد أن تزوغ فعل الاحتلال بالتذرع بفعل الموت بوصفه مكتوبا على البشر جميعا مهزومين ومنتصرين. وكل هذه المغالطات التي تبنى على خلفية تاريخ موهوم بالتحرير والانتصار، لا يعبأ بالويلات والالام التي كابدها أهل الفاو، سيدفع المؤرخ ثمنها وهو يبحث عن وثائق جديدة تمكنه من إعادة كتابة تاريخ التحرير.
وجدير بالذكر أنّ وقائع احتلال المدينة الدامية وتحريرها ستظل عالقة في مخيلة منتج النص لتمظهر مجددًا في أحد فصول روايته (أزمنة الدم) الصادرة عام 2016، كما أشار النقد إلى تجلي أثر هذه القصة في قصص ظهرت بعدها.
وننتقل إلى القصة الثانية وعنوانها (ذكرى القرون) التي فيها يتجلى التوالي بطريقة تظهر التزييف التاريخي بشكل أعمق، فالمؤرخ سيستكمل بحثه عن الحقيقة التاريخية في الوثائق الصوتية والاشرطة المرئية من مكالمات ونداءات تلفزيونية واذاعية ومقالات صحفية.. الخ.
وتتداعى أمام مخيلته صور الجثث برؤوس واجساد وصدور ودود وبقايا بنايات مهدمة ودخان حرائق وحطام وهذا ما يوصله إلى حالة من الصحوة الذهنية، فيدرك أن الوثائق العيانية ليست وحدها التي تنقل الحقيقة بل هناك صور ذهنية مخزونة في الذاكرة، ويتساءل "الناس في كل العصور مشوقة لمعرفة ماضيها او الماضي برمته ربما لعمل مراجعة ولكن هل يحققون مثل هذه المراجعة؟ اليس الزمن كفيلا بذلك وحده؟ "، ثم يجد نفسه مراقبا من العموم، لكن عزاءه أن الزمن يحتفظ بوثائقه الخاصة "ماذا أقول لهم ؟ أحس أنهم يعرفون كل شيء فكل شيء مقروء عبر الزمن عبر أجياله لانه مكتوب على الواح الزمن اللامرئية ذاكرة الناس المتوارثة"
وألواح الزمن اللامرئية في هذا المونولوج الداخلي هي ترميز فني لحكايات الناس الحالية وخيلاتهم المستقبلية، بمعنى أن التاريخ ليس وقفًا على عمل المؤرخ؛ بل هناك الجموع المغموط حقها التي تحتفظ في ذاكرتها بتاريخها الخاص الذي تستعيده يوميًا ليظل حيًا ونابضًا باستمرار وبذلك يكون فعل الذاكرة في مصاف فعل التاريخ الذي اذا أضاع شيئا استعادته الذاكرة، فمعها لن يضيع أي شيء.

ويؤدي التوالي في التاريخ إلى جعل التخييل هو السبيل الذي به يستدرك المؤرخ ما نساه، فالتاريخ دوري استعادي، وليس أمام المؤرخ سوى أن يسترجع الحقائق لا أن يخلقها"أن مهمتي لا تصنع التاريخ فصناعة التاريخ فعل يومي مباشر وهي لاحقة به.. وأن لم تنجز مهمتي فلا تأثير لها في تلك الحقائق، وكل ما أقوله مقول قد يكون مدونًا أو لا يكون، غير انه محفوظ في ألواح الزمن اللامرئية"

وصحيح أن المؤرخ في القصة الاولى قد تنبه الى أهمية القصص والحكايات في حفظ ما غفلت عنه بيانات التاريخ الرسمي من خلال استعانة السارد بحكاية القاص المغمور الذي تخيل في قصته الاحتفال باليوبيل الذهبي لكن اسمه لم يحفظ فالمؤرخ ما كان ليحفل بالقصص كوثائق، بيد أن هذا المؤرخ في القصة الثانية سيتجاوز مستوى التنبه إلى مستوى اعمق وهو القبول بالتنازل عن دوره المحوري للسيدة الفاوية لتكون هي الفاعل السردي مقابل حصوله على الرسالة التي فيها تودع مذكرات جدها المحاصر.

وفي الرسالة يمتد الاسترجاع الزمني إلى عامين بعد المئة، في شكل مذكرات عن زمان المحاصرة داخل البيت وما تركه الجد في هذا المكان من كتابات على الجدران وعلى ساق السدرة كنوع من التوثيق الذي أهمله التاريخ الرسمي بعكس محكي التاريخ الذي به يستدل على حقائق جديدة تتعلق بدقائق اللحظات المعيشة اثناء المحاصرة. وهذا ما يدفع المؤرخ الى مقارنة ما في الرسالة من مذكرات بما لديه من وثائق وبيانات واشرطة وافلام.

بهذا تصنع الرسالة بوصفها وثيقة مرئية المتخيل التاريخي لحادثة التحرير، واذا كان التاريخ الرسمي عاجزا عن حفظ هذه التفاصيل؛ فان الذاكرة قادرة على حفظها والسبب ان الزمن بالنسبة اليها لا يقاس بالايام والساعات؛ بل هو احساس يتجاوز الوقت. وسواء أكانت الذاكرة مكتوبة في شكل ابداعي كقصة او رسالة او مذكرة أو كانت الذاكرة شفاهية تنتقل حية عبر الاجيال. وهذا ما تقدمه الساردة الذاتية/ الحفيدة وهي تضع أمام المؤرخ مذكرات جدها المحاصر، " سرد ذلك في مفكرته الصغيرة ولكن للأسف فقدت فيما بعد ..ولم تبق إلا نتف في ذواكرهم" وهذا الجد سيذكر في رسالته قصة جده العجائبية عن الوجه النوراني الذي هتف به " لا تخش شيئا واذكر محنتي وتجمل بالصبر" لتكون قصة ضمنية تدعم محكي التاريخ في القصة الأصل. وهنا يغدو التوالي بالفعل (تذكر) هو المعول عليه في صنع المتخيل التاريخي لما كان قد ضيعه التاريخ الرسمي المدون.

وبالتذكر تسرد الرسالة محنة الاجداد والثمن الذي تدفعه الاجيال وهي تردد محكي تاريخها المهمل الذي يتوالى في ذواكرها في شكل مشاعر وجدانية لا تخلو من مناجاة وخوارق، اذ باستذكار

الجد المحاصر لجده المجاهد يبتعد الزمن السردي باثنين وسبعين عاما الى الوراء، ويتوالى فعل المناجاة بينهما مكتوبا على جدران الغرفة" اغثني يا مولاي وخلصني من حصاري" وانطلاقا من فعلية التوالي يسأل المؤرخ الساردة " أأدركه الخلاص كما ادرك جده قبل مئة عام وأربعة وسبعين عاما؟ "

ولا تملك الحفيدة أي دليل مادي يؤكد النهاية التي خلصت إليها قصة جدها المحاصر، فالجدران تهدمت والسدرة ماتت، لكن الحكايات التي تناقلها الناس تظل هي دليلها الوحيد، وهذه الحكايات "تجمع كلها على انه دفن في وادي السلام الى جوار جدنا الاعلى، وحتى هذا الخبر مشكوك فيه، غير أنني زرت مقبرة الآل ووجدت اكثر من شاهدة تحمل اسماء مشابهة لاسمه بل متطابقة مع اسمه ثلاثيا سهيل نجم عبد الله النعيمي"

وفي هذا توكيد أن التاريخ ليس سوى حكايات تختفي وراءها عشرات الحكايات التي سقطت عنها الاسماء والارقام والاشكال، مخفية الحقيقة في الدهاليز والسراديب والافضية، وبمفارقة صادمة ينتبه المؤرخ " إلى أنه كان يكلم نفسه ماسكا رسالة السيدة الفاوية على آخر صفحاتها" كتوكيد أن للتخييل دوره في بناء وقائع التاريخ.

ونصل هنا إلى القصة الثالثة وعنوانها (ذكرى القرون) وفيها السارد شاهد عيان عاصر احتلال مدينة الفاو وهو طفل صغير وقد رأى صورًا مأساوية وسمع أهوال القصف وازيز الطائرات، والمفارقة انه منسي واقع على هامش تاريخ لم ينتبه إليه ولا الى قصته وما اختزنته ذاكرته من مشاعر وصور هي حية معه طول عمره وستندثر معه عند مماته. وبالرغم من محاولة المؤسسة الرسمية ممثلة بمحطة التلفزيون والمذيعة التي يصفها السارد الشاهد بالزبدة مؤكدا التزويق الذي تنطبع به أفعال هذه المؤسسة، مشككا في صدق نيتها في تسجيل إفادته ونقل شهادته للعالم بوصفه اكبر من سيؤرخ لمدينة لفاو" قل كل ما تتذكر فانت الوحيد من سكنة المدينة ممن شهدوا احتلالها وتحريرها على حد علمنا"

والمفارقة انه سيحجم عن تقديم افادته، وسيفرح حين تتركه المحطة وشأنه" ولوا كما ولى الغزاة كدت اصرخ بهم اطردوهم.." اما لماذا احجم عن الادلاء بشهادته فالسبب هو طول سكوت التاريخ الرسمي عنه، الذي افقده القدرة على الكلام فلقد تيبست حنجرته ووهن سمعه فلم يعد يسمع صوتا بشريا بوضوح. وفي ذلك إشارة إلى أن الهوامش نفسها تزدري التاريخ الرسمي مثلما هو يزدريها، وكنوع من رد الفعل الطبيعي للهوامش على عهود طويلة من اللامبالاة وعدم الاكتراث التي قابلهم بها التاريخ الرسمي.

وما كان لهذا التاريخ أن يفطن الى أهمية الذاكرة والشهادة؛ إلا في المرحلة التي تفتت فيها مركزياته وصار لزاما عليه

الارتكان الى غير الوثائق الورقية. وواحدة من الوثائق الذاكرة الشفاهية التي فيها يكون للتخييل دور في استكمال الحدث التاريخي.

وما تحتفظ به ذاكرة الشاهد العيان عن احتلال الفاو، هو لحظة الهجوم التي عاش معها فتى صغيرا ويعيش معها حاليا كهلا كبيرا، ورهابة هذا الحدث تجعله يتوالى أمام ناظريه مقترنا باللون الاحمر لذلك داوم على جعل كل ما يحيط به بلون أبيض " كل مدن الارض وفي كل الازمان اتعس ايامها هو يوم احتلالها وابهج ايامها هو يوم تحريرها. نعم شهدت تلك الفترة لكن الزمن يغلق نوافذ الذاكرة يتكدس اكواما في طريقها فيحول دون جريان الماء في سواقيها"

ومعلوم أنّ الذاكرة الانسانية ذاكرتان: ذاكرة لا واعية تتداعى أمامها لا إراديا التفاصيل اليومية من اكل وشرب ولبس؛ وذاكرة واعية تستحضر فيها التفاصيل بقصدية. وهذه الذاكرة هي التي تعمل عند الشاهد" سأتذكر أتذكر نعم،نعم ..سأعيد تذكر ما ظللت أتذكره وأرويه في مناسبات مختلفة حتى اضحى بعد فترة من الزمن شيئا منفصلا عني كانني لم اعشه لا يخصني بل يخص غيري" أو قوله:" اتذكر جيدا.. اتذكر ذلك طوال عمري..حسبما رسبته الايام في ذاكرتي..ظل ينفجر في ذاكرتي.. ظللنا نذكر هذا اليوم"

ويتجلى التوالي في تداعي ذاكرته الواعية على شكل لوحات وهو يستذكر حدث استشهاد سمية الفاوية السمراء الذي علق في ذهنه، فمرة هو "الجرح الغائر في القلب لا يندمل ولا ينفع معه مرهم السنين المتكدسة مهدئات الزمن "، ومرة ثانية هو الليلة التي لا تنسى، ومرة ثالثة هو" سائل بلون شريط شعرها .. منذ الحين وانا ارى هذا السائل في كل لفافات ضماد للمعسكر في ساحات الوغى..في ثياب اطفال المدارس المقصوفة في كل الاصوب والانحاء"

ويبين هذا التوالي السردي لفعل التذكر كيف أن التاريخ الرسمي لا يوثق ما يوثقه التاريخ المحكي الذي يحفر في ذاكرة الوجع والسقوط، باحثا عن مشاعر الخوف والشؤم عند شعوب ما عرفت إلا الدماء. وهذا ما يعزم المؤرخ الذي صحا تاريخيا على القيام به، فقرر الاحتفاظ بشريط سمية وصدريتها وحقيبتها في متحف المدينة كملكية عامة؛ وهنا يباغتنا السارد بمشهد التلفزيزن وهو يعرض صورة المذيعة وصوره الاشجار الجميلة من خلفها، لتختتم الثلاثية القصصية والمؤسسة الرسمية تزوق المشاهد، فلا تعرض من تاريخها سوى الذي يناسبها. وهكذا تضيع آثار الاقدام وتختفي بصمات الاصابع؛ وكأن لا شيء حصل.

حماقة الحروب وتفاهتها
قراءة في رواية (كولستان والليل)

عبد السادة البصري

((ملعونة هي الحرب،، وملعون من يشعلها)) تبقى هذه المقولة ماثلةً للعيان دائما كلما قرأنا أو سمعنا شيئاً عن حربٍ ما !!
لأنها تعبّر تعبيراً حقيقياً عن النظرة المثلى للحروب، وفي الأدب (رواية، قصة، شعر) كثيرون من كتبوا عن الحرب، كلٌّوفق رؤيته لها وعلى شاكلته !!
الشاعر والكاتب الكردي (حسن سليفاني) في روايته القصيرة (كولستان والليل) نظر الى الحرب من جهة أخرى، هي الانتظار،، انتظار المرأة وشوقها للزوج الغائب. ـ لكن كيف غاب وأين ؟! هذا ما تفصح عنه الأوراق المعطّرة برائحة البيبونوالبارود، أما في التداعيات فإننا نعيش ليلة انتظار وشوق وترقّب وذكريات من (كولستان) بطلة الرواية ـ الوردة التي عبقت في ليلةٍ لتعطّر عمراً كاملا من الأحلام والذكريات والآمال، ومن خلال علاقتها بزوجها الغائب المنتظر من جهة وعلاقتها بأولادها ((شينوار، أردلان)) وجدتهما وجدهما من جهة ثانية، وكذلك من خلال علاقات زوجها بزملائه في العمل .فيوميات الذاكرة نجدها في زياراتهما الى الحديقة وكيفية تعاملهما مع الطفلين، كذلك حفلة خطوبة أخ زميلته في العمل واللقاء بصديقات الزوج، وهناك أيام الدراسة والحياة الطلابية التي عاشها الزوج قبل التخرج إضافة الى ما نجده في حكايات الشوق والانتظار التي تتكرر بأكثر من مكان :ـ
(وحقِّ عينيك سآتي ..لكن ربما سأتأخر قليلا ..
ـ لا يهّم مهما تأخرت، لكن تعال ..) ص5
(لكن ليأتي الليلة لأتمكن من رؤيته، غير هذا لا أريد شيئا) ص6
(أنا والليل والذاكرة وكوني المتآكل سنكون في انتظاره) ص7
(هيا تعال بسرعة، بالله عليك تعال، أنا بانتظارك، كلنا بانتظارك، أنا وطفليك وشجرة التين وكتبك وملابسك المشتاقة لكمثلي) ص7
هنا يتبادر الى ذهن القارئ سؤال:ـ كم من النساء اللواتي انتظرن دون جدوى؟! وكم منهن بقين على مفترق الطرق؟!
الخاسر الوحيد في الحروب دائما هي المرأة ..كأن تكون أرملة، أو يتيمة، أو أماً ثكلى، أو حبيبة منتظرة ولا تدري كم سيطول انتظارها ..الخ !!

(حقا المرأة بدون رجلها شجرة مكسورة، ضعيفة ـ مهزومة، لا تستطيع الصمود أمام عواصف الحياة) ص16

وسؤال آخر أيضا :ـ كم من الأطفال تركتهم الحروب يتامى، مشردين، مشوهين، وحتى منحرفين ..الخ ؟؟!!

(أين أبونا يا أماه ؟ لماذا لا يأتي الى البيت؟) ص17

(لا أريد ملابس،، أريد أبي) ص17

هنا يؤكد الروائي على الصعوبة والشدائد التي تلاقيها المرأة أمام أطفالها عند غياب الزوج،، وبالأخص إذا كانت لا تستطيع أن تعطي أو تمتلك جوابا شافيا لكل تساؤلاتهم:ـ

(امتلأ حلقه بالبكاء وبكى بحرقة، لم استطع أن أهدئه، احتضنته، وتوحدت دموعنا معا وكنت أسمع صوتك يأتي من أعماق بعيدة، سحيقة، يأتي بصعوبة :ـ واحسر تاه لما حلَّبكم، ليُخرّب الله بيت الذي أبعدني هكذا عنكم) ص17

وهكذا يظل الروائي متحدثا بلسان (كولستان) وأشواقهاوتداعياتها وانتظاراتها ولهفتها وذكرياتها عبر متوالية سردية هي أشبه بجيشان من الهمّ والانتظار والتقلّب على فراش الوله والشوق للزوج الغائب الحاضر، قبل الدخول الى سريرته عند تصفح أوراقه المعطّرة بالبارود والتي تعبق برائحة البيبون سنقرأ فيها هواجس الجندي الكردي، وعلاقاته مع رئيس العرفاء المتعجرف الغبي الأحمق وكذلك مع زملائه الآخرين فمن تداعياتها التي تنقّلت بها من صفحة الى أخرى نقرأ :ـ

(دلشاد ..يا قلبي .. أتعرف إني الآن أتحرق إليك ..الى كلمة منك، نظرة، حركة، ابتسامة منك، أين أنت يا دلشاد، تعال، كفى ما عدت أقوى على الانتظار) ص 47 ـ 48

(ابتعد عنّي أيها النوم واهرب، إنني أعلنت عليك الحرب الليلة، كيف سأنام ودلشادي لم يأت بعد، كم من الأيام والشهور مرت وأنا انتظر هذه الليلة) ص52

(دلشاد، حبيبي، قد أطلت كفى، تعال، ما عدت أقوى على التماسك) ص53

من كل هذا نبصر ألم المرأة ووجعها من أثر الحرب .. إنهاتذكرها دائما، فهي التي سلبتها الزوج، وهي التي تركتها في خضّم بحر متلاطم من الآلام والحسرات والأحلام التي لم تتحقق والذكريات والمواجع !!

الكاتب حسن سليفاني يرسم بريشة فنان محترف صورة للحرب مقيتة وبشعة من خلال بطلة روايته عندما سيق زوجها الى العسكرية وكيفية معاناته مع الضابط ورئيس العرفاء وما الى ذلك،، إضافة الى حبه للكتابة والقراءة وما يتمخض عنها :ـ

(بقراءة الكتب يا أبي يصبح الإنسان أكثر إنسانية) ص14

(بصراحة كانت هذه الكتب كثيرا ما تغدو حسناء ذات ثمانية عشر ربيعا تشاركني حبه) ص14

(يا الله بسرعة خذ بدلتك واغرب عن وجهي قبل أن أرسلك البالحلاق ليلمّع رأسك) ص30

(ليتكِ كنتِ رأيتِ عينَيّ عريف الإعاشة الزائغتين وجبينه المعقوف الذي يبدو عليه بوضوح أثر البيرية، ووجهه الذي أحرقته الشمس) ص30

(لا أحد أفسد علينا متعة عملنا غيركم أنتم أصحاب الأقلاموالمدارس) ص30
(هذا العريف بالقوة يفرض نفسه على الجنود الجدد، له عقل جامد كالحجر) ص30
وتظل تسرد حكاياته عن العسكرية التي كان بعيدا عنها فكرا وقلبا وعقلا وما كان يعانيه خلالها :ـ
(الضابط يكره الكتب، ويجن جنونه عندما يرى أحدا يثرأ) ص41
(دلجاد جم مرة كلت لك لا تقرا ..لا تقرا) ص41
وتظل حكاياتها أو بالأحرى حكايات زوجها عن الحرب المفروضة على الجميع وما تركته وستتركه من مآس وويلات وخراب ودمار طاغية على مسار الرواية كلها، إنها بسبب الحرب فقدت الراحة والاستقرار مع زوجها، وبسببها أيضا فقد الآخرون الحياة وما شابهها :ـ
(الحياة في ظل الحرب خامدة، صدئه، والعنادل صامتة كأنها فقدت ألحان التغريد والطيران، هكذا هي الحرب لا تعرف الأصول والرسميات، تلعب بالأرواح مثلما يلعب الأطفالبالدعابل) ص42
(هكذا هي الحرب، الحياة فيها باهتة بلا لون) ص42
(يا للحيف، يا للأسف أن يغادر هؤلاء الشبان رغما عنهم، بلا وداع وبهذه الهمجية دون سبب معقول) ص52
وتندرج هذه الذكريات / الإدانة الكبرى للحرب ضمن الأوراق التي وجدتها في درج مكتبة زوجها وأخذت بقراءتها ورقة ورقة،، إنها الرواية الأخرى داخل الرواية الأم حيث يقول في الورقة الثالثة :ـ
(هذه هي الحرب، دماء، هلاك، موت، رعب، موت العصافير والحمامات) ص61
(ما نهر الدم هذا الذي نتلوى فيه ؟، وما هذه النار المستعرة التي أوقدها الحمقى ويحرقوننا فيها ؟) ص61
هنا يؤكد ما ذكرناه من مقولة معروفة في بداية حديثنا (ملعون من يشعلها) :ـ (الحرب يا حبيبتي لا تعرف الأعياد والقبلات) ص62
إنها حرب فرضت على الجميع .. ولابد أن يدفع الجميع الثمن ..ثمن رعونة الحمقى ومصاصي الدماء !!
لقد أكد الروائي حسن سليفاني على حماقة الحروب وتفاهتها، وضياع الأمل والمحبة بين الناس بسببها ـ فروايته هذه سيناريو فيلم كبير وطويل يلعن به الحرب وصانعيها ويؤكد على التلاحم والوئام والمحبة بين الناس جميعا وبين الإنسان وأرضه فـ(دلشاد) يعشق الجبال وكردستان جميعا مثلما يذوب عشقا بكولستان، يعشق نهاراتها ولياليها، حدائقها وأنهارها، جبالها وسفوحها، قراها ومدنها،، انه امتداد للأرض حتما، لهذا نراه بعد هذا العناء يحمل بندقيته رافضا كل شيء وصاعدا الجبل لمقاومة الأشرار وصانعي الحروب !!
يترك الروائي نصه مفتوحا ليعطينا صورة أخرى لفك مغاليق نصوص آتية وان الحياة ستستمر رغم كل ما تخلفه الحروب من خراب !!

كولستان والليل / رواية كردية قصيرة / حسن سليفاني / القاهرة 2011 / الطبعة الخامسة .

همسات اخيرة

عصام كاظم جري

بعد
كلّ حرب
تزدحم الاشواق بالسكون
بينما
الاشجار تعانق الحروف
المفرطة بالاصفرار
بندى مجروح..

الهمسات
المبحوحة
لا طائل منها
والبيوت اقبية من الاحزان..

كم مرة قلت: لك
أيتها الحبيبة
للعواصف خيبات
وللقمم الفارهة بياض كثيف
كيف لي أن أطلق النوافذ؟
للحروف الهجائية
للدفاتر المدرسية
للاله والشمس
للالم..
الذي يكدس كل هذه الجرأة
فوق جسد
هش..
بريء..
مثل الأمل
هذا الصباح
وهو ينتظر عودة النهار..
بريئة...
هي الفصول
التي كنت أعدها
صديقة الخيانات.

العالم.. قبر زجاجي

أوس حسن

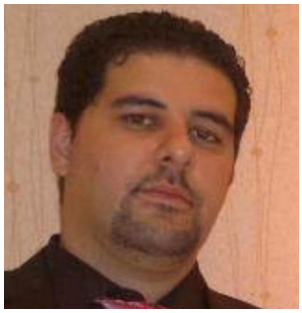

-1-

احتفاء بالعدم

كأي صدفة خلقت العالم..

وبعثت الأشياء من مهدها

أفتح نوافذي وستائري للزائر الجديد

للجنون القادم في عربات الشتاء

للكوابيس الباردة التي تقاسمني وحدتي

ثم تسرق حنجرتي في عمق الظلام الكثيف

للصور التي تتباطأ أمامي على الجدران

للضباب المتكاثف فوق الرخام..

وهو يبعثر المدى

لنجمة تضاجع الصدى

للأصوات التي تتقافز من رأسي..

ثم تسيل كنشيد بين الشفاه المرتعشة

لشبحي الذي يخدش الزمان بمخالبه

وهو يتسكع في زوايا المدينة الميتة

وكأي صدفة أيضاً.....

أفتح نوافذي وستائري للزائر الجديد

للرحيل.....

للنسيان.....

للعدم.....

وللسراب الذي سيبتلع العالم..

-2-

عبث

أكتب لنجمة مهرولة في النهار..

لغيمة في مقهى ..

لمدن تأكل أبناءها في الحروب

لغرباء يصطادون الظلام
لظلال بلا أجساد
لأنبياء صامتين
وموتى عائدين
أكتب للصدى في حنجرة الضباب
للموسيقى خلف ستار العدم
أكتب لكل هذا العبث ..
أكتب لكل هذا الرماد.....

-3-

حياة سرية
وحيداً يكبر في العتمة ...
كضوء جريح
وحيداً ينسل من بين الغيوم ..
كريح تجرح جسد البحر
وحيداً يتكور في الزوايا المهجورة ..
كظل حجري
وحيداً يسمع شهقة الماء في رقصة النار ..
كشيطان تائب
وحيداً يقف مبتهجاً أمام العالم
الأصم الذي فقأ عينيه بمخرز..
وهو ينصت لموسيقى الأرض ..
ويرى ما لا يُرى .....

-4-

نصف إله
تعلمت .....
الغموض من البحر
الحكمة من النهر
العزلة من الجبال
الصمت من العزلة
اليقين من الماء
الشك من النار
والنبوءة من الحلم ....
لكنني أحلم ...
..أن أتنفس كوردة
أو أفكر كغيمة عابرة في الطرقات المهجورة
أنا نصف إله يرمم سماء متصدعة
وحده الإنسان من أورثني سفر أوجاعه الزرقاء....
وتاريخاً محنطاً من الدموع...

-5-

(حانة)

في نهاية زقاق مهجور..

حانة نصف مظلمة...

تتعالى منها صيحات السكارى وقهقات النساء

وثرثرات مشوشة تتداخل مع طقطقات الكؤوس

لافتات عارية..أضواء ماجنة ... أناشيد وأخبار

عن الحرب والبطولات والمغامرات الخليعة ..

وعن خطبة الكولونيل ذي العين الواحدة

وجنوده الذين اختفوا فجأة في البحر

في ركن بعيد من الحانة ...في زاوية لا مرئية

يجلس رجل بلحية كثة.. وعينين غائرتين..

ومعطف طويل

يتذكر ابنه المفقود في الحرب فيلتمع الليل

تسقط دمعة في الكأس الفارغة ..

تترنح الحانة...

ويصير الكأس بحراً

-6-

(قبر زجاجي)

أمام البحر جندي بساق مبتورة ....

ووجه شاحب نحيل. وعينين متجمدتين

يخبىء ذاكرته ورسائله القديمة في زجاجة

يرمي الزجاجة في البحر .....

ويمضي إلى شعاع في أقاصي الجليد

صار الوطن حبيساً في زجاجة ..

ابتلعت الزجاجة كل محيطات الأرض

وصار العالم قبراً زجاجياً.....

(العزلة المقدسة)

يمكنك أن تطيل النظر في زهرة...

كي تصبح حديقة وينبت العشب من بين عظامك...

أو تطالع صفحات كتاب قديم لتبحث عن ذكرى..

خطِّتها أصابعك المرتجفة عندما كان الشتاء..

يمطر قصائد وأغنيات ويرسل إليك إشاراته الغامضة..

لست وحيداً كما ينبغي ..هناك أشياء كثيرة لتفعلها:....

أن تجلس مع غودو في مقهى المدينة منتظراً عودة شكسبير

أو تلعب الشطرنج مع ملك من ملوك اتلانتيس

يمكنك أيضاً أن ترحل مع الطيور وهي تفر مذعورة...

من رصاصة ضلَّت طريقها ..

أو تتأمل وجه طفل يرسم بدمعته تجاعيد النهار

لستَ وحيداً كما ينبغي ..

يكفي أن تبتسم امرأة في وجهك..بكت قبل عشرة أعوام

عند منحدر النهر لأنها نجت من الموت بأعجوبة..

يكفي أن تغمض عينيك في العتمة وتحلم بأسلافك الآلهة

أو تستمع لإحدى سيمفونيات بيتهوفن

لترى كم صغير هو العالم كحبة رمل

احتفي بعزلتك ..

ولتبق وحيداً كأي نبي..

ففي الخسارات وحدها...

تلتمع الحقيقة ....وتكتمل الأساطير.....

يأتي ولا يأتي

د .سلام حربه

انا معلم ابتدائية، عمري تجاوز الخمسين عاما، خدمت في مديرية تربية العمارة قرابة الثلاثين عاما، الكثير من اطباء ومهندسي ومحاميي ومدرسي ومعلمي وشعراء وقصاصي ابناء العمارة تتلمذوا على يدي، وارى رغم فراقهم لي سنينا طويلة ، بعضا من قيافتي في طراز لباسهم وتسريحة شعري وقد استنسخت خصلة شعري السوداء، علامتي الفارقة، المتهدلة فوق عيني اليسرى بسبب سيولة شعري وهطوله الكثيف لأدنى حركة من رأسي لتلامس حاجبي، أكل سوادها البراق نصف جبهتي العريضة وزادت من دكنة بشرتي السمراء واصبحت فيما بعد موضة لبعض شباب العمارة المقتفين لخطاي، اما طريقة كلامي ونبرة صوتي وحركات يدي فكنت احسدهم على براعتهم بتقليدها..

لم اكن معلما لهم فقط بل كنت لهم ابا واخا وصديقا وهذا الحب لتلاميذي هو ما دفعني ان لا اتزوج، فقد كنت اشعر ان كل الطلبة هم ابنائي ولن يضيف ابن تلده زوجتي، ان فكرت بالزواج، رقما مهما في قائمة من اشعر بأبوتهم، حتى اني كنت ألاحق طلبتي ليس عند تخرجهم من مدرستنا الابتدائية بل في كل مراحل الدراسة وازورهم في مدارسهم وكلياتهم ولن يفتر حرصي الا حين اراهم وراء مكاتب وظائفهم وعند هياكل ابنيتهم وفي عياداتهم وشهادات الاعجاب والفخر تتدلى فوق رؤوسهم.. عشت وحيدا في بيت ابي في مركز مدينة العمارة ، بعد ان تزوجت اختي الكبيرة ليلى واخي (الاصغر مني) خالد ، حين تزوج ، استأجر بيتا صغيرا لانه كان يردد على الدوام استحالة العيش معي اذ لا يجتمع نهم حب المال وجمعه شعارا رفعه اخي، منذ نعومه جشعه ، مع الثقافة وحب الوطن والموت في سبيله يافطتي التي ترافقني على الدوام .. ترك اخواي بيت العائلة لي فتعلمت الوحدة ومحاورة النفس وتصويب غرائزها وما يفيض لدي من وقت ابذره في مقهى فرج في مركز المدينة حيث يلتف حولي طلابي وقد اصبحوا رجالا تشير لهم العمارة باحترام لكنهم ما زالوا حين يجلسون امامي في المقهى ينكسون رؤوسهم ويفتحون اذانهم فما زال كلامي يعلق على جدران عقولهم رغم انهم الان اطباء يختزن المرضى المشافون العرفان والشكر في عيونهم ومهندسون تدل عليهم ابنيتهم والبيوت التي شيدوها على فيض

خيالهم وسعة عوالمهم ، المحامون يلاحقون الفاسدين اينما يكونون كي يحجروهم وراء قضبان القانون وشعراؤهم وقصاصوهم يوميا تزدحم الجرائد والمجلات في بغداد والمحافظات والدوريات العربية بابداعهم وجنونهم، كانوا يسمونني بابا جميل وحتى افكاري التي زرعتها بهم ما زالت اشجارها يانعة اقطف ثمارها من احاديثهم الشيقة وثبات مواقفهم كالأشجار المعمرة التي لا تنحني لضروب رياح السياسة العاصفة والتي لم تهدأ في البلد من يوم ولدت اول خلية انسان فيه وحتى اخر نبضة للزمن ولدت مرعوبة.. قارعوا الظلم حين انغرزت مخالبه في ارواحهم الطرية خمسة وثلاثون عاما وقلوبهم خزائن حب لا تفرغ ليس لبلدهم فقط بل للانسان اينما يكون ..لم يخطر في بالي يوما ان اتزوج ويقاسمني خلوتي وتأملي امرأة قد تثير من غبار المشاكل في وجهي اكثر من غبار حب لم يعد يثير شهية في الروح، لا اعلم لمَكنت اشعر بالخطر يلاحقني واقرب لي من حبل الوريد ولذا فقد ازحت عن فكري ان تقاسمني الفاجعة التي ممكن ان تقع لي في اية لحظة امرأة لا ذنب لها سوى انها قبلت الاقتران بي لاتركها من بعدي ارملة تقاسي الم الوحدة والحرمان والكآبة.. كانت عيون الفاشلين والحاقدين في مديرية التربية ،في ايام الحصار والافلاس في الحروب الكونية التي خاضها بلدي المصاب بالهزال وفقر الدم من طيش هرقل الجبار وبطولاته الزائفة ، تتربصني في رواحي ومجيئي وتتحين الفرص للانقضاض عليّ لكن بياض يدي ونصاعة سيرتي والتفاف الناس حولي وضعوا اسلاكا شائكة حولي منعت يد الجريمة والغدر ومقاصل رجال الحزب والاجهزة الامنية في زمن الدكتاتورية من الوصول اليّ والاجهاز على حياتي، لكن بيوض النيات المضمرة، من حقول الكراهية التي شيدوها في طول البلاد وعرضها، قد فقست ما بعد 2003 عن فراخ توصوص ليل نهار بنشيد الانتقام وبذر الظلام في الطرقات والنفوس وفرصتهم الان اكثر من سانحة للايقاع بي والتخلص مني الى الابد ، لم يتغير السلّم الوظيفي في تربية العمارة فالمدراء بقوا في اماكنهم لانهم ماهرون في تغيير مكياج وجوههم وملابسهم واختفت ملامحهم وراء لحى كثة واثار طاعنة في جباه وجوههم من اثر الكي بثمار الباذنجان الساخنة وقطع الحجرالمشوية والتفنن بممارسة طقوس وصور دينية خرافية كي يتصدروا واجهة القطيع المدجن ويشار لهم باصابع التقوى والايمان.. ذاقت المديرية طعم علقم بنكهة نفاذة بتنسيب مدير عام جديد فرضه احد الاحزاب الدينية كي يدخر رصيدا دسما للانتخابات القادمة ، لان من يكسب رضا المعلمين والمدرسين سيؤمن كرسيا او اكثر في اية انتخابات صورية تجري في البلد ..ارسل المدير العام بطلبي، رغم انه لم يمض سوى اقل من اسبوع على تعيينه ، بدا يعرفني حق المعرفة وقد حفظني عن ظهر قلب وكأننا زملاء منذ عشرات السنين رغم اني لم التق به يوما ما.. بادر بالكلام قبل ان التقط انفاسي..

- استاذ جميل.. لقد قررت المديرية نقلك الى قرية ام الزنابير في هور الحويزة..

اجبته بدهشة وقد التصق لساني بفمي..
- نقلي.. والى هور الحويزة..؟
واصل المدير العام كلامه دون ان يرفع راسه الي وينظر في ورقة امامه..
- نعم.. لقد بنى احد المواطنين مدرسة على نفقته الخاصة ولن نجد اصلح منك كي تدير هذه المدرسة.. الم تنذر نفسك لخدمة الطلاب والتعليم..؟
عقبت بحيرة...
- ولكني استاذ انا معلم هنا في العمارة منذ ما يقرب من عشرين عاما ولم توجه لي يوما اية عقوبة بالعكس فان اضبارتي حافلة بكتب الشكر..
نظر الي وابتسامة ماكرة تملأ وجهه الاصفر المفلطح..
- لهذا السبب تم اختيارك ، انتم اصحاب الفكر تتسابقون كي تقدموا خدماتكم الى الناس الفقراء ولن تجد مثل تلك البيئة لنقل افكارك وترجمتها الى واقع حي وانا اعلم انك تعيش لوحدك هنا في العمارة والطبيعة هناك خلابة ساحرة تبعث على التأمل والقراءة وانت حسب علمي تحمل فكرا يؤمن بالواقع والطبيعة..
في الطريق الى ام الزنابير اجتزت ولمدة ساعتين وبمشحوف قديم بحارا من الماء ومستعمرات كثيفة من القصب وممرات مائية ضيقة بين جدران شاهقة من عيدان قصب غليظة شاهقة كأنها سنان صخرية ، يرافقني في رحلتي ويسابق المشحوف الذي يدفعه محركا صغيرا من الديزل قطعانا من الاسماك الماكرة المراهقة ،شاهدت قرى عائمة لم يسبق ان شاهدتها من قبل علما باني قد زرت الهور وقراه القريبة من حافة المدينة.. من صادفني من الرجال والنساء ،الذين يحصدون القصب لعمل الحصائر واسيجة البيوت الواطئة او قرب بيوتهم العائمة على جزائر مهتزة من مراقصة الريح، يلبسون السواد على الارجح حتى ان كل المسافة التي قطعتها لم ار الا ثلاث الوان سماء زرقاء تعير لونها وجه الماء الساكن وورق القصب الاخضر وعتمة بؤس تصبغ وجوه المعدان القاطنين في أشباه بيوت ناتئة اضلاعها القصبية وجاموس ينقط لوحةالهور الزرقاء بالسواد الغافي الاليف وطيور نزقة اشترت من كل هذه الالوان من مزاد طبيعة ضاحكة ،فكان ريشها يتماوج قوس قزح حين تتكسر اشعة الشمس بين الزغب النابت وريش الطيران وتبدو اسرابها اللعوب كقطعة موسيقى تختزن شدو كل الالات وترانيم الجمال.. عند الظهر اوصلني القارب وحقيبتي الصغيرة الى قرية ام الزنابير، اكواخ كثيرة ترتفع بعناء كالدمامل تنوء بعجزها تتناثرعلى جسد كبير كالح رابض في بطن
الهور، مرصوفة ارضيته باعواد القصب المغطى بطبقة ثخينة من الطين ، ما يشهق منها ويتميز ،حين اقترب القارب
من ضفة القرية ومرسى زوارقها، رابية ترابية تشهق اربعة امتار عند حافة الماء ومأذنة
من اعواد قصب مشذب تعلو على البيوت في منتصف القرية .. استقبلني حين وصلت القرية واخذ بيدي شيخ العشيرة فزع وقد التصقا به ومحا ظله شابان مسلحان تتقاطع

شواجير العتاد على
صدريهما وبقربه راضي رجل الدين بلحيته الطويلة المحناة وجديته المصطنعة ومطلك الرجل المحسن المقعر وجهه بالالم المزمن وهو من بنى المدرسة وعدد من الرجال النحيلين الشبيهين بالاعواد الجافة والمدبوغة وجوههم من شمس حارقة والذين كانوا ينظرون الي وكأني هبطت عليهم من كوكب اخر ربما اثار انتباههم طولي الفارع واناقتي المبالغ بها.. على مسافة خمسين مترا قطعة على بناء طويل محدب مملوج بالطين كتب عليها مدرسة النور يقف عند سياجها الواطىء عدد من التلاميذ الحفاة المتسخة وجوههم ودشادشيهم الكالحة مدلوعة عن صدور سمر ناتئة ، يحملون دفاتر بايديهم مشدودة ابصارهم نحوي بوجل وخوف.. خطونا عدة خطوات ، بدرت مني التفاتة الى الرابية الترابية وشاب في العشرين من العمر يجلس فوقها ينظر في افق الماء ويستعين احيانا بكفه كي يخفف انعكاس شمس الماء في عينيه..
التفت الى مطلك الذي يمشي بقربي.
- الى ماذا ينظر هذا الشخص..؟
اجاب راضي وعدم الارتياح يقبض ملامح وجهه..
- الى الذي سيأتي..
- ومن هو الذي سيأتي..؟
لم يجب راضي واستعاض عن الكلام بان مسح بانفعال وجوه كل رجال القرية المتحلقين حولي والذين وجدوا في الذهاب الى مضيف مطلك خيرا من تبادل الحديث مع رجل اخرق مثلي..
تكلم مطلك وهو يشير الى بيت عند حافة جنوب القرية..
- تفضل استاذ..
- جميل..
تابع الكلام بثقة..
- تفضل استاذ جميل ، غداك مصبوب ببيتي..
حمل احد الرجال الحقيبة بعد ان تلقى اشارة من عين الشيخ فزع كي يخفف عني وزر حملها.. في مضيف مطلك وعند بابه يقف الشابان المسلحان ،تناولنا طعاما شهيا من الرز والسمك المسكوف، كان يجلس على جانبي شيخ فزع وراضي اللذين ابديا من لحظة رؤيتهما لي عن امتعاضهما البادي على وجهين منقبضين وفمين لم ينطقا بكلام الا اشبه بالحجر يخدش الروح والجسد.. ونحن نرتشف اقداح الشاي كسّر الصمت الملغوم بقد فتيل حديث جديد ابتدأه مطلك..
- لقد حَرمتنا الحكومات من التعليم ،انا وابنتي زهرة وكل ابناء القرية.. قررت اخيرا ان ابني مدرسة في الارض التي املكها واعلّم ابناء القرية القراءة والكتابة فالعلم نور والجهل ظلام ..
يعجبني الانسان الذي يفتتح حديثه بحقيقة حتى وان كانت مطروقة ،وهذا ما سال له لعاب شهيتي للتعقيب على كلام مطلك..
- صحيح حاج ،لم يسبقنا الغرب الا لأنه تعلم قبلنا..
قاطعنا راضي وبامتعاض ..
- التعليم احيانا مفسدة للدين والاخلاق ، انظر الى الغرب الكافر وكم من المعاصي يقترفون يوميا ، سعادتنا في رضا الله عنا.. الحياة دار فناء..

المدرسة من الداخل صف طويل مبني من القصب المحاك بمهارة فائقة ومفروش بسجاجيد محلية الصنع قديمة وبالية، في منتصف الجدار الخلفي سبورة صغيرة وعدد من اعواد الطباشير ، كان الملتحقون للصف قرابة العشرين تلميذا تتراوح اعمارهم ما بين السادسة والثانية عشر سنة ، يبعد عن قاعة الدرس مسافة الخمسة امتار غرفة صغيرة اتخذتها سكنا لي رتبت فيها سريرا من جريد النخل ووضعت على جانب منها كرسيا متهالكا ومنضدة صغيرة اجلس اليها في اوقات الفراغ فكانت ادارتي للمدرسة يراجعني الطلاب حين يبغون شيئا.. واظبت على اعطاء التلاميذ خمسة دروس يوميا في القراءة والحساب والعلوم وفنون الرسم وحب الاستماع الى الموسيقى حيث كنت غالبا ما اغني امامهم اغاني الجنوب والماء والهور التي يحفظون اكثرها واجبرهم على ان يعيدوا الاغنية بطرب من بعدي..احضرت لهم من العمارة كتبا مدرسية للمراحل الاولى وكثر الملتحقين الى الدرس من الشباب الذين قد تتجاوز اعمارهم الثامنة عشر عاما.. كل من في القرية كان يشعر بارتياح والابناء الذين يقضون اوقاتهم في السابق على ظهور الجواميس او في المشاحيف بين اجمات القصب وصيد الطير والسمك الان يفرشون كتبهم موزعين عند ابواب بيوتهم لا يستدل عليهم الا اضوية المصابيح التي تريهم سحر حروفهم وكلماتهم التي يخطونها في دفاترهم ،ابتدأوا يتهجون اسماءهم ويفكون الغاز الكتابة ويتلون كلاما من الكتب لم يسمعوا مثله من قبل.. اي انسان حر ، فطري العقل، يصبح كله اذانا صاغية حين يسمع كلاما لم يعهده من قبل وان آمن به يبقى يردده ، عن يقين ،طيلة حياته ..لم ينته الدرس عند حدود الصف بل كان يمتد في مضيف مطلك والذي كنا نقضي فيه جل لياليا ونحن نتبادل اطراف الحديث ونطرق كل ابواب السياسة وصروف الحياة وشؤون العمل في الهور والمعيشة ، لم يرتح شيخ فزع ولا رجل الدين راضي الى وجودي المحرض في القرية خاصة وانا سرقت منهما معظم جلاس ديوانيهما ، كانوا يراقبون خطاي في رواحي ومجيئي الى بيت مطلك ، فقد كان يعد لي وجبات طعامي تقدمها لي ابنته زهرة البالغة من العمر الخامسة والعشرين عاما والتي كانت ، حين حضرت القرية اول الايام ، تغطي وجهها بخمار لا يبان منه الا عيناها السوداوان الكحيلتان تخزنان حزنا دفينا لكنها وبمرور الاشهر رفعت النقاب، راسها ملفوف بعصابة سوداء يغطيها شال طويل يستر رقبتها وصدرها وظهرها، عباءتها السوداء تلف بها وسط جسدها، وجهها حنطي شاحب من قلة شهيتها للغذاء ومن فرط تعب مضني وهي تخدم ،من ساعات الصباح الاولى حتى اطباق الليل على صدر الهور ،اعدادا غفيرة من الجواميس والابقار ملزمة بتوفير الغذاء لها وان اضطرها الامر الى حش القصب والادغال من بطن الهور عدة مرات في اليوم.. ابتدأت بتداول اطراف الحديث معي ، كان صوتها رخيما وروحها طرية واحلامها لا يسعها هذا الهور الاصم ،شجعتها على الالتحاق بالصف ان رتبت وقتها بذكاء .. كانت حريصة في الدرس على

ان لا تفوّت كلمة واحدة مما اقوله وتراجع ما سمعته في غرفتها ليلا فنادرا ما كان يطفأ مصباح غرفتها وفتحة باب غرفتها اولى المستقبلين لاقدام الفجر وهي تخوض في افق الهور الدامس.. احضرت مولدة كهربائية صغيرة تعمل بالبنزين وتلفزيون مع شبكة استلام البث الى غرفتي.. تسهر القرية كل ليلة امام التلفزيون وهم لا يطرفون ابصارهم حتى اني كنت اسمع كبار السن منهم يهمسون بآذان بعض بان هذا الذي نراه في التلفزيون شيطان ومن ابتكر هذه الاجهزة الخبيثة فصيل خاص من الجن وليس البشر المؤمن.. بعد مرور عام انيرت معظم بيوت القرية بالمصابيح وارتفعت شبكات التلفزيون وتقطع سكون الهور بجعير المولدات الكهربائية.. كان رجال القرية وشبابها يلتحقون بي انى توجهت وكأني مغناطيس يلم شظايا النفوس من التيه والضياع ويمنحها الثبات والثقة الفائقة بالنفس.. يتراصفون معي في صف الدرس وفي مضيف مطلك وامام شاشة التلفزيون.. قبل اشهر قليلة ونحن جالسون في مضيف مطلك اقرأ لهم في رواية عراقية لكاتب بصري وهم ينصتون لي خاشعين.. وقف فزع وراضي في باب المضيف ، عيونهم تقدح شررا ووجهاهما اصفران من غيض دفين مكتوم.. خلفهما الرجلان المسلحان ،توقفت عن القراءة.. التفتنا جميعا صوبهما.. بادر راضي بالحديث..

- يا ابناء قرية الزنابير لقد تركتم الرابية ، سيأتي ولن يجد احدا وسيغضب وتنزل علينا لعناته..

اجبت وانا اكتم في داخلي ضحكة قوية لا يبان منها الا ما تنفرج له الشفتان وتختلط كركراتها مع الكلام..

- ان أتى فاكيد سيفرح حين يجدنا مجتمعين نتداول في امور الثقافة والعلم ..

صرخ راضي في وجهي ..

- اي هراء هذا.. اتسخر منا ،لقد افسدت عقول ابناء قريتنا.. من يصلي في المسجد يعدون الان على الاصابع.. اي فيروس معد اصاب عقولهم ،استاذ خير لك ان تتركنا..

نظر الي نظرة طويلة وملامح وجهه يتموج فيها مد بركان انفعال حبيس وغضب كاسح.. انسحب من باب المضيف وهو يزبد ويرعد ..تنحنح فزع.. خاطب الجالسين وسبابته تشير اليهم متوعدة ..

- وانتم ماذا جرى لكم.. لم يعد احد يدخل مضيفي ، انا فزع شيخ العشيرة ، باشارة مني تحيون وباخرى تموتون..

صمت عن الكلام.. قبل ان ينصرف خاطب مطلك..

- مطلك ، تعال الى المضيف احتاجك لامر هام..

في منتصف الليل ورموش عيني اطبقهما نوم ثقيل لزج ، الغرفة يضيئها فانوس اعشى.. طُرِقَ باب الغرفة.. فتحت الباب ، كان مطلك يقف في باب الغرفة والقلق يفترسه باسنان بيض تلمع رغم سواد الليل ..جلسنا على سريري.. بادر مطلك بالحديث بارتباك..

- استاذ جميل، هناك امر مبيت لنا ، اشعر بالخطر يلتف حول اعناقنا كل لحظة.. حياتي وحياتك في خطر ..

سألت بعد تفكير:

- وما المطلوب مني..؟

VICE قذارة السياسة الأمريكية

نزار عبد الغفار السامرائي

كيف يتم صعود اشخاص مغمورين، مغامرين، من القاع ليصلوا الى القمة فيتحكمون بمصير الشعوب والامم ويتحكمون بصنع قرارات مصيرية دون ان يعني ذلك شيئا سوى تحقيق ما بداخلهم تحت شعار خدمة الوطن والحفاظ على الأمة وحماية الشعب وغيرها من الشعارات التي يستخدمها السياسيون، لإخفاء مقاصدهم الحقيقية.

هكذا يعرض فلم (VICEالنائب) حكاية صعود ديك تشيني للوصول الى منصب نائب رئيس الولايات المتحدة الامريكية بعد أن بدأ حياته شابا عابثا يطرد من الكلية بسبب ادمانه الخمر والمشاجرة المستمرة.

لم يكن تشيني كأي شخص تولى منصب نائب الرئيس الأمريكي، فهو سعى ليهيمن على القرارات المهمة، مستغلا ضعف الرئيس بوش الابن، ليصبح نائب الرئيس عراب قرارات مصيرية غيّرت مصير دول وشعوب ولاسيما ما يتعلق بالحرب على افغانستان وغزو العراق، والتوجيه بممارسة الخطف والتعذيب في المعتقلات تحت ذريعة محاربة الارهاب الاسلامي، وظهور معتقل غوانتانامو سيء الصيت، وسجن ابو غريب الذي مارس فيه المحققون الامريكان ابشع وأسوء الطرق في التعذيب والاهانة والانتهاكات لجميع القيم الانسانية.

ويظهر الفيلم الدور التآمري الذي لعبه ديك تشيني بمساعدة دونالد رامسفيلد، لاقناع الرئيس بوش والعالم بغزو العراق، سواء بتلفيق ادلة عن اسلحة الدمار الشامل، او علاقة النظام بالقاعدة، والخطر الذي يهدد الشعب الأمريكي والعالم جراء ذلك.

لقد حقق تشيني الكثير مما يسعى اليه، والذي جعله يسير بخطى متصاعدة من متدرب في الكونغرس يعمل كتابع لرامسفيلد، الى شخصية سلطوية تتحكم بمصير العالم، وتتخذ القرارات بشكل يؤمن سيطرته وهيمنته المتصاعدة لكن ذلك ينهار مع كشف زيف ادعاءاته وتصدع ادارة بوش التي بدأت باستقالة وزير الخارجية كولن باول اشد المعترضين على سياسة تشيني الانتهازية.

وعلى وجه الخصوص بعدما يكتشف الشعب الامريكي ان الزيف الاعلامي الذي مارسه شيني ومستشاروه كان وراء صعود اسم ابو مصعب الزرقاوي المسؤول عن إراقة دماء الآلاف من الأبرياء، تحت يافطة طائفية مقيتة.

كما يركز الفيلم على الدور الذي لعبته لين زوجة تشيني في صعوده وتغييره من شاب سكير متهور الى شخصية طموح تسعى

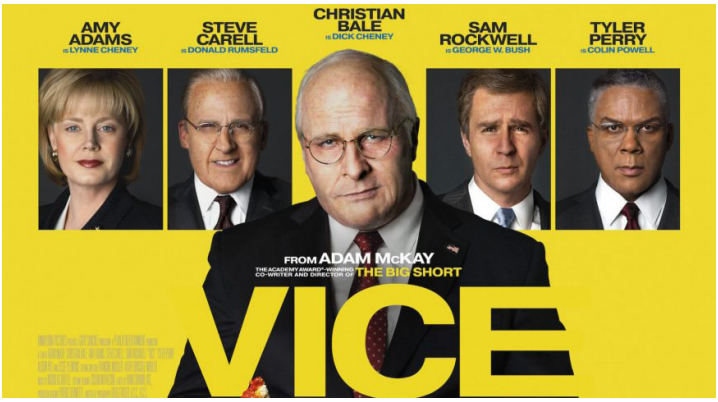

للوصول الى رئاسة البيت الابيض بأي شكل من الأشكال، غير أن الامر لا يتحقق بسبب اكتشافه الميول المثلية لإحدى ابنتيه، وخوفه ان يتسبب وصول تلك المعلومة للإعلام بانهيار طموحاته وعائلته.

ان المميز بالفيلم كونه سيرة ذاتية لسياسي، السيناريو الذي كتب بشكل غير تقليدي والذي يمزج بين الفنتازيا والدراما والصور الوثائقية ليشكل مزيجا ممتعا يشدّ المشاهد للمتابعة، ولاسيما بعدما نعرف قبل نهاية الفيلم ان السارد للأحداث هو شخص ميت ! يتم زرع قلبه في صدر تشيني الذي يعاني من ضعف في القلب يهدد حياته.

ينتهي الفيلم بإصرار تشيني على انه غير نادم على كلّ ما فعل وغير مكترث للأرواح التي ازهقت بسبب قراراته السيئة، معللا ذلك بأنه عمل من اجل الحفاظ على أمن امريكا وشعبها ! الذريعة الأبدية للقيادات السياسية وهي تحاول تبرير ما فعلته، حتى وان كان ذلك يهدد حياة مجتمعات اخرى بالكامل.

VICE من تأليف وإخراج آدم مكاي. و بطولة كريستيان بيل في دور ديك تشيني، وإيمي آدمز، ستيف كارل، وسام روكويل، وبيل بولمان، وأليسون بيل، وعرض يوم ٢٥ كانون الاول ٢٠١٨ .

اليوم العالمي لحرية الصحافة

يحتفل العالم في الثالث من آيار/مايو من كل عام باليوم العالمي لحرية الصحافة، وهو يوم حددته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة اليونسكو، لتحيي عبره ذكرى اعتماد إعلان ويندهوك التاريخي الذي تم في اجتماع للصحافيين الأفارقة في 3 أيار/ مايو 1991.

وتخصص الأمم المتحدة هذا اليوم للاحتفاء بالمبادئ الأساسية، وتقييم حال الصحافة في العالم، وتعريف الجماهير بانتهاكات حق الحرية في التعبير، والتذكير بالعديد من الصحافيين الذين واجهوا الموت أو السجن في سبيل القيام بمهماتهم في تزويد وسائل الإعلام بالأخبار اليومية.

مطبوعات وصلتنا :

• عبد الكريم هداد، اكبر من الجنة.. اصغر من البلاد، دار الأدهم للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الاولى، 2019

• همام عبد الغني المراني، أيام لا تنسى، دار ميزر للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، 2019.

• هاشم نعمة فياض، العالم العربي: دراسات في المتغيرات السكانية ونظرياتها، الطبعة الاولى، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2018.

• أ.د.احمد عبد المجيد ، يوميات أرمنيا/ شركة الانس للطباعة والنشر/بغداد2018.

• عادل العرداوي .. الله بالخير.. وقفات على شاطئ الأدب والتراث الشعبي..2015 /مطبعة شاكر /للطباعة الحديثة. الجزء الاول .

• عادل العرداوي .. الله بالخير.. وقفات على شاطئ الأدب والتراث الشعبي2018 /مطبعة شاكر /للطباعة الحديثة. الجزء الثاني.

• مجلة الاديب العراقي / العدد 19 /صيف 2018.. مجلة فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق .

• المجالس البغدادية /مجلة فصلية ثقافية تصدر عن رابطة المجالس البغدادية / العدد السابع – اذار – 2017 .

• عدنان صالح محمد .. لمحة تأريخية عن انبثاق حركة انصار السلام في كركوك / مطبعة آفيستا – كركوك 2017.

• مقداد مسعود .. ارباض ..وحدات شعرية ..دار ضفاف للنشر 2018.

• بلقيس خالد..كائنات البن .. رواية..دار المكتبة الأهلية / 2017 .